دولة بنى قلاوون فى مصر

الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور

مدرس التاريخ الاسلامى بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

الناشر

دار الفكر العربى

مطبعة الاعتماد بمصر

دولة بني قلاوون في مصر

الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور
مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

الناشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد حملنى شغفى بدراسة تاريخ مصر الاسلامية على كشف بعض نواحى عصر المماليك ؛ فتناولت بالبحث عصر الظاهر بيبرس الحافل بأسباب العظمة والمجد ، ثم رأيت أن أعنى بدراسة دولة بنى قلاوون فى مصر ، لأكشف بذلك عن صحيفة مشرفة لمصر والشرق الاسلامى كله ، ولأحقق الرغبة التى تاقت إليها نفسى ألا وهى دراسة تاريخنا القومى فى عصر من أزهى عصور التاريخ المصرى الاسلامى .

وقد عنيت فى هذا البحث بدراسة الموقف السياسى الداخلى في مصر ؛ فوضحت كيف استطاع قلاوون أن يؤسس من بيته أسرة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان رغم أن مبدأ وراثة العرش لم يكن مألوفا لدي أمراء المماليك ، كما بينت السياسة التى اتبعها الناصر محمد بن قلاوون فى توطيد ملكه بمصر ، وكيف أكسبته أعماله المجيدة فى سبيل تقدم مصر والذود عنها ولاء الشعب المصرى له ، الأمر الذى ساعده على تركيز الحكم فى أبنائه .

ومن المسائل التى وجهت الموقف السياسى الداخلى فى ذلك العهد

توجيها له طابع خاص ، قيام الخلافة العباسية فى مصر . فكان هناك بجانب سلاطين أسرة قلاوون خلفاء فى القاهرة يتولون الخلافة بالوراثة . ومع حرص هؤلاء السلاطين على أخذ تفويض شرعى من الخلفاء العباسيين بالقاهرة لتثبيت مركزهم ، فانهم حالوا بينهم وبين التدخل فى شئون الدولة لما قد يترتب على ذلك من تمهيد السبيل أمامهم لارتقاء عرش مصر والجمع بين السلطتين الزمنية والدينية .

كذلك وجهت إهتمامى إلى كشف النقاب عن اتجاهات سياسة مصر الخارجية ؛ فتبين لى أنها قامت على أسس ثابتة ؛ ومن أهم أركانها: الوقوف فى وجه الصليبيين ؛ ودفع خطر المغول ، والاحتفاظ بزعامة مصر لأمم العالم الاسلامى ، وربط أواصر الصداقة بينها وبين الدول المجاورة لها لما يعود عليها من وراء ذلك من منافع مادية وأدبية .

وقد رأيت إتماما للفائدة أن أتناول بالبحث أهم نواحى الحياة الاقتصادية في مصر فى ذلك العهد لما لها من وثيق الصلة بتعزيز الكيان الداخلى لدولة بنى قلاوون واحتفاظها بما ظفرت به من مركز ممتاز بين الدول الشرقية والأوربية .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أقدم أخلص الشكر لحضرة أستاذى الدكتور حسن ابراهيم حسن أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة فؤاد الأول على ماوجهنى إليه من توجيهات علمية قيمة .

أرجو الله سبحانه وتعالى التوفيق فيما أنا بسبيله من خدمة بلادى وتاريخها المجيد ؟

القاهرة فى { ٢٥ شوال سنة ١٣٦٦
١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ }

محمد جمال الدين سرور

المحتـــويات

الكتاب الأول

حالة مصر الداخلية فى عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الفصل الرابع

صفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الكتاب الثالث

حالة مصر الاقتصادية فى عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الكتاب الأول

حالة مصر الداخلية
فى عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول — الموقف السياسى الداخلى من عهد قلاوون إلى منتصف القرن الثامن الهجرى

الفصل الثانى — انحلال أسرة قلاوون وزوال دولتها

الفصل الثالث — الخلافة العباسية فى عهد أسرة قلاوون

الفصل الرابع — سياسة أسرة قلاوون فى نشر الإسلام بمصر

الفصل الأول

الموقف السياسى الداخلى من عهد قلاوون
إلى منتصف القرن الثامن الهجرى

١ – انتقال الحكم من بيت بيبرس إلى أسرة قلاوون

حرص بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر على أن يكون الحكم فيها ملكيا وراثيا فى أبنائه . وقدمهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ ، ثم مالبث أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا . قرىء فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد [١] .

ولما توفى الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ ، كتب الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار إلى الملك السعيد بالقاهرة ، يخبره بموت أبيه ؛ فجدد الأمراء له البيعة بالسلطنة ، كما بايعه سائر العسكر والقضاة والأعيان ؛ ودعا له الخطباء على منابر الجوامع بمصر والقاهرة [٢] .

وقد قرب الملك السعيد إليه جماعة من المماليك الأحداث ، وسرعان ما ازداد نفوذهم وصاروا يتدخلون فى تعيين نواب السلطنة وعزلهم . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تدخل مماليك السلطان الخاصكية [٣] فى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ١٦٠ .
الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره للمؤلف ص ١٢٨ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ القسم الثانى ص ٦٤٢ .

(٣) أورد الخالدى (المقصد الرفيع المنشا فى صناعة الانشا ، تعريفا للخاصكية ونصه : « جعل ذلك (الاسم) علما عليهم لأنهم يحضرون على الملك فى أوقات خلواته وفراغه ، وينالون من ذلك ما لا يناله أكابر المقدمين ويحضرون طرق كل نهـار فى خدمة القصر والاسطبل

توزيع الإقطاعات ، وأدى ذلك إلى قيام النزاع بين السلطان الملك السعيد ، ونائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك الساقى الذى تمكن من ضم جماعة من كبار الأمراء إلى جانبه .

وكان من أثر تحيز السلطان لمماليكه وإطلاقه يدهم فى إدارة شئون الدولة وإغداقه الأموال الوفيرة عليهم أن استاء منه الأمراء الصالحية ، وخاصة الأمير سيف الدين قلاوون ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير علم الدين سنجر الحلبي وهؤلاء كانوا جميعاً يأنفون من تولية الظاهر بيبرس سلطاناً عليهم ويرون أنهم أحق منه بالملك .

ولما ازداد النفور بين السلطان والأمراء ، عول على التخلص منهم ؛ فسجن بعضهم ، وكان لعمله هذا أسوأ الأثر فى نفوس زملائهم ، فاجتمعوا مع أجنادهم وأتباعهم ، ومن انضم اليهم من العساكر بايوان قلعة الجبل ، وبعثوا إليه بكتاب هددوه فيه بالإقلاع عن هذه السياسة ، ومما ورد فى هذا الكتاب :

« إنك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فإما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن » ، وظلت الرسل تغدو وتروح بين السلطان والأمراء حتى تقرر الصلح بينهم (١) .

على أن خاصكية الملك السعيد ، ما لبثت أن عادت إلى إثارته ضد أكابر الأمراء فأشاروا عليه عندما قدم إلى دمشق سنة ٦٧٧ هـ بأن يقصيهم عنه ، فعهد إليهم بغزو سيس بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون . ولم تكتف الخاصكية بذلك بل أوعزت إلى السلطان بالقبض عليهم عند عودتهم من سيس ، وتوزيع إقطاعاتهم على فريق منهم (٢) .

ويركبون لركوب الملك ليلا ونهارا ولا يتخلفون فى قرب ولا بعد ويتميزون من غيرهم فى الخدمة بحملهم سيوفهم ولباسهم الطرز الزركشى ويدخلون على الملك فى خلوته بغير إذن ويتوجهون فى المهمات الشريفة ويتأنقون فى مركوبهم وملبوسهم » .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٤٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٦٤ .

ولما عاد الأمراء من سيس ،خرج الأمير كوندك إلى لقائهم ، وأخبرهم بموقف الخاصكية العدائى إزاءهم ، فحرك قوله كوامن الغضب من نفوس هؤلاء الأمراء ، وأشاروا على الملك السعيد بإقصائهم عنه ، حتى لا يكون لهم أى نفوذ فى الدولة . على أن السلطان رفض طلبهم ، ثم عاد إلى مصر واستقر بالقلعة ، ولم يمض على إقامته بها غير قليل حتى أحاط بها الجند بقيادة الامير سيف الدين قلاوون ، وقطعوا عنها الماء [١] .

ولما اشتد حصار الجند للقلعة ، أرسل السلطان إلى الامراء يعرض عليهم نزوله لهم عن بلاد الشام ، فأبوا إلا أن يخلع نفسه من السلطنة ، فالتمس من الامير سيف الدين قلاوون والامير بدر الدين بيسرى أن يعطوه الكرك ، فأجاباه إلى ذلك ، وأجلس المماليك أخاه بدر الدين سلامش على العرش [٢]

ولما رحل الملك السعيد إلى الكرك عرض كبار الامراء السلطنة على الامير سيف الدين قلاوون ، فامتنع عن قبولها وقال : « أنا لم أخلع الملك السعيد شرها إلى السلطنة وحرصاً على المملكة ، لكن حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الاصاغر ، والاولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر [٣] » .

على أن الامير قلاوون لم يمتنع عن قبول السلطنة رغبة منه فى الاحتفاظ بها لذرية بيبرس أو احتراماً لمبدأ وراثة العرش ، بل رأى أن أغلبية الجيش كانت من الظاهرية ، أنصار الظاهر بيبرس ، فخشى قيامهم بالثورة ضده ، كما أن أكثر البلاد كان يتولى إدارتها أمراء موالون لأسرة بيبرس ، لذلك عول على عدم قبول السلطنة إلا بعد إقصاء هؤلاء الأمراء عن مناصب الدولة . وحبذ الأمراء الموالون له هذا الرأى ، فاتفقوا على تولية الأمير بدر الدين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٢ — ٦٥٣ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١٢٦ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٧ .

سلامش بن بيبرس — وعمره سبع سنين ، سلطنة مصر ، ولقبوه بالملك العادل، وعينوا الأمير قلاوون أتابكا له ، وعز الدين أيبك الأفرم فى نيابة السلطنة [١].

ولما تم تقليد الملك العادل سلامش سلطنة مصر طلب أتابكه قلاوون إلى الأمراء أن يقسموا له يمين الطاعة ؛ وضربت السكة باسميهما ، فنقش على أحد وجهيها : اسم الملك العادل وعلى الوجه الآخر : اسم قلاوون ، كما خطب لهما على المنابر [٢].

على أن الأمير قلاوون سرعان ما استغل صغر سن الملك العادل سلامش فقبض على زمام الأمور فى البلاد ، وأخذ يتطلع إلى سلطنة مصر ، فزج بعض الأمراء الظاهرية فى السجن ، وأمر بالقبض على عز الدين أيدمر نائب الشام ، وعين شمس الدين سنقر الأشقر بدلا منه ، كما استمال إلى جانبه الصالحية ، موالى الملك الصالح أيوب ، بما أغدقه عليهم من الإقطاعات ، وتوطدت علاقته بالأمراء الخاصكية .

ولما تخلص الأمير قلاوون من مناوئيه ، دعا أمراءه وتحدث معهم فى صغر سن سلامش ، وقال لهم : « قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل » ، فاتفقوا على خلعه وإنفاذه إلى الكرك ، وتولية قلاوون سلطنة مصر [٣] .

وهكذا زال الملك من بيت بيبرس على يد قلاوون الذى اصطنعه الظاهر بيبرس وارتبط معه برباط المصاهرة ، فزوج ابنه الملك السعيد من ابنته سنة ٦٧٤ هـ ، غير أن قلاوون سرعان ما طمع فى عرش مصر على أثر وفاة بيبرس ، فانتهز فرصة ضعف الملك السعيد والخلاف الذى قام بينه وبين أمرائه وعمل على خلعه ليحل محله فى سلطنة مصر ، ولم يكتف بذلك بل أقصاه هو وأخويه نجم الدين خضر والملك العادل سلامش إلى بلاد الشام [٤] ، وبذلك صفا له الجو ، واستطاع أن يؤسس من بيته أسرة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان .

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٦٥٦ — ٦٥٧ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨٦ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٦٥٨ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٦٥٥ ، ٦٥٨ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ .

٢ ـ حالة مصر الداخلية من سلطنة قلاوون حتى نهاية عهد الأشرف خليل

لما اعتلى قلاوون عرش السلطنة فى مصر سنة ٦٧٨ هـ ، تلقب بالملك المنصور وصار يذكر اسمه فى الخطبة على المنابر. ولم يكد يستقر له الأمر حتى خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ، كما لم يعترف بخلع الملك العادل سلامش وتولية قلاوون سلطنة مصر ، فدعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل ، وخطب له على منبر الجامع الأموى بها. ولم تقتصر دعوته على بلاد الشام ، بل كاتبه بعض الأمراء الصالحية والظاهرية [1].

ولما علم الملك المنصور قلاوون بخروج سنقر عليه ، أرسل اليه كتاباً ، أنحى فيه عليه باللائمة ، كما حث أمراء مصر على طاعته خشية الفتنة. ولم يكتف بذلك ، بل أنفذ فى أوائل سنة ٦٧٩ هـ جيشاً لمحاربته ، والتقى الفريقان بغزة واضطر أتباع سنقر إلى العودة منهزمين إلى مدينة الرملة [2].

على أن هذه الهزيمة لم تفت فى عضد سنقر ، الذى استمال إلى جانبه أمراء الشام حتى أتته النجدات من حلب وحماة ، كما عاونه بعض أمراء العربان ، ولكن على الرغم من ذلك فقد حلت الهزيمة بجنده وانضم بعضهم إلى جيش السلطان قلاوون ، ورحل سنقر إلى الرحبة. ولما امتنع والى هذه البلدة عن تسليمها اليه ، كتب سنقر إلى أباقا بن هولاكو ايلخان المغول فى فارس يحسن له الإغارة على بلاد الشام ، ثم هرب إلى صهيون [3].

ولما فرغ السلطان قلاوون من مهادنة بوهمن أمير طرابلس ومقدم

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٦٧٢ — ٦٧٤ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٩٤ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٦٧٥ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ١٢٧٠ ،
المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٦٧٦ — ٦٨٧ .

بيت الاسبتار (Hospitallers) بحصن المرقب سنة ٦٨٠ هـ ، سار إلى المكان المعروف بمنزلة الروحاء [١] فى بلاد الشام ، وهنا أخبره الأمير بدر الدين بيسرى بأن الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار قد دبروا مؤامرة لاغتياله ، وكتب اليه أصدقاؤه المقيمون بعكا يحذرونه من بعض الأمراء الذين أسروا إلى الفرنجة بما دبروه للسلطان ونصحوا لهم بعدم عقد أية معاهدة بحجة أنه سيقتل فى القريب العاجل [٢] .

على أن السلطان قد علم بما دبره له أعداؤه فاتخذ الحيطة لنفسه وغادر الروحاء ميمما شطر بيسان حيث دعا الأمير سيف الدين كوندك إلى حضرته ووبخه هو ومن معه من الأمراء الذين تآمروا على قتله ، كما عاب عليهم مكاتبتهم الفرنجة . فاعترفوا بفعلتهم والتمسوا منه العفو عنهم ، لكنه لم يصغ لالتماسهم وأمر بإعدامهم ، ثم وجه التفاته إلى نفر من المماليك الذين شك فى اخلاصهم فقبض على بعضهم وزجهم فى أعماق السجون ، وفر جماعة من أتباع أسرة الظاهر بيبرس ونحو ثلثمائة فارس من التتار إلى صهيون حيث لحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر [٣] .

ولما تخلص السلطان قلاوون من الأمراء الذين تآمروا على قتله ، رحل لأول مرة منذ ولى السلطنة إلى دمشق حيث رحب به أهلها واحتفلوا بلقائه احتفالا كان له أحسن الأثر فى نفسه ، فأمر برفع المظالم عنهم [٤] .

ولم يمض وقت طويل على رحيل السلطان قلاوون إلى دمشق حتى أنفذ فريقاً من جنده مع عز الدين أيبك الأفرم للقضاء على سنقر الأشقر ، غير

---

(١) بلد بساحل فلسطين (ابن أبى الفضائل ج ٢ حاشية رقم ٤ ص ٣٢١) .

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ ؛
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.53

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٨ ب

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

أن هذا الأمير لم يلبث أن بعث إلى السلطان فى طلب الصلح ، وشرط شروطا منها : أن يأمر السلطان بتلقيبه بلقب ملك ، وأن ينزل له عن فامية وكفر طاب وأنطاكية وصهيون واللاذقية فى مقابل نزوله عن شيزر التى كان قد استولى عليها ، وأن يكون أميراً على ستمائة فارس عدا من عنده من الأمراء وقد أجابه السلطان إلى طلبه ، وكتب له تقليداً بولاية هذه البلاد ، لكنه أبى أن يلقبه بلقب ملك ، وأصبح هذا الأمير يخاطب فى المكاتبات بهذه الألقاب وهى : « المقر العالى المولوى السيدى العالمى العادلى الشمسى » (١) .

على أن السلطان قلاوون مالبث أن نقم على الأمير سنقر الأشقر لأنه لم يحضر لمقابلته حين نازل حصن المرقب ، واكتفى بإرسال ابنه إليه ، فأسر السلطان هذه المسألة فى نفسه وأنفذ جيشاً لمحاربته سنة ٦٨٦ هـ تحت قيادة الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة ، وظل القتال بين الفريقين حتى اضطر سنقر إلى طلب الأمان ، فأمنه الأمير طرنطاى ثم صحبه إلى القاهرة حيث احتفل السلطان بلقائه ومنحه الخلع وأنعم عليه بإمرة مائة فارس وتقدمة ألف (٢) .

ولما اشتد تهديد المغول لبلاد الشام ، عهد قلاوون لأكبر أولاده علاء الدين على أبى الفتح بالسلطنة من بعده ، ليتيسر له التفرغ لصد غاراتهم (٣) فدعا أكابر الأمراء وخاطبهم فى أمر تفويض ولاية العهد لابنه علاء الدين ، فلقى اقتراحه قبولا منهم ، وقرىء تقليده بالإيوان الكاملى بقلعة الجبل ، جاء فيه : (٤) « الحمد لله الذى شرف سرير الملك منه بعليه وحاط منه بوصيه

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٧٠ ب ،
المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٣٤ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٣٤ — ٧٣٥ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٧٧ ا — ٢٧٧ ب
(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٩ ص ١٠٥ ا — ١٠٨ ا .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١٧٣ — ١٧٧ .

وعضد منصوره بولاية عهد صالحة . . وبعد ، فان خير من شرفت مراتب السلطنة بحلوله . . . . . . ومن يتشرف إيوان عظمته ، إن غاب والده فى مصلحة الإسلام فهو صدره وإن حضر فهو ثانيه . . . ولما كان المقام العالى الولدى ، السلطانى الملكى ، الصالحى العلائى . . . هو المرجو لتدبير أمور المسلمين . . . فلذلك خرج الأمر العالى المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، السيفى . . . أن يفوض اليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة بالديار المصرية . . . والمملكة الحجازية . . . ومملكة النوبة . . . والفتوحات الإسلامية الساحلية ، والممالك الشامية وحصونها . . . وأن تلق إليه مقاليد الأمور فى هذه الممالك الشريفة ، وأن تستخلفه سلطنة والده . . . لتشاهد الأمة منه فى وقت واحد سلطاناً وخليفة ولاية واستخلافا . . .

وأما الوصايا فقد لقنا ولدنا وولى عهدنا ما ا طبع فى صفاء ذهنه ، فاتق الله كأنك تراه . . . وانصر الشرع . . . واقض بالعدل . . . وأمر بالمعروف وانه عن المنكر . . . وأقم الحدود وجند الجنود ، وابعثها براً وبحراً من الغزو إلى كل مقام محمود . . . وأمراء الإسلام الأكابر . . . فضاعف لهم الحرمة والإحسان ، وشاورهم فى الأمر ... وجيوش الاسلام هم البنان والبنيان فوال إليهم الإمتنان . . . والبلاد وأهلها فهم عندك الوديعة ، فاجعل أوامرك لهم بصيرة وسميعة .

وأما غير ذلك من الوصايا ، فسنخولك منها بما ينشأ معك توءما ، ونلقنك من آياتها محكما فحكما ، والله تعالى ينمى هلالك حتى يوصله إلى درجة الأبرار ويرزقك سعادة سلطاننا . . . ويجعل الرعية بك فى أمن وأمان حتى لا تخشى سوءاً ، ولا تخاف دركا . . . »

ولما توفى الملك الصالح على سنة ٦٨٧ هـ ، كتب القاضى محي الدين بن عبد الظاهر تقليداً بولاية العهد لخليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون

الذى أصبح يلقب منذ ذلك الوقت بالملك الأشرف [١] . ومما جاء فى هذا التقليد [٢] :

« . . . إن من ألطاف الله تعالى بعباده واكتناف عواطفه ببلاده أن جعلنا كلما وهى للملك ركن شديد شيدنا ركناً عوضه ، وكلما اعترضت للمقادير جملة بدلنا آية مكان آية . . . فأطلعنا فى أفق السلطنة كوكباً سعيداً كان لحسن الاستخلاف معداً . . . وكأنما كوشفت الإمامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدم من زمن سلف ومن حين ، فسمت ووسمت باسمه أكابر الملوك وأخاير السلاطين ، فخوطب كل منهم مجازاً لا كهذه الحقيقـــة « بخليل » أمير المؤمنين . . .

ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه ما كان لوقته المعلوم قد تأخر وتحين حينه فكمل زيادة كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فأبدر ، اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجهور والمراقبة لمصالح الأمور . . . أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة . . . وأن يبسط يده المنيفة لمصافحتها بالعهود وتحكمها فى العساكر والجنود . . فلا سلطان . . . ولا نائب فى مملكة . . . ولا مقدم جيوش . . . ولا راع ، ولا رعية . . . إلا وكل داخل فى قبول هذا العقد الميمون . . . وليشكروا الصنيع الذى بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملوك قد صار سلطانهم يقيم من ولاة العهد خليفة بعد خليفة .

« وأما الوصايا . . . فعليك بتقوى الله عز وجل . . . والشرع الشريف فلا تخرج فى كل حال عن لوازمه وشروطه . . . والعدل . . . فاجعله جامع أطراف مراسمك . . . وأمراء الجيوش . . . فكن لجنودهم متحبباً . . . ولآرائهم مستصوباً . . . كذا نوصيك بالجيش الذى له الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام . . . وبيوت العبادات فهى التى إلى مصلى سميك « خليل » الله

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٠ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ .

تنتهى محاريبها . . . مر برفعها وذكر اسم الله تعالى فيها . . . وأخواتها من بيوت الأموال . . . فاصرف اليها اجتهادك فيما يعود بالتثمير . . . وحدود الله فلا يتعداها أحد . . . وبيت الله المحجوج . . . فسير سبيله .

« هذا عهدنا للسيد الأجل ، الملك الأشرف ، صلاح الدنيا والدين . . . خليل أمير المؤمنين . . . فليكن بعروته متمسكا . . . وليتقلد سيف هذا التقليد . . . والله تعالى يجعل استخلافه للمتقين إماماً وللدين قواماً . . . ويطفىء بمياه سيوفه نار كل خطب حتى يصبح كما أصبحت نار سميه صلى الله عليه وسلم برداً وسلاماً » .

على أن السلطان قلاوون رأى بعد قليل عدم أهلية ابنه الأشرف خليل للسلطنة من بعده ، فامتنع عن التوقيع على تقليد بيعته بولاية العهد ، وعبر عن عدم رضائه عنه حين عرض عليه القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر هذا التقليد بقوله : « أنا ما أولى خليلا على المسلمين »(١) .

على أنه لايبعد أن يكون السبب الذى حمل قلاوون على عدم التوقيع على تقليد ابنه الأشرف خليل بولاية العهد ، ارتيابه فى سلوكه الشخصى واعتقاده بعجزه عن الاضطلاع باعباء المسلمين .

ولما آلت السلطنة إلى الملك الأشرف خليل ، دعا القاضى فتح الدين ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء وقال له : أين تقليدى؟ فأحضره اليه وهو خلو من توقيع والده ، واعتذر له عن ذلك بأن السلطان الملك المنصور قلاوون شغله أمر العدو عن التوقيع على التقليد ، فقال له السلطان

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٤٥ ، ٧٥٦ ، أشار أبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٠) إلى بيعة الأشرف خليل بولاية العهد بقوله : « فى شوال سنة ٦٨٧ هـ سلطن الملك المنصور قلاوون ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليلا وجعله مكان أخيه الملك الصالح علاء الدين على بعد موته ودقت البشائر لذلك سبعة أيام بالديار المصرية وغيرها وحلف الناس له والعساكر وخطب له بولاية العهد » .

الملك الأشرف : يافتح الدين ، إن السلطان امتنع أن يعطينى ،فأعطانى الله» [١]

ولم يكد السلطان الأشرف خليل يتولى الحكم حتى بلغه أن الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة يعمل على التخلص منه ، فقبض عليه وقتله وصادر أملاكه ، ونقل ماتحويه خزائنه إلى بيت المال ، كما منح إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا الذى فوض اليه نيابة السلطنة [٢].

كذلك عزل السلطان الملك الأشرف خليل علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة سنة ٦٩٠ ﻫ وعين شمس الدين محمد بن السلعوس [٣] الذى زاد نفوذه فى الدولة بعد أن ألقى اليه السلطان مقاليد أمورها وجعل من اختصاصه الإشراف على شئون الأمراء ، كما علت مكانته حتى أصبح لا يسير إلا فى موكب من الجند وأصحاب الدواوين ، وبين يديه القاضيان الشافعى والمالكى يسير أمامهما القاضيان الحنفى والحنبلى ، ثم نظار الدولة [٤] .

وكان السلطان الملك الأشرف خليل يحرص على استتباب الأمن فى جميع أنحاء دولته ، فلما بلغه أن العربان عاثوا فساداً فى الوجه القبلى وتعرضوا

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٩٣ ا ،
المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦١ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ص٩ س ١٦٧ ا — ١٦٧ ب

(٣) كان هذا الوزير فى بادىء أمره يشتغل بالتجارة فى دمشق ، ثم أخذ يتنقل فى بعض الوظائف حتى ولى الحسبة والنظر فى ديوان الملك الأشرف ببلاد الشام ، فجمع أموالا كثيرة من ضياع كان يستأجرها لحسابه ، وما أن قدم الى مصر فى أيام السلطان قلاوون ، وسعى لدى الأشرف خليل ولى عهد الدولة المصرية إذ ذاك حتى عينه ناظرا لديوانه بمصر ، غير أنه سرعان ما أساء التصرف وابتز أموال بعض المقطعين مما حدا بالسلطان قلاوون إلى عزله وتعيين فخر الدين بن الخليلى بدلا منه . ولما حل موسم الحج توجه ابن السلعوس إلى الحجاز وظل فيها إلى أن آلت السلطنة إلى الملك الأشرف خليل ، الذى بعث فى طلبه وكتب إليه بخطه : «يا شقير ، يا وجه الخير ، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية» .
النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٢٩٤ — ٢٩٤ ب
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٦٧ ب — ١٦٨ ا

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦١

للبارة فى الطرق ، عول على إخماد فتنتهم ، وتقدم الوزير شمس الدين بن السلعوس السلطان إلى تلك البلاد لاستقباله ، حيث تبين له أن أملاك بدر الدين بيدرا قد اتسعت وأن ثروته قد زادت ، فأخذ الوزير يوغر قلب السلطان على بيدرا حتى تغير عليه واستعاد بعض الأراضى التى كان قد استولى عليها وضمها إلى أملاكه [١] .

وعلى الرغم من أن السلطان كان ينقم على بيدرا عبثه بأموال الدولة واستيلاء نوابه على متاجر الاسكندرية ووضع أيديهم على كثير من الجهات فإنه ما لبث أن خشى بأسه ، فحاول استرضاءه بألف دينار بعثها اليه ، لكن محاولته ذهبت أدراج الرياح [٢] واغتنم بيدرا فرصة ركوب السلطان للصيد أثناء إقامته بتروجه [٣] ، وسار بصحبة حسام الدين لاجين المنصورى وشمس الدين قرا سنقر وسيف الدين بهادر المنصورى وغيرهم لينفذ المؤامرة التى دبرها للتخلص من الأشرف خليل ، وما لبث أن ضربه بالسيف وتبعه سائر الأمراء الذين أجهزوا عليه بسيوفهم ، وكان ذلك فى يوم الإثنين ، ١٢ محرم سنة ٦٩٣ هـ [٤] .

وقد ظل جثمان السلطان الملك الأشرف خليل ملقى فى المكان الذى قتل فيه يومين كاملين حتى حمله الأمير عز الدين أيدمر العجمى والى تروجه إلى بيت المال بدار الولاية ، ثم نقل الأمير سعد الدين كوجبا الناصرى تابوته إلى القاهرة ودفنه بمدرسته التى أنشأها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة [٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٨٢ — ٧٨٣

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٣ — ٤٠٤

(٣) موقع هذه القرية بحوض تروجة بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبى المطامير بمديرية البحيرة .

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حاشية رقم ٣ ص ٣٠ ج ٤) .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦

المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٠

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤ — ٢٥

٣ – اعتلاء الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر :

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك الأشرف خليل على الأمير بدر الدين بيدرا، ولقبوه بالملك الأوحد. ولم يكد الأمير زين الدين كتبغا يعلم بذلك حتى سار بمن معه من المماليك السلطانية [١]، فداهموا الجناة على حين غفلة بالطرانة [٢] وأحاطوا ببيدرا وقتلوه، وتتبعوا أثر الفارين من أتباعه.

ولما فرغ الأمير زين الدين كتبغا من قتل الأمير بيدرا وهزيمة أتباعه، عول على العودة إلى القاهرة، غير أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى – الذى كان السلطان الملك الأشرف خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل قبل رحيله إلى تروجة – حال بينه وبين العبور إلى المدينة، وما زالت الرسل تتردد بينهما حتى وقع الاتفاق على مبايعة الملك الناصر محمد بن قلاوون بالسلطنة – وكان إذ ذاك فى التاسعة من عمره –، ومن ثم سمح للأمير زين الدين كتبغا ومن معه من المماليك بدخول القاهرة.

ولما جلس الملك الناصر محمد بن قلاوون على عرش السلطنة فى المحرم من سنة ٦٩٣ هـ، استقر الرأى على تعيين الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً، والأمير حسام الدين لاجين الرومى أستاذ الدار أتابكا للعساكر، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستادارا، والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار دواداراً ومنحه السلطان إمرة مائة فارس وتقدمة ألف، كما عهد اليه بالإشراف على ديوان الإنشاء [٣].

---

(١) يقول القلقشندى، صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ — ١٦، عن المماليك السلطانية « وهم أعظم الأجناد شأنا، وأرفعهم قدرا، وأشدهم إلى السلطان قربا، وأوفرهم اقطاعا؛ ومنهم تؤمر الأمراء رتبه بعد رتبة ... وقد كان لهم فى زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم فى أيام السلطان الملك الظاهر برقوق العدد الجم والمدد الوافر لطول مدة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها ».

(٢) الطرانة : قرية صغيرة، تقع على الشاطىء الغربى لفرع رشيد بمركز كوم حمادة (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . هامش ١ ص ١٦ ج ٨)

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٣ — ٧٩٤
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٩ — ٢٠

وعلى أثر تولية الملك الناصر محمد بن قلاوون رأى الأمير زين الدين كتبغا أن يحتاط لما عساه أن يحدث من القلاقل فى بلاد الشام، فأرسل إلى عامل دمشق على لسان الأشرف خليل — قبل أن يبلغه خبر قتله — كتاباً جاء فيه: «إنا قد استنبنا أخانا الملك الناصر محمداً وجعلناه ولى عهدنا حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا.» كما طلب منه أن يأخذ البيعة للملك الناصر، وأن يذكر اسمه مع اسم السلطان الملك الأشرف خليل فى الخطبة. ولم يمض على وصول هذا الكتاب غير يوم واحد حتى وصلت إلى نائب دمشق الأوامر بمصادرة أموال كل من بيدرا ولاجين وقراسنقر وغيرهم من الأمراء الذين اشتركوا فى قتل الأشرف خليل، مما جعل أهل دمشق يعرفون حقيقة الحال فى مصر [1].

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن إقامة الملك الناصر محمد فى السلطنة بعد قتل أخيه الأشرف خليل، لم تلق معارضة من أهالى الشام، بل إنهم على العكس قد رحبوا بتوليته كما لم يعترضوا على ذكر اسمه فى الخطبة وحده بعد أن ظلت تقام له ولأخيه الأشرف خليل مدة ثلاثة أشهر.

ولما تم الامر للملك الناصر محمد بن قلاوون، استقر الرأى على البحث عن قتلة الملك الاشرف خليل، وسرعان ماعثروا على بعضهم على حين ولى الادبار البعض الآخر، نخص بالذكر منهم حسام الدين لاجين وقراسنقر اللذان ظلا مختفين حتى هدأت الاحوال، فاتصلا بكتبغا وحصلا على أمان من الملك الناصر [2].

كذلك لم ينج شمس الدين بن السلعوس وزير الاشرف خليل من الاضطهادات التى لحقت بغيره من الأمراء، فقد رأى علم الدين سنجر الشجاعى أن الفرصة قد حانت للتخلص منه، وأخذ يغض من شأنه عند

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٤ — ٧٩٥

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٢

نائب السلطنة مما حمله على القبض عليه ومصادرة أمواله وإنزال أشد العقوبات به حتى توفى سنة ٦٩٣ هـ (١) .

وإذا ما تتبعنا معظم حوادث الإضطهاد والقتل التى توالت قبل ولاية الملك الناصر وبعدها نرى أن أسبابها ترجع فى الأغلب إلى رغبة الأمراء فى الإستئثار بالسلطة والنفوذ ، ومن ذلك يتضح لنا أن الحالة فى مصر لم تكن مستقرة ، فكثيراً ما كان الأمراء يتنافسون على السلطة حتى إن بعضهم كان يعمل على إقصاء البعض الآخر عن مناصب الدولة .

وقد أصبح الشجاعى بعد قتل ابن السلعوس صاحب الكلمة فى الدولة ، فهيأ لنفسه وسائل الاستبداد بالأمور رغبة فى اعتلاء عرش مصر ، وألقى بذور الفتنة بين رجال الدولة وبين كتبغا نائب السلطنة مما أدى إلى انقسام الجند فريقين : أحدهما مع الشجاعى والآخر مع كتبغا ، ثم لم يلبث أن عمل على التخلص من كتبغا ، غير أن عمله هذا لم يصادف شيئا من النجاح .

ولما رأى كتبغا أن الشجاعى تمادى فى طغيانه ، دعا أتباعه من أجناد الحلقة (٢) والتتار والأكراد ونزلوا بظاهر الباب المحروق ، فاضطر الشجاعى إلى الخروج لملاقاتهم وأخذ يؤلف بين قلوب الأمراء والجند بما أدره عليهم من الأموال ، غير أنه لم يجتذب منهم إلا جماعة يسيرة .

ولما أعد كتبغا العدة لملاقاة عدوه ، أنفذ إلى الناصر محمد كتابا ، جاء فيه: « إن الشجاعى قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء ولابد من حضوره ، فانه بلغنا عنه ما أنكرناه » ، فأرسل الناصر محمد بذلك إلى الشجاعى الذى امتنع عن الحضور ، ومن ثم شرع كتبغا فى الزحف على القلعة وأخذ فى محاصرتها

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٧

(٢) عرفوا بذلك لأنهم كانوا دائما يحيطون بالسلطان فى غدوانه وروحانه « وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين بوساطة النزول عن الاقطاعات » القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦

وقطع عنها الماء يوما كاملا ، وفى اليوم التالى نزلت البرجية (١) من القلعة وأوقعت الهزيمة بكتبغا وجنده . ولما علم بذلك أتباعه من الأمراء سارعوا إلى نجدته وردوا البرجية على أعقابهم إلى داخل قلعة الجبل وحاصروها ولحق بهم كتبغا وشدد الحصار عليها سبعة أيام وتسلل منها أكثر جيش الشجاعى وانضموا اليه .

ولما اشتدت وطأة الحصار على الشجاعى ، خرجت أم السلطان الناصر محمد إلى كتبغا وأتباعه وسألتهم عن السبب الذى حدا بهم إلى محاصرة القلعة فقالوا : « مالنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخماد الفتنة ولو بقى فى بيت أستاذنا بنت عمياء كنا مماليكها لاسيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه كفاية ، وسرعان ما قبضوا عليه وقتلوه (٢) . ومن ذلك نرى أن هذه الحركة التى قام بها كتبغا وأعوانه لم تكن ترمى فى حقيقة الأمر إلا إلى التخلص من الشجاعى وأنهم لم يضمروا شراً أو أذى للناصر محمد .

ولما فرغ كتبغا من القضاء على الشجاعى ، أفرج عن الأمراء المعتقلين ورد إليهم إقطاعاتهم ، كما أنزل من كان مقيما بالأبراج والطباق بقلعة الجبل من المماليك السلطانية الذين اتهموا باثارة هذه الفتنة وأسكن طائفة منهم بمناظر الكبش (٣) . وأنزل طائفة ثانية بدار الوزارة ، وطائفة أخرى بمناظر الميدان الصالحى بأرض اللوق (٤) . ويرجع السبب الذى حدا بكتبغا إلى اتباع هذه

(١) كان الملك المنصور قلاوون قد استجلب كثيرا من المماليك وأفرد لهم فى القلعة أبراجا ، فسموا لذلك البرجية . المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٤

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٩٨ — ٨٠١
ابن أبى الفضل : النهج السديد ج ٢ ص ٤١٨ — ٤١٩

(٣) كانت هذه المناظر تقع على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى وتشرف على البركة التى تعرف ببركة قارون . وقد أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حول سنة ٦٤٠ هـ . ولا تزال تلك المنطقة تعرف إلى اليوم بقلعة الكبش . المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٣٣

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٠٢ . وقد ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ١١٧) أن اللوق كانت تطلق فى عهده على الجهة التى تعرف اليوم بباب اللوق .

السياسة إلى رغبته فى إضعاف شوكة هؤلاء المماليك حتى لا يقوموا فى وجهه إذا ما استقل بالسلطة فى مصر .

وكان من أثر تأمين كتبغا لكل من الأميرين حسام الدين لاجين ، وقراسنقر اللذين اشتركا فى قتل الملك الأشرف خليل أن قام المماليك الأشرفية بثورة فى مصر ، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم وهجموا على القلعة ؛ فردتهم حامية كتبغا على أعقابهم وبددت شملهم[١] .

وقد اتخذ كتبغا من الفتنة التى أثارتها المماليك الأشرفية وسيلة تذرع بها لخلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما أن الأمير حسام الدين لاجين ظل يغريه ويحرضه على عزل هذا السلطان لما كان يخشاه من تآمر الأشرفية على قتله أخذا بثأر الملك الأشرف خليل ، ولاعتقاده أن الملك الناصر إذا ما بلغ سن الرشد سوف يعمل على التخلص منه ، كذلك أخذ لاجين يحسن للأمير كتبغا السلطنة ويخوفه من عاقبة عدم الإقدام على خلع الملك الناصر بقوله « متى كبر الملك الناصر لا يبقيك البتة ولا يبقى أحدا ممن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف ، وأن هؤلاء الأشرفية ما دام الملك الناصر محمد فى الملك شوكتهم قائمة ، والمصلحة خلعه وسلطنتك . » ، وكان لهذا الحديث أثره فى نفس كتبغا الذى دعا الخليفة والقضاة والأمراء وتحدث معهم فى عدم أهلية الملك الناصر محمد للسلطنة لصغر سنه ، كما قال لهم « إن الأمور لا بد لها من رجل كامل تخافه الجند والرعية وتقف عند أوامره ونواهيه . » فاستقر رأيهم على خلع الملك الناصر محمد وإقامة كتبغا مكانه[٢] .

٤ — إزدياد سلطة الأمراء

لما استقر زين الدين كتبغا بعرش مصر ، أسكن الناصر مع أمه فى بعض قاعات القلعة وحجب عنه الناس بعد أن لبث فى السلطنة سنة إلا ثلاثة أيام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ — ٤٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٩

ثم استوزر الصاحب فخر الدين الخليلي ، وولى حسام الدين لاجين نيابة السلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، ومن ثم صار كتبغا يقرب إليه الأمراء وينعم عليهم بالإقطاعات حتى قويت شوكته وعظمت منزلته عند جميع الناس ، غير أن البلاد قد أصيبت على أثر ولايته بالقحط والوباء[١] .

ومما أساء إلى كتبغا ترحيبه ببني جنسه من المغول العويراتية[٢] الذين ولوا وجوههم شطر البلاد المصرية على أثر اعتناق غازان محمود ايلخان المغول فى فارس الاسلام وانتصاره على بيدو . ويرجع السبب فى هجرة هذه الطائفة إلى خوف زعيمهم طرغاى من إقدام غازان محمود على الأخذ بالثأر منه لمناصرته بيدو على عمه جيخاتو[٣] .

ولما وصل أكابر العويراتية[٤] إلى القاهرة خرج الأمراء على رأس الجند للقائهم ، ورحب بهم كتبغا ومنحهم الاقطاعات وأجرى عليهم الأرزاق ، وأنزلهم بالحسينية[٥] .

وقد أثار ترحيب كتبغا بالعويراتية حقد أمراء الدولة عليه وخاصة حين رأوا أن كثيرا منهم احتفظ بدينه الوثني وأن السلطان قد منحهم الحرية التامة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٠٧ — ٨٠٨ ،
ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٢١ — ٤٢٤

(٢) يقال لهم أيضا الأويراتية ؛ وكانوا يسكنون الجزء الأعلى من نهر ينسى Yenessi بأواسط آسيا ثم خضعوا لسيادة جنكزخان
Howorth, History of the Mongols, Vol I, pp 681 et Seq.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٣ ،
تاريخ سلاطين المماليك : ص ٣٨ — ٣٩

(٤) كان أبناء طائفة العويراتية يمتازون بجمالهم مما كان سببا فى تنافس أمراء الدولة على التزوج من بناتهم ؛ فتكاثر نسلهم فى القاهرة ؛ وصار أهل الحسينية يمتازون بجمال خلقتهم وقد ظل أفراد هذه الطائفة يتمتعون بكثير من النفوذ فى عهد الملك العادل كتبغا إلى أن عزل فى سنة ٦٩٦ هـ وخلفه الملك المنصور لاجين ، فقبض على جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الاسكندرية حيث سجنوا بها ، وفرق من بقى منهم فى القاهرة على الأمراء ، فاتخذوهم جندا لهم . [المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢ — ٢٣]

(٥) ينسب هذا الحى إلى طائفة من العبيد يقال لهم الحسينية ، كانوا يقيمون فى الجهة الواقعة خارج باب الفتوح ، فى عهد الفاطميين . (المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١ — ٢٢)

فى إقامة طقوسهم الدينية ولم يعترض على عدم صيامهم شهر رمضان، كما أبى أن يكرههم على الدخول فى الاسلام ونهى الناس عن التعرض لهم . وكان يرمى من وراء تودده إليهم أن يجعلهم عونا له ضد منافسيه من أمراء المماليك(١) .

وقد رأى السلطان كتبغا أن يسير إلى بلاد الشام لإقرار الأمن فيها وتنظيم شئون طائفة التتار العويراتية فرحل إليها بصحبة نائب السلطنة الأمير حسام الدين لاجين . ولما وصل إلى دمشق سارع إلى لقائه النواب والأمراء وقدموا إليه الهدايا . ولم يمض على إقامته بها غير قليل حتى عزل نائبها الأمير عز الدين أيبك الحموى وعين بدله الأمير سيف الدين أغزلو العادلى ، ثم عاد إلى مصر(٢) .

على أن قلوب الأمراء قد تغيرت على كتبغا لإحلاله مماليكه محلهم فى مناصب الدولة واتهامه بعضهم بمكاتبة التتار ، فاتفقوا مع حسام الدين لاجين على التخلص منه . ولما علم بذلك كتبغا هرب إلى دمشق ، وأتيحت الفرصة للأمير حسام الدين لاجين لاعتلاء عرش السلطنة فاستولى على خزائن السلطان وضم إلى جانبه العساكر التى كانت فى ركابه(٣) ، ثم قابله الأمراء وشرطوا عليه أن يكون معهم كأحدهم وأن لا يستقل برأى دونهم ولا يطلق العنان لمماليكه ، فرد عليهم لاجين : « أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم ولست موليا عليكم من مماليكى أحدا ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل وأنتم خوشداشيتى ومحل إخوتى . » وأقسم لاجين لهم ألا يستبد برأيه فى أمر من الأمور ، بل يستشيرهم فى مهام الدولة ، كما تعهد بألا يقدم مماليكه وخاصة منكوتمر على واحد منهم ؛ فحلف له الأمراء على

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨١٦ — ٨١٧

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨١٩ — ٨٢٢
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٣ — ٦٤

السمع والطاعة ، ثم تلقب بالملك المنصور وركب بشعار السلطنة يريد مصر ؛ وخطب له بغزة والقدس وصفد والكرك ونابلس . ولما نزل بظاهر بلبيس خرج إلى لقائه أمراء مصر وحلفوا له يمين الطاعة والولاء ، ثم واصل السلطان لاجين السير واجتاز موكبه القاهرة من باب النصر إلى باب زويلة حتى دخل القلعة(١) .

ولما استقر الأمر للسلطان لاجين بمصر سنة ٦٩٦ هـ ، فوض نيابة السلطنة للأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، وولى الأمير سيف الدين قبجق نائبا بالشام ، كما أنفذ أحد الأمراء إلى دمشق بعد أن دعى له على منابرها ليحلف كتبغا يمين الطاعة على يد قاضى القضاة (٢) .

ولم يلبث السلطان لاجين أن نكث العهد ، فقبض على الأمير شمس الدين قراسنقر وعين مملوكه سيف الدين منكوتمر الحسامى نائبا للسلطنة رغم معارضة الأمراء فى تعيينه (٣) ؛ غير أن إسناد هذا المنصب إلى منكوتمر كان شراً مستطيراً ليس على الدولة فحسب ، بل على شخص لاجين أيضا ، إذ استبد بالسلطة وأضعف نفوذ الوزراء وأصدر أوامره بنقل مايتحصل من الأموال إلى داره بعد أن كانت تحفظ فى بيت المال (٤) .

كذلك رأى لاجين بعد أن استقر له الأمر فى مصر أن يتخذ الحيطة لما عساه أن يحدث إذا ما فكر بعض الأمراء فى عزله من السلطنة وإعادة الملك الناصر إلى العرش ، فاستدعى قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى وصى الملك الناصر محمد وقال له : « اعلم أن الملك الناصر ابن أستاذى وأنا والله فى السلطنة مقام النائب عنه ، ولو علمت أنه الآن يستقل بأعباء السلطنة

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٢٢ — ٨٢٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨٨

المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٣٩

(٤) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٤٦ — ٤٤٧

وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٨

ولا تنخرم هذه القاعدة ويضطرب الأمر (لأقته) وقت بين يديه . وقد خشيت عليه فى هذا الوقت وترجح عندى إرساله إلى قلعة الكرك ، فيكون بها إلى أن يشتد عضده ويكون من الله الخير ، ووالله ماأقصد بإرساله إليها إبعاده ولكن حفظه وأما السلطنة فهى له [1] ، ؛ ثم أمر لاجين بإعداد المعدات اللازمة لرحيل الناصر محمد إلى الكرك ، وما لبث هذا السلطان أن خرج اليها بصحبة بعض الأمراء [2] .

ولما رأى الأمير منكوتمر أن لاجين لم ينجب ولدا يخلفه فى سلطنة مصر عمل على إثارته ضد الأمير بدر الدين بيسرى ليحول بينه وبين الوصول إلى العرش بعد وفاته ، كما قصد بذلك حمل لاجين على البيعة له بالسلطنة بعده [3]

ولما اشتدت مناوأة أمراء مصر والشام لمنكوتمر بسبب تضيقه عليهم ، عمل على اقصائهم عن مناصب الدولة وإقامة غيرهم من مماليك السلطان لاجين وأوغر صدر السلطان على أمراء مصر حتى أمر بالقبض عليهم ، كما أنفذ رسولا إلى بلبان الطباخى نائب حلب يطلب منه القبض على بعض الأمراء ، لكنه أبى إجابة طلبه ، والتقى فى حمص ببعض الأمراء بقفجق — وكان قد فر من دمشق — وأشاروا عليه بالالتجاء إلى غازان محمود ، فأمهلهم حتى ورد عليه كتاب من أمراء مصر الموالين له ، ينبئونه فيه بالمؤامرة التى دبرت للتخلص من كل من منكوتمر والسلطان لاجين [4] .

ولما تبين للجند الذين انضموا إلى قفجق خروجه على السلطان وتأخيره فى صرف مستحقاتهم ، تسللوا عنه طائفة بعد طائفة وعادوا إلى دمشق [5] ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٥ ب

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٣٢ — ٨٣٣

(٣) ذكر النويرى (نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٩ ب) أن لاجين كان قد رغب فى الخلود إلى الهدوء والراحة ، وعول على تفويض أمر السلطنة للامير منكوتمر إذا تمكن من من القضاء على الأمراء المناوئين له .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٥٢ — ٨٥٤ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٥٥ .

عما حمله على السير بصحبة بعض الأمراء إلى بلاد التتار حيث رحب غازان محمود بقدومهم وأنعم على كل أمير منهم بعشرة آلاف دينار[١] .

وكان من أثر سياسة العنف التى اتبعها كل من السلطان لاجين ونائبه منكوتمر فى معاملة الأمراء ، أن عمل فريق منهم على التخلص منهما ، كما أن مماليك الأشرف خليل كانوا على استعداد للأخذ بثأر سيدهم ، وسرعان ما حانت لهم هذه الفرصة ، فاتفق الأمير كرجى مقدم البرجية مع بعض أتباعه على قتل كل من لاجين ومنكوتمر ، وما لبث أن تمكن هذا الأمير من تنفيذ مؤامرته ، ثم اتفق رأى الأمراء الذين كانوا بالقلعة على استدعاء الناصر محمد من الكرك وإعادته إلى السلطنة على أن يكون الأمير طغجى نائبا له وألا يبرم أمر من أمور الدولة إلا بموافقة الأمراء .

ولم يعمل كرجى على تنفيذ ما اتفق عليه الأمراء بصدد عودة الناصر محمد إلى العرش وقال لهم فى اجتماع ضم الأمير طغجى : « يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان لاجين وأخذت ثار استاذى ، والملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكن السلطان إلا هذا — وأشار لطغجى — وأنا أكون نائبه ومن خالف فدونه[٢] » .

على أن الاختلاف لم يلبث أن ظهر بين الأمراء ، فصار فريق منهم يميل إلى تنفيذ ما يشير به الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى الذى وصل إلى بلبيس بعد أن فرغ من محاربة أهل سيس ، وأجمع الفريق الآخر الذى يمثله المماليك الأشرفية على سلطنة طغجى على أن يكون كرجى نائبا له .

على أن أنصار طغجى لم يكن لديهم القوة الكافية فى الاحتفاظ بسلطته هذا إلى استياء الجند من اشتراكه فى قتل لاجين ، فعولوا على التخلص منه . ولما تم لهم ذلك اجتمع الأمراء بالقلعة واتفق رأيهم على إعادة السلطان الناصر محمد من الكرك[٣] .

---

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ٤٧ — ٤٩

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٦٥ — ٨٦٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٦٨ — ٨٦٩ .

ولما وصل الناصر محمد إلى مصر خرج الأمراء والعساكر للقائه وأقاموا له الزينات على طول الطريق حتى صعد القلعة ، ثم جددت له البيعة ، وبدأ أعماله بتقليد الحكام مناصبهم ، فعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا ، وأقر الوزير فخر الدين عمر بن الخليلي فى الوزارة ، كما فوض نيابة الشام إلى جمال الدين أقوش الأفرم الذى خلف الأمير قفجق المنصورى ، وخلع على أعيان الدولة ومنح مماليك أبيه العطايا والهبات [١] .

على أن عودة الملك الناصر إلى السلطنة لم يكن لها أثر فى إضعاف نفوذ الأمراء ، فقد اتخذ كل من سلار ، وبيبرس الجاشنكير من صغر سن السلطان ذريعة للاستئثار بالسلطة ، كما عملا على خفض المرتبات المخصصة له وأضحى الملك الناصر يشعر بكثير من الضيق فى الوقت الذى أصبح فيه الأمراء ينعمون بثروة كبيرة جمعوها من الضرائب ومن الأراضى الواسعة .

وكان من أثر السياسة التى سار عليها كل من بيبرس وسلار فى الاستئثار بالسلطة أن بدأت مظاهر الاختلاف تظهر بينهما ؛ فقد كان بيبرس يلى أمور المماليك البرجية الذين ازداد نفوذهم فى ذلك الوقت حتى صار الناس يترددون عليهم فى قضاء حاجياتهم . كما كان الأمير سلار يشرف على شئون المماليك الصالحية والمنصورية . وقد بلغ التنافس بين هاتين الطائفتين مبلغاً عظيما ، فكان البرجية أكثر عدداً من الصالحية والمنصورية ، وكل من الفريقين يطمع فى زيادة نصيبه من الإقطاعات ، وإذا ما رقى أحد البرجية إلى مرتبة الأمراء طالب أصحاب سلار أن يؤمر واحد منهم كذلك ، وهكذا الحال إذا أمر سلار بعض أتباعه وقف البرجية وطلبوا تأمير فريق منهم .

وكان من أثر الفتن التى أثارها المماليك وضعف سلطة الناصر محمد أن عاث العربان فى الوجه القبلى فسادا وأخذوا يقطعون الطرق على التجار ويفرضون

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٥٧
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١١٥ — ١١٦ .

عليهم ضرائب فادحة من المال والغلال . وقد بلغ من تفاقم خطرهم أن استخفوا بالولاة وامتنعوا عن أداء الخراج وتسموا بأسماء الأمراء فاختاروا من بينهم رجلين سموا أحدهما بيبرس ، والآخر سلار .

ولما اشتد خطر هؤلاء الأعراب ، استدعى الأمراء القضاة والفقهاء واستفتوهم فى قتالهم ، فأفتوا بجواز ذلك ، ومن ثم اتفق الأمراء على الخروج لقتالهم ، وسدوا فى وجوههم كل سبيل حتى لا يلجأوا إلى المغاور والجبال وسار كل من سلار وبيبرس على رأس جيشه إلى شرق النيل وغربيه ، وسار الأمير بكتاش بمن معه من الجند إلى الفيوم وخرج بيبرس الدوادار مع بعض الأمراء إلى السويس والطور ، كما قطع حاكم قوص بمساعدة بعض الأعراب الموالين طرق الصحراء ؛ وبذلك نجح الأمراء فى محاصرة العربان المتمردين بالوجه القبلى على حين غفلة منهم ، ثم انقضوا عليهم فى مخابئهم وتعقبوهم بسيوفهم حتى أبادوا كثيرين منهم ، وجافت الأرض بقتلاهم ، وأسر منهم نحو ألف وستمائة(١) .

ولم تكد تهدأ هذه الفتن حتى ظهر استبداد الأميرين سلار وبيبرس ظهورا واضحا ، وغلا كل منهما فى التضييق على الناصر محمد الذى عيل صبره وبث شكواه لبعض خاصته ، وأرسل فى طلب الأمير بكتمر الجوكندار وعبر له عن رغبته فى التخلص منهما ؛ غير أن أخبار هذه المؤامرة سرعان ما اتصلت بمسامع بيبرس وسلار ، فاتخذا الحيطة وعولا على درء ماعسى أن يحل بهما ، وذاعت الاشاعات فى القاهرة أن بعض الأمراء دبروا مؤامرة للقضاء على الناصر محمد ، وما كاد يذاع هذا النبأ حتى تظاهر الأهلون لنصرته وسار الجند والعامة إلى القلعة ، وظل الأمراء يترقبون نزول السلطان منها حتى أرسل إليهم كتابا جاء فيه : « ما سبب هذا الركوب على باب اسطبلى ؟ إن

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٢٠ — ٩٢٢
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ — ١٥٣

كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع إليه فخذوه وأبعثونى أى موضع أردتم[١]

على أن الأمر الذى يسترعى النظر أن العامة حين علموا بحصار سلار وبيبرس للقلعة ، ثارت ثائرتهم ، وأعلنوا محبتهم وتقديرهم للسلطان الناصر محمد وما ذلك إلا لحرصهم على بقاء الملك فى بيت قلاوون .

وكان من أثر هذه الحركة التى قام بها العامة أن استاء منهم الأمراء وعمل كل من بيبرس وسلار على تفريقهم ، وقام القتال بينهم وبين المماليك ، ومع ذلك كله فلم تهدأ ثائرة العامة فقد اشتد صياحهم وأخذوا ينادون : يا ناصر يا منصور ، كما تكاثر جمعهم وصاروا يدعون للسلطان الملك الناصر ويقولون « الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » ، وما زالوا على هذه الحال حتى أيقنوا أن السلطان رضى عن أمرائه ، فتفرقوا وكفى الله المؤمنين القتال ، وأنفذ الأمراء إلى السلطان كتابا يعلنون فيه طاعتهم وولاءهم له ويطلبون منه اقصاء الشبان الذين عملوا على اشعال نار الفتنة بينه وبين الأمراء على أن السلطان امتنع عن إجابة طلبهم أول الأمر ، ثم لم يلبث أن عدل عن رأيه وأقصى جماعة منهم إلى بيت المقدس مما كان له أحسن الأثر فى نفوس الأمراء[٢] .

على أن الحالة وإن كانت قد هدأت ، فان عوامل الفتنة لم يقض عليها : فقد ظل الأمراء مستائين من تعصب العامة للسلطان ، كما حرص كل من سلار وبيبرس على الاستئثار بالنفوذ وأمعنا فى الحجر على السلطان والتخفيض من نفقاته .

ولما عيل صبر الناصر محمد رأى أن ينزل عن العرش ، فأظهر رغبته فى أداء فريضة الحج حتى لا يحال بينه وبين الخروج من مصر ، ثم ركب من القلعة بصحبة أمرائه متظاهراً بالسفر إلى الحجاز ، وسارت العامة من حوله وهم يبكون على فراقه .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ — ١٧٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢ — ١٧٤

ولما استقر الناصر محمد بقلعة الكرك ، أخبر الأمراء الذين قدموا معه بأنه عدل عن أداء فريضة الحج ، وصمم على اعتزال الحكم واتخاذ الكرك محلا لإقامته ، وكتب بذلك لكل من بيبرس وسلار (١) .

ولما رأى الأمراء أن الناصر محمد اعتزل الحكم وعول على عدم مغادرة الكرك ، أجمعوا على تولية الأمير سلار عرش السلطنة ، غير أنه اعتذر عن قبوله خشية خروج بعض المماليك عليه ؛ فوقع اختيارهم على ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٢) ، وبايعوه بالسلطنة فى سنة ٨٠٧ هـ بعد أن أثبت لقضاة مصر أن السلطان الملك الناصر محمد خلع نفسه .

وقد أرسل بيبرس عقب اعتلائه العرش إلى نائب الشام جمال الدين أقوش الأفرم يطلب منه القيام بأخذ البيعة له من الأمراء ، وأن يطلب إليهم أن يقسموا يمين الطاعة والولاء له ؛ فأقسم أمراء دمشق يمين الطاعة لبيبرس على حين أرسل غيرهم من أمراء الشام إلى الناصر محمد بأنهم سيظلون على ولائهم له .

وقد رأى الملك المظفر بيبرس الجاشنكير من حسن السياسة ألا يشتد فى معاملة أمراء الشام ، فأنفذ رسولين من قبله يحملان الخلع إليهم ؛ غير أن الأفرم نائب دمشق أخبرهما بخروج قفجق وقراسنقر وآسندمر على طاعة بيبرس ، وأشار عليهما بعدم الذهاب إليهم ، غير أنهما صمما على مقابلتهم ، فلم يجدا منهم أذنا مصغية وعادا إلى مصر . ولما علم الملك المظفر بيبرس بحقيقة الحال فى بلاد الشام ثارت ثائرته واستشار نائبه سلار فى الأمر ، فأشار عليه بتقليد هؤلاء الأمراء أمر بلادهم وألا يأخذ من أى واحد منهم دينارا ولا درهما ، فقال له بيبرس : إذا فرقت البلاد عليهم تشتت ملكى ولم يبق لى إلا اليسير ، فأجابه سلار بقوله : « وكم من يد تقبل عن ضرورة وهى تستحق القطع ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨١

فاسمع منى وأرضهم فى هذا الوقت ، فإذا قدرت عليهم بعد ذلك فافعل بهم ما شئت . » ونصحه بأن يكاتب كلا منهم على إنفراد ، فعمل بيبرس بهذا الرأى ، وأرسل لكل منهم تقليدا وخلعة ، وكان لهذه السياسة أجمل الأثر فى نفوس هؤلاء الأمراء فأقسم كل منهم يمين الطاعة له وبعثوا إليه بنسخة اليمين (١) .

ولم يزل بيبرس يضيق على الناصر محمد ويعمل على إضعاف شوكته بعد اتخاذه الكرك محلا لإقامته حتى كتب اليه رسالة يطلب فيها أن يبادر إلى إرسال ما عنده من الخيل والمماليك ، وما جمعه من أموال الكرك ، كما هدده فى هذا الكتاب بالنفى إلى القسطنطينية إن لم يلب طلبه ؛ على أن الناصر محمد استاء من هذا الكتاب وكتب إلى نواب الشام يذكرهم بأنهم من مماليك أبيه وأنه طالما أحسن اليهم وأجزل لهم العطايا والهبات ، وطلب اليهم أن يساعدونه على استعادة ملكه وإلا اضطر للاستعانة بالتتار والالتجاء اليهم ؛ فلم يجدوا بدأ من الإذعان .

ومما ساعد الناصر على تحقيق أغراضه انصراف كثير من المماليك عن بيبرس وقدومهم اليه والتفافهم حوله . وكان نوغاى أشد الأمراء الذين وقفوا فى وجه بيبرس ؛ فقد خرج إلى الناصر محمد على رأس كثير من المماليك . وحاول بيبرس عبثا منعه من مغادرة مصر فلم يفلح ، كما عهد إلى فريق من جيشه بحراسة طريق السويس ومنع من تحدثه نفسه بالخروج إليه .

وقد ازداد نفوذ الملك الناصر أثناء إقامته بالكرك وقوى شأنه بدخول نواب الشام فى طاعته وانضمام كثير من المماليك والأمراء اليه ، كما كان لقدوم الأمير نوغاى إلى الكرك أثر يذكر فى استعادة ملكه ، إذ أنه لم يكد يطلعه على حقيقة الحال فى مصر حتى سارع إلى إعلان الخطبة باسمه على منابر الكرك .

وعلى الرغم من أن الملك الناصر قد استعاد نفوذه فى الكرك ، فإنه رأى أن يخادع بيبرس حتى تتاح له الفرصة للعودة إلى مصر ؛ فأرسل اليه كتابا

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ — ٢٤٠ و ٢٤٢

أعلى فيه من شأنه ، وأظهر فيه نفسه بمظهر الضعيف . ومما جاء فى هذا الكتاب : « المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية أسبغ الله ظلها ، ورفع قدرها ومحلها ، وينهى بعد رفع دعائه ، وخالص عبوديته وولائه أنه وصل إلى المملوك نوغيه ومغلطاى وجماعة من المماليك ، فلما علم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة ولم يمكن أحداً منهم يعبر اليه ، وسيرت إليهم ألومهم على ما فعلوه وقد دخلوا على المملوك بأن يبعث ويشفع فيهم ، فأخذ المملوك فى تجهيز تقدمة لمولانا السلطان ويشفع فيهم ، والذى يحيط به علم مولانا السلطان أن هؤلاء من مماليك السلطان — خلد الله ملكه — وأن الذى قيل فيهم غير صحيح ، وإنما هربوا خوفا على أنفسهم ، وقد استجاروا بالمملوك ، والمملوك يستجير بظل الدولة المظفرية والمأمول ألا يخيب سؤاله ولا يكسر قلبه ولا يرده فيما قصده . وفى هذه الأيام يجهز المملوك تقدمة مع المماليك الذين طلبهم مولانا السلطان ، وأنا مالى حاجة بالمماليك فى هذا المكان ، وإن رسم مولانا مالك الرق أن يسير نائبا له ينزل المملوك بمصر ويلتجىء بالدولة المظفرية ويحلق رأسه ويقعد فى تربة الملك المنصور ، والمملوك قد وطن نفسه على مثل هذا . . . والله تعالى قال فى كتابه الكريم وهو أصدق القائلين : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) والمملوك ينتظر الأمان والجواب »[1] .

ولما رأى بيبرس انصراف الأمراء والمماليك عنه ، طلب من الخليفة المستكفى بالله أن يجدد له عهد البيعة ليوطد بذلك دعائم ملكه ؛ ولكن هذا العمل لم يكن له أثر فى نفوس أهل مصر لكراهيتهم لحكمه وتعلقهم بالناصر محمد ، هذا إلى استياء الأمير سلار نائب السلطنة من موقف بيبرس نحوه .

بيد أنه وإن كانت الأمور قد استقرت وتمهدت السبيل لعودة الملك الناصر محمد إلى عرشه ، فإنه ظل ببلاد الشام فترة قصيرة نظم فيها صفوف

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٥٦ — ٢٥٧

أتباعه ، وسار إلى دمشق مع خاصته ، حيث استقبله أهلها استقبالا حافلا حتى إن الناس كانوا يدفعون مبالغ كبيرة ليحصلوا على مقاعد فوق سقف المنازل ليشاهدوا منها ذلك الموكب الفخم ، كما فرشت الطريق التى سار فيها بشقاق الحرير الملونة ، وسار الأمراء والعساكر بين يديه حتى نزل بالقصر الأبلق [1] .

وقد رأى الناصر محمد على أثر استقرار الأمور له بدمشق أن يعفو عن الأفرم رغم مناصبته العداء أثناء إقامته بالكرك كما خلع عليه وأقره على نيابة حلب .

وفى يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٧٠٩ هـ ، أقيمت الخطبة للملك الناصر محمد بدمشق وحذف منها اسم بيبرس الجاشنكير ، كما قدم اليه أمراء الشام فروض الولاء فاستقبلهم استقبالا حافلا وخلع عليهم الخلع ، وأدر الأموال على من كان معهم من الجند .

ولما وصل إلى بيبرس نبأ دخول الناصر محمد دمشق من غير قتال عظم ذلك عليه ، كما ساءه انصراف الجنود المصرية عنه حتى لم يبق معه بمصر إلا خواصه من الأمراء والأجناد والمماليك البرجية الذين نسبوا فساد أحوال البلاد إلى الأمير سلار وأخذوا يحرضون بيبرس على التخلص منه ، لكنه لم يلتفت اليهم وقال لهم : « إن كان فى خاطركم شىء فدونكم وإياه ، وأما أنا فلا أتعرض له بسوء قط » .

ولما رأى بيبرس ما حل بالبلاد من الاضطراب وانصراف كثير من الجند عنه وانضمامهم إلى الناصر محمد ببلاد الشام ، استدعى أمراء القاهرة وشاورهم فى الأمر ، فأشار عليه بيبرس الدوادار وبهادر بالنزول عن العرش وطلب الأمان من الناصر محمد حقنا لدمه ودماء المسلمين ، وأن يقيم فى إطفيح مع من يثق به من خواصه إلى أن يرد جواب السلطان من دمشق ؛ فلم يجد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥

بيبرس بدا من الأخذ بهذا الرأى وكتب إليه يقول : « والذى أعرفك به أنى قد رجعت أقلدك بغيك ، فإن حبستنى عددت ذلك خلوة ، وإن نفيتنى عددت ذلك سياحة وإن قتلتنى كان ذلك لى شهادة »(١)

وقد رأى بيبرس قبل رحيله إلى إطفيح أن يحتاط لنفسه فأخذ ما يكفيه من المال ، كما صحب معه نحو سبعمائة من المماليك ثم خرج من القلعة فى جنح الليل مع خاصته من الأمراء والمماليك البرجية . ولم يكد يصل نبأ خروجه إلى العامة حتى تجمعوا ورموه بكثير من السباب ، ولولا أنه شغلهم بما نثره عليهم من الذهب والفضة لتمكنوا من الظفر به وقتله جزاء ظلمه لهم واضطهاده إياهم(٢) .

ولما رحل بيبرس الجاشنكير إلى إطفيح قبض الأمير سلار على زمام الأمور فى مصر وعمل على إعادة الأمن إلى نصابه ، فأطلق سراح أتباع الناصر محمد ، ثم لم يلبث أن كتب إلى هذا السلطان يخبره بنزول بيبرس عن العرش كما أمر بإقامة الخطبة له على المنابر وكان ذلك إيذانا بزوال ملك بيبرس وعودة الناصر محمد إلى عرشه .

غير أن بيبرس سرعان ما استقر رأيه على الالتجاء إلى مكان آخر غير إطفيح يكون فيه بمأمن عن غدر أعدائه . ولما وقف مماليكه على هذه الرغبة عولوا على الانصراف عنه وأخذوا فى العودة تباعا إلى القاهرة ثم وصل إلى بيبرس رسالة من الناصر يأمره فيها بالتوجه إلى صهيون بعد أن يرد الأموال التى أخذها فسلم ما لديه من الأموال وعاد إلى القاهرة حيث طلب أمانا من الناصر ؛ وعلى الرغم من أنه أجيب إلى طلبه ، فقد ظل يخشى غدر الناصر به واعتزم التوجه إلى ولايته الجديدة ، لكن الناصر محمد ما لبث أن حال بينه وبين تحقيق رغبته (٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٠ — ٢٧١

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ١٥٣

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧١ — ٢٧٣

٥ – استبداد الناصر محمد بالسلطة :

لما رأى الناصر محمد أن الأمور أصبحت ممهدة له فى مصر عوّل على الرحيل إليها ، فخرج من دمشق فى ٢٦ رمضان سنة ٧٠٩هـ مع بعض أتباعه ، وتجمعت لديه الجيوش المصرية والشامية عند وصوله غزة ، ثم سار آمنا على نفسه حتى دخل مصر ،فاستقبله الأمير سلار وبعض الأمراء وقدموا له فروض الطاعة والولاء .

وقد استبشر الناس بقدوم الناصر محمد وأنشد الشعراء مدائحهم بعودته ، من ذلك ما قاله الشيخ شمس الدين محمد بن على الداعى[1] .

الملك عاد إلى حماه كما بدا   ومحمد بالنصر سر محمدا
وأيامه كالسيف عاد لغمده   وبُعاده كالورد عاوده الندى
الحق مرتجع إلى أربابه   من كف غاصبه وإن طال المدى

ولما استقرت الأمور للناصر محمد ، طلب منه الأمير سلار أن يعفيه من نيابة السلطنة ويوليه الشوبك ، فأجابه إلى طلبه بعد أن تعهد بطاعته .

على أن الأمر الذى يسترعى النظر أن الناصر محمد على أثر عودته إلى العرش ، عمل على الانتقام من الأمراء الذين سلبوه كل سلطته ، كما عوّل على التخلص منهم حتى يخلو له الجو من ناحية مناوئيه ويستطيع بذلك أن يدبر شئون دولته دون أن يتدخل فى أمورها أحد ، ولكى يكفل لنفسه النجاح فى سياسته ، أسند إلى خواصه الذين آزروه وناصروه مناصب الدولة الهامة ، ففوض نيابة السلطنة بمصر إلى الأمير سيف الدين بكتمر ، وقلد الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نيابة السلطنة بالشام ، كما ولى جمال الدين

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الاول ص ٧٣ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ القسم الاول ص ٢٤ .

أقوش الأفرم ولاية صرخد ، وولى الأمير سيف الدين قفجق نيابة حلب ، وأسند ولاية طرابلس والبلاد الساحلية إلى سيف الدين بهادر الحاج .

على أن السياسة التى اتبعها الناصر محمد فى تعيين ولاته والقضاء على الأمراء الذين كانوا يفسدون عليه أمور دولته لم ترض مماليك الأشرف خليل ، بل أثارت حقدهم عليه كما يتبين ذلك من هذه العبارة التى قالها بعضهم : « أى ذنب لهؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم وهو (أى قراسنقر) الذى قتل الأشرف خليل ودمه الآن على سيفه ما ذهب أثره قد صار اليوم حاكم المملكة . »

على أن قراسنقر ما لبث أن خشى على نفسه من المماليك الأشرفية ، وطلب من الناصر أن يأذن له بالذهاب إلى بلاد الشام لالقاء القبض على بيبرس الجاشنكير ، فلقيت هذه الرغبة قبولا من نفس الناصر ، وسمح له بمغادرة مصر ، ولم يمض غير قليل من الزمن حتى سيق بيبرس إلى القاهرة حيث مثل بين يدى الناصر محمد الذى أخذ يعنفه ويوجه إليه كل صنوف اللوم والعتاب ، وقال له : « أتذكر وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان ورددت شفاعتى فى حق فلان ، واستدعيت نفقة فى وقت كذا من الخزانة فمنعتها ، وطلبت فى وقت حلوى بلوز وسكر ، فمنعتنى ، ويلك . وزدت فى أمرى حتى منعتنى شهوة نفسى . . ، ثم قال : يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك ، وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به[1] ؟ » ، فسأله بيبرس العفو ، لكن الناصر محمد أبى وأمر بحبسه ، ثم قتله فى ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٩ هـ ودفن فى قبر أخفيت معالمه إلى أن شفع بعض الأمراء فى نقل جثته إلى الخانقاه التى أنشأها .

لم يبق أمام الناصر محمد بعد أن تخلص من بيبرس إلا القضاء على الأمير سلار ، وبرغم المساعدات التى قدمها إلى الناصر عند عودته إلى العرش ، لم يكن مصيره أحسن من مصير بيبرس[2] ، فقد ألقى القبض عليه وظل فى السجن

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٨٠ — ٨١

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.67.

حتى توفى[١] .

ولم يكد الناصر محمد يفرغ من القضاء على سلار حتى بلغه أن الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة دبر مؤامرة لخلعه وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح على بن قلاوون على العرش ، واستعان فى ذلك بالمماليك المظفرية — أنصار الملك المظفر بيبرس — ، لكن الناصر محمد عول على إحباط هذه المؤامرة فقبض على الأمير مظفر الدين موسى وزجه فى السجن ثم أخذ يتتبع المظفرية حتى ظفر بهم ، غير أنه ما لبث أن عفا عنهم[٢] .

ولم تهدأ ثائرة المماليك الأشرفية فى عهد الناصر محمد ، بل ظلوا يرددون اشتراك الأمير قراسنقر فى قتل أخيه الأشرف خليل ، مما أثار فى نفسه حب الانتقام منه ؛ غير أن قراسنقر فطن لما يراد به فأوقع الرعب فى قلوب نواب الشام من ناحية السلطان كما أخذ يؤلبهم عليه . ولما وجد أن حياته فى دمشق أصبحت معرضة للخطر طلب إلى الناصر محمد أن يوليه حلب ، فأجابه إلى ما طلب[٣] .

على أن قراسنقر ما لبث أن كشف عن حقيقة نواياه إزاء السلطان فخرج مع بعض الأمراء — ومن بينهم أقوش الأفرم نائب طرابلس — إلى بلاد التتار حيث رحب بهم أولجايتو خدابنده ايلخان المغول فى فارس[٤] .

ولما اتصل بالناصر محمد نبأ خروج قراسنقر عليه ، اتهم بعض الأمراء بمالأته ، وألقى القبض على نائب الشام وعلى بيبرس الدوادار نائب السلطنة بمصر لاتهامهما بالميل إليه ، وعين أرغون الدوادار نائبا بالديار المصرية ، كما قلد نيابة دمشق تنكز الحسامى الناصرى سنة ٧١٢ هـ ثم ولاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه فى مهام

---

(١) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ص ٢١٤ — ٢١٦

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٩٩ — ١٠٠

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ص ٢١٨ ، تاريخ سلاطين المماليك ص ١٥٧ .

أمورهم ، وزاد فى ألقابه : الزاهدى ، العابدى ، العالمى ، كافل الاسلام ، أتابك الجيوش[1] .

وكان الناصر محمد يستشير تنكز فى مهام الأمور ، كما ارتبط معه برباط المصاهرة ، فتزوج من ابنته وعقد على اثنتين من بناته لولدى تنكز سنة ٧٣٩ ﻫ على أن تلك الصداقة لم تلبث أن تحولت فى السنة التالية إلى حقد وبغضاء ، فقد أوجس الناصر محمد منه خيفة وعهد إلى بعض الأمراء بالقبض عليه وأقصاه عن مناصب الدولة التى كان يتقلدها ، ثم تخلص منه فى النهاية[2] . وهكذا كانت سياسة الناصر إزاء كبار رجال دولته ، يقربهم إليه أول الأمر ثم يعمد إلى القضاء عليهم إذا ما خشى منهم على سلطانه .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، القسم الثانى ص ٢٥٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الثانى ص ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١

الفصل الثانى

انحلال أسرة قلاوون وزوال دولتها

ظل ملك مصر فى بيت السلطان الناصر محمد بن قلاوون مدة أربعين سنة، توارث فى العشرين عاماً الأولى بعد وفاته ثمانية من أولاده على التعاقب، ثم انتقل الحكم إلى أحفاده فى العقدين التاليين.

وقد امتازت هذه الفترة بكثير من الأحداث الداخلية إذ تقلد حكم مصر سلاطين أطفال، كانوا يولون ويعزلون طبقاً لأهواء أمراء المماليك الذين ازداد نفوذهم فى ذلك العهد.

ولم يضع الناصر قبل وفاته نظاما لوراثة العرش يسير عليه أبناؤه من بعده مما أدى إلى تنازعهم على الملك، كما لم يبايع أكبر أولاده بالسلطنة، فلما توفى سنة ٧٤١ هـ خلفه ابنه أبو بكر الذى كان قد ولاه وعهده وتلقب بالملك المنصور سيف الدين وله من العمر إذ ذاك عشرون سنة [١].

ولم يكد السلطان أبو بكر يتقلد عرش مصر حتى ظهرت بوادر الخلاف بين الأمير قوصون أتابك العساكر والأمير طاجار الدوادار، وصار العسكر فرقتين: إحداهما مع قوصون، والأخرى مع طاجار. وقد استطاع هذا الأمير أن يوغر صدر السلطان أبى بكر على قوصون، فاتفق مع الخاصكية على التخلص منه، غير أن قوصون ما لبث أن خلعه من السلطنة وأرسله مع بعض إخوته إلى مدينة قوص، فحبسوا بها [٢].

أصبح قوصون بعد خلع الملك المنصور أبى بكر صاحب الكلمة النافذة فى الدولة، فولى كجك — أحد أولاد الناصر — سلطنة مصر — وله من

---

(١) ابن إياس: ج ١ ص ١٧٦. (٢) ابن إياس: ج ١ ص ١٧٧.

العمر ست سنوات — وأقر الحاكم بأمر الله الخليفة العباسى بالقاهرة بيعته بعد أن وافق على خلع أبى بكر لما أتاه فى حياته من الآثام[١].

ولما جمعت لقوصون نيابة السلطنة وأتابكية العساكر، تصرف فى أمور الدولة حسب أهوائه، فقبض على جماعة من الأمراء وأقصى بعضهم عن الوظائف، وولى أنصاره بدلا منهم، وصار السلطان ألعوبة فى يده.

وقد خرج على قوصون نواب طرابلس وحماه وصفد، واتفقوا على التخلص منه وتولية الأمير أحمد بن الناصر — وكان إذ ذاك فى الكرك — كما استاء أمراء مصر من استبداد قوصون بالسلطة دونهم وناصبه بعضهم العداء، فدعا الأمير أيدغمش العامة إلى نهب بيت قوصون، ونادى فى العسكر بأن كل شخص لا يملك فرسا يحضر إلى الاسطبل السلطانى ليأخذ منه فرسا له، فأطلق العامة يد النهب فى بيت قوصون. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن الجند صاروا كلما رأوا أحدا من مماليك قوصون أو من رجال حاشيته فى الطرقات قتلوه شر قتلة[٢]. ولما انفض أعوان قوصون من حوله وأصبح وحيدا، قبض عليه الأمير أيدغمش وبعث به إلى الاسكندرية حيث حبس بها[٣]، وتبع ذلك خلع كجك من السلطنة، وظل الأمراء ينتظرون قدوم الأمير أحمد من الكرك، فلما قدم وولى السلطنة عين الأمير طشتمر نائبا بالقاهرة، غير أنه مالبث أن ساورته الظنون والمخاوف من ناحيته لازدياد نفوذه فى البلاد، فحبسه.

ومع أن الناصر أحمد قد أصبح مطلق التصرف فى أمور البلاد، فإن حبه للكرك ظل مستوليا عليه، فترك آق سنقر نائبا عنه فى مصر وتوجه إلى الكرك مع اثنين من أتباعه.

ولما اضطربت الأمور فى مصر بسبب غياب السلطان عنها، كتب إليه

(١) Muir The mameluke Or Slave Dynasty of Egypt p. 87

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ١٧٨

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.88

الأمراء يرجونه العودة إلى مصر ، فكتب اليهم يقول : « إن الشتاء قد حل وإنى اخترت الإقامة بالكرك إلى أن يمضى الشتاء[١] » .

وكان للنزاع الذى قام بين أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الملك أثر كبير فى تقلص الحكم من أسرته . وقد تجلى ذلك النزاع بصورة واضحة فى عهد الناصر أحمد الذى اختار الإقامة بالكرك مما اضطر الأمراء إلى خلعه وتولية أخيه اسماعيل مكانه ولقبوه بالملك الصالح[٢] .

وقد أخذ السلطان الجديد يدبر أمور البلاد ويعمل على إصلاح ما فسد فيها ، لكن الحظ عاكسه ولم يتمتع بحكم هادىء ، وثار فى وجهه أخوه الملك الناصر أحمد الذى اعتصم بقلعة الكرك وقاوم جند أخيه السلطان الملك الصالح اسماعيل حتى نفد جميع ما كان معه من مال وقوت ، واضطر إلى ضرب ما بقى عنده من السروج المصنوعة من الذهب ، وخلط النحاس بالذهب حتى أصبح الدينار يساوى خمسة دراهم من الفضة وأنفق كل هذه الأموال على الجند الذين قاتلوا معه . ولما طال أمد القتال تفرقوا من حوله واضطر الناصر أحمد إلى طلب الأمان فقبض عليه جند المصريين وما لبث أن قتل سنة ٧٤٥ ﻫ وتوفى الصالح اسماعيل فى العام التالى وآلت السلطنة إلى أخيه الملك الكامل شعبان سنة ٧٤٦ ﻫ . وكان قد عهد إليه بالسلطنة من بعده[٣] .

ولم يكن ضعف السلاطين وتنافسهم على عرش مصر العاملين الوحيدين اللذين ساعدا على انحلال أسرة قلاوون ، بل إن انصراف بعض السلاطين إلى المجون وانغماسهم فى الترف فضلا عما كان له من أثر سيء فى البلاد أتاح للأمراء فرصة الاستحواذ على السلطة ، فلما شغل الكامل شعبان باللهو كتب إليه يلبغا نائب الشام الذى خرج عن طاعته : « . . . إنك أفسدت وأفقرت الأمراء والأجناد وقتلت أخاك وقبضت على أكابر أمراء السلطان واشتغلت

(١) ابن إياس : ﺟ ١ ص ١٨٠

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 90

(٣) ابن إياس : ﺟ ١ ص ١٨١ — ١٨٢

عن الملك والتهيت بالنساء وشرب الخمر وصرت تبيع أخباز الأجناد بالفضة».
وقد ثار غضب السلطان حين قرأ هذا الكتاب وأطلع أرغون العلائى عليه فقال له : « والله لقد كنت أحسب هذا ، وقلت لك فلم تسمع قولى . » وأشار عليه بعدم إذاعة ذلك الخطاب ، ثم تلطف فى الرد على نائب الشام وبعث إليه أحد الأمراء ليقنعه بالعدول عن عزمه .

على أن يلبغا لم يعدل عن عدائه لسلطان مصر ، بل أرسل إليه كتابا آخر يقول فيه : « إنك لا تصلح للملك وإنما أخذته بالغلبة من غير رضى الأمراء ، ونحن ما بقينا نصغى إليك وأنت ما تصغى لنا ، والمصلحة أن تعزل نفسك من الملك لنولى غيرك [١] . »

كذلك ثار فى وجه الكامل شعبان بعض الأمراء فى مصر كما تركه أتباعه من المماليك حتى عجز عن تهدئة الحالة فى البلاد واضطر أخيرا إلى الهرب فى بيت أمه ، حيث قبض عليه وقتل خنقا [٢] ، وفيه يقول الصلاح الصفدى :

بيت قلاوون سعاداته فى عاجل كانت وفى آجل
جل على أملاكه للردى دين قد استوفاه بالكامل

ولما قبض على الملك الكامل شعبان ، استدعى الأمراء أمير حاج بن الناصر محمد وولوه السلطنة ، ولقبوه الملك المظفر حاجى ، وأقيمت له الخطبة بدمشق ، كما ضربت السكة باسمه [٣] . وقد نهج هذا السلطان سياسة أثارت كراهة الأمراء له ، إذ قبض على بعضهم واستهان بالبعض الآخر ، فحنقوا عليه واتفق رأيهم على خلعه من السلطنة ، ثم قبضوا عليه وحبسوه بالقلعة [٤] .

وقد أظهر المظفر حاجى من الخلاعة وفساد الخلق ما جعل عهده أسوأ من عهده سلفه فذكر المؤرخون أنه بذل كثيرا من الأموال لجواريه واختص

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٤ — ١٥ (طبعة كاليفورنيا)
(٢) ابن إياس : جـ ١ ص ١٨٦
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢٥
(٤) ابن إياس : جـ ١ ص ١٨٩

واحدة منهن كانت حظية لسلاطين قبله[١] . وقد وصفه الشيخ شهاب الدين ابن أبي حجلة التلمساني في هذه العبارة ، فقال : « اشتغل بلعب الطيور عن تدبير الأمور ، والنهي عن الأحكام بالنظر إلى الحمام ، فجعل السطح داره ، والشمس سراجه ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه ، وخالف من نهاه ، وخرج في ذلك عن الحد وصار لا يعرف الهزل من الجد[٢] » .

وكان طموح أمراء المماليك إلى الاستئثار بالنفوذ عن طريق التدخل في تولية من يشاءون من أحفاد قلاوون السلطنة دون النظر إلى مصلحة البلاد من العوامل التي عجلت بزوال دولة بني قلاوون ، فقد حرصوا على سلب السلطة من هؤلاء السلاطين الذين وصلوا إلى عرش الملك بمساعدتهم وجعلوهم ألعوبة في يدهم ، فظل السلطان حسن بن الناصر محمد الذي ولاه لفيف من الأمراء العرش بعد مقتل المظفر حاجي في الثلاث السنين الأولى من حكمه كالمحجور عليه . ولما رأى أن وزيره منجك اليوسفي قد استأثر بكثير من النفوذ في الدولة ، دعا الأمراء والقضاة وقال لهم : يا أمراء هل لأحد على ولاية حجر أو أنا حاكم نفسي ؟ فقال الجميع : ما ثم أحد يحكم على مولانا السلطان وهو مالك رقابنا ، فقال : إذا قلت لكم شيئا (ترجعون) إليه ، قالوا جميعهم : نحن تحت طاعة السلطان ويمتثلون ما يرسم به ، فالتفت السلطان إلى الحاجب وقال له : خذ سيف هذا ، وأشار إلى منجك الوزير ، فأخذ سيفه وقبض عليه ، ثم صودرت أمواله وبعث به إلى الاسكندرية حيث زج في سجنها ، كما أخذ يعمل على إضعاف نفوذ الأمراء ، لكنهم سرعان ما تآمروا على التخلص منه ، فهاجموه وخلعوه عن العرش وولوا أخاه الملك الصالح صالح بن محمد قلاوون[٣] سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) .

---

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 92—93

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ١٨٨

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٨١ — ٩٢

ولما تقلد هذا السلطان العرش ، صار الأمير طاز – الذى كان على رأس الأمراء الذين خلعوا السلطان حسن – صاحب الحل والعقد فى دولة المماليك مما أثار حقد الأمراء عليه فعزموا على مهاجمة قصره ، غير أنه ما لبث أن قضى على محاولتهم[١] .

ولم يكن الأمير طاز هو الذى استأثر وحده دون غيره بالنفوذ فى الدولة ، بل إن السلطان الملك الصالح صالح لما خلع على الأمير صرغتمش فى سنة ٧٥٣ هـ وجعل له حق تولية الولاة وعزلهم عظمت مهابته وصار يحد من شوكة الأمراء ، غير أن السلطان ما لبث أن صرفه وعين فى مكانه الأمير شيخون حين كثرت الأراجيف بتدبير مؤامرة لإعادة الناصر حسن إلى العرش[٢] .

ولا أدل على سوء الحالة التى وصلت إليها البلاد فى ذلك العهد من أن بعض كبار رجال الدولة استغلوا نفوذهم فى المناصب التى تقلدوها لإشباع رغباتهم وأهوائهم وزيادة ثروتهم . وقد اتخذهم بعض الأمراء بطانة لهم ليعاونوهم على تحقيق مطامعهم ، فازدادت فى ذلك الوقت ثروة علم الدين عبد الله بن تاج الدين المعروف بابن زنبور الذى جمعت له الوزارة ونظر الخاص والإشراف على شئون الجيش[٣] .

وكان علم الدين من أنصار الأمير شيخون ، فرأى الأمير صرغتمش أن يوقع به حسدا له على ما صار إليه ، فانتهز فرصة عودة السلطان الملك الصالح من دمشق وذهابه إلى القلعة لاستقباله وبث شكواه للأمير شيخون من الوزير علم الدين بسبب الخلعة التى قدمت إليه وكانت دون مرتبته ، وعزا ذلك إلى سوء تصرف الوزير معه ، فأثار ذلك العمل غضب شيخون على علم الدين وأمر

(١) ابن إياس : جـ ١ ص ١٩٤ — ١٩٥
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١١٨ — ١١٩
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٣١

مماليكه بالقبض عليه ونفى إلى قوص سنة ٧٥٣ هـ[١] .

وقد اقتنى علم الدين ثروة كبيرة فى أثناء تقلده مناصب الدولة ، فيذكر ابن إياس[٢] أن القاضى برهان الدين بن جماعة قال : « وقفت على قوائم فيها ما ضبط من موجود الصاحب علم الدين وهو قماش ملون ما بين صوف وحرير ألفان وستمائة قطعة . . . وأوانى ذهب وفضة زنتها نحو ستين قنطارا ، وصناديق ضمنها فصوص ملونة ما بين ياقوت وألماس وعين هر وحبات لؤلؤ ، وستة آلاف حياصة ذهب ، وستة آلاف كلوته وثلاثون أردب فضة نقرة .. وحواصل فيها بسط رومى . . . وعشرون ألف رأس من الخيول والبغال والجمال وسبعمائة من العبيد والجوارى ، وأربعون ألف قطعة من النحاس الأصفر المكفت والنحاس الأبيض . . . ومن الأملاك والضياع والمسقفات سبعة آلاف مكان ، قومت بثلاثمائة ألف دينار ، ووجد لديه خمسة وعشرون معصرة ، وستمائة مركب ، ومائتا بستان ، وثلاثمائة ألف رأس من الأبقار والأغنام ، ومن الغلال ما بين قمح وشعير وفول مالا ينحصر كيله » . وقد صودرت هذه الأموال كلها ، وظل علم الدين فى منفاه بقوص إلى أن توفى .

كذلك تطور الأمر فى أواخر عهد دولة قلاوون ، فازداد التنافس بين الأمراء على الاستئثار بالسلطة وصار يعقب الواحد منهم الآخر فى السيطرة على البلاد وأصبح السلاطين ألعوبة فى يدهم يولونهم ويعزلونهم متى شاءوا وشاءت أهواؤهم ، فخلع جماعة من الأمراء السلطان الصالح صالح — رغم ما عرف عنه من حزم وما اتصف به من حسن السيرة — وما ذلك إلا لميله إلى الأمير طاز وأعادوا الناصر حسن إلى العرش وبايعوه بالسلطنة من جديد سنة ٧٥٥ هـ[٣] .

على أن الناصر حسن ترك مقاليد الأمور لأمرائه ، فأصبح الأمير

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٦٧ (٢) تاريخ مصر : جـ ١ ص ١٩٧ — ١٩٨

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٣٥ — ١٤٧

شيخون والأمير صرغتمش صاحبي الحل والعقد فى الدولة فى أوائل حكم هذا السلطان ، ثم انفرد صرغتمش بتصريف شئون الدولة بعد وفاة شيخون سنة ٧٥٨ هـ ، وما لبث أن استبد بالسلطة وكثرت أمواله ، وطمع فى الاستقلال بالملك . ولما اتصل ذلك بمسامع السلطان اتفق مع جماعة من الأمراء على التخلص منه ، فقبضوا عليه سنة ٧٥٩ هـ ؛ غير أن هذا العمل أثار غضب مماليكه ، فاشتبكوا مع المماليك السلطانية فى معركة دارت فيها الدائرة على أتباع صرغتمش ، وبذلك زالت الفتنة وخلا الجو للناصر حسن ، لكنه لم يتمتع طويلا بسلطته فسرعان ما ازداد نفوذ يلبغا العمرى حتى أصبح يرجع إليه فى تصريف أمور الدولة ، كما صار يعترض على أعمال الناصر حسن ؛ فأنكر عليه منحه الإقطاعات الكبيرة للنساء وتدخل الطواشية فى أمور الدولة . وقد عظم ذلك على السلطان وأخذ يتحين الفرص للتخلص منه ، فلما خرج للصيد بلغه أن يلبغا دبر مؤامرة لاغتياله ، فوجه همته إلى القبض عليه ؛ غير أن يلبغا ما لبث أن وقف على نوايا السلطان نحوه ، فاستعد بمماليكه وحاشيته لمحاربته ودارت معارك بين الفريقين هزم فيها السلطان وولى هاربا إلى قلعة الجبل لقلة من كان معه من مماليكه ، ثم أخذ يلبغا يتعقبه ؛ لكن الأمير محمد ابن المحسنى لم يلبث أن تصدى له بمماليكه واعترض سيره إلى القلعة ؛ غير أن ذلك لم يكن له أثر فى وقف يلبغا عند حده ، فقد دارت الدائرة على ابن المحسنى ، وسار يلبغا إلى القلعة وقتل السلطان حسن ، ثم استحوذ على خزائنه وجميع ما خلفه من الأموال ، وأقام ابن أخيه الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى سلطانا على مصر ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره[١] .

وكان السلطان الملك المنصور مسلوب السلطة مع الأمير يلبغا الذى أصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة ، يعزل ويولى من يقع عليه اختياره ؛ وظل الملك المنصور على هذه الحال إلى أن اتفقت كلمة الأمراء على خلعه لقلة كفايته

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٥٤ — ١٥٨

ومجونه[١] وذلك سنة ٧٦٤ هـ .

ولما خلع الملك المنصور محمد ، اتفق يلبغا مع الأمراء على تولية الأمير شعبان — وكان فى العاشرة من عمره — ولقب بالأشرف .

وقد ظل يلبغا العمرى فى السنين الأولى من حكم هذا السلطان صاحب النفوذ فى البلاد . ولما كثر تعسفه بمماليكه نفروا منه وعول بعضهم على اغتياله سنة ٧٦٨ هـ ، وتحدثوا مع السلطان فيما اتفقوا عليه ضد هذا الأمير ؛ فعارضهم أول الأمر ، إلا أنه ما لبث أن عدل عن رأيه ورحب بالتخلص منه لحجره عليه وسلبه سلطته .

ولما وصل إلى يلبغا أن السلطان قرب إليه مماليكه ووافقهم على ما ائتمروا به ضده ، ولى الأمير آنوك بن الملك الأمجد حسين أخا الملك الأشرف شعبان السلطنة ولقبه بالملك المنصور ، فكان ذلك سبباً فى نشوب عدة معارك بينهما ، انتهى الأمر فيها بهزيمة يلبغا وقتله[٢] .

على أن الأشرف شعبان لم يستبد بالسلطة رغم تخلصه من يلبغا ، بل سرعان ما استأثر الأمير أسندمر الناصرى بالنفوذ ، وانضم إلى جانبه مماليك يلبغا . وقد أثار استبداد هذا الأمير وتعاظمه حقد الأمراء عليه ورغم هذه المؤامرة التى دبرت لاغتياله تمكن من إخماد فتنتهم ، ولم يزل نفوذه فى ازدياد حتى أصبح السلطان معه كالمحجور عليه سنة ٧٦٨ هـ[٣] .

كذلك استفحل نفوذ مماليك يلبغا وأصبحوا عاملا قويا فى إثارة القلاقل بمصر ، وصار أسندمر مغلوبا معهم على أمره ؛ فطلبوا منه تسليم بعض الأمراء وعزل الأشرف شعبان سنة ٧٦٩ هـ . ولما وصل ذلك إلى علم السلطان ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٧٤ — ١٧٧

Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 97

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢٠٠ — ٢٠١

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ .

ابن إياس : جـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢١

خرج بصحبة مماليكه وبعض كبار الأمراء لمحاربتهم فأوقع بهم الهزيمة ، وولى أسندمر هاربا ، ثم ما لبث أن جيء به للأشرف ، فعفا عنه بعد أن شفع فيه الأمراء وأبقاه فى منصبه ، لكنه أشرك معه فى الأتابكية خليل بن قوصون

على أن أسندمر وخليل بن قوصون ما لبثا أن تحالفا وتآمرا ضد الأشرف شعبان ، كما انحاز إلى جانبهما عدد كبير من مماليك يلبغا ، فسار إليهم السلطان بمن معه من الأمراء والمماليك الأشرفية وأخمد فتنتهم بعد أن قتل كثيراً منهم وقبض على كل من أسندمر وقوصون ، وبعث بهما إلى الاسكندرية حيث زجا بسجنها .

وقد قال الشيخ شهاب الدين أحمد فى هذه الواقعة :

هلال شعبان جهراً لاح فى صفر ... بالنصر حتى أرى عيداً بشعبان
وأهل كبش كأهل الفيل قد أخذوا ... رغما وما انتطحت فى الكبش شاتان[1]

وهكذا لم تتمتع البلاد المصرية بالاستقرار فى السنوات الأولى من حكم الأشرف شعبان لاستفحال نفوذ بعض الأمراء وما كانوا يثيرونه من الفتن فى وجهه .

ولما تخلص هذا السلطان من أسندمر وأضعف شوكة مماليك يلبغا سنة ٧٦٩ هـ ، قبض على زمام الأمور فى البلاد ، وأصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة ، يولى ويعزل دون أن يشاور الأمراء ، ومن ثم استقرت الحالة فى مصر ، ولم يحدث ما يعكر صفوها إلا حين خرج الأشرف شعبان من مصر قاصداً بلاد الحجاز سنة ٧٧٨ هـ ، إذ ثار فى وجهه بعض المماليك فى أيلة بسبب الأموال التى طلبوها منه وأوقعوا به الهزيمة ثم فر إلى القاهرة[2] ، وفى تلك الأثناء كان بعض الأمراء والمماليك السلطانية قد انتهزوا فرصة غيابه وأعلنوا أنه قضى نحبه وهاجموا أعوانه من الأمراء وولوا ابنه علياً

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢٠٨ — ٢١٠
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢٢٨ — ٢٣٠

مكانه(١) . ولما وصل الأشرف إلى القاهرة ، لجأ إلى إحدى دورها حيث كشف أمره بعد فترة قصيرة من الزمن ثم قبض عليه وقتل(٢) .

على أن الأمر الذى يسترعى نظرنا أنه رغم ضعف أحفاد قلاوون وعدم استطاعتهم المحافظة على إبقاء الحكم فى بيتهم وانقسام الأمراء إلى شيع وأحزاب وسعى كل منهم للتخلص من الآخر ، فإنهم كانوا جميعا متحدين اتحادا تاما ضد الخارجين على بلادهم ، كما كانت البلاد المصرية تنعم فى أواخر عهد هذه الأسرة بالرخاء ، ويتبين لنا ذلك من هذه العبارة التى أوردها أبو المحاسن(٣) « وكانت أيام الأشرف شعبان بهجة وأحوال الناس فى أيامه هادئة مطمئنة والخيرات كثيرة على غلاء وقع فى أيامه بالديار المصرية والبلاد الشامية ومع ذلك لم يختل من أحوال مصر شىء لحسن تدبيره . »

وقد ازدادت الفتن التى أثارها الأمراء بسبب تنازعهم على الاستئثار بالنفوذ فى الدولة بعد مقتل الأشرف شعبان ؛ فصار كل من قرطاى أتابك العساكر وصهره أينبك البدرى يتآمر مع أصحابه وبطانته على الآخر ، ثم وقع الخلف بين أينبك وأقتمر الحنبلى نائب السلطنة بعد أن عين قرطاى نائبا على حلب . وانتهى أمر هذا النزاع بنفى أقتمر إلى بيت المقدس وتعيين أينبك أتابكا للعساكر ، ومن ثم استفحل نفوذ هذا الأمير وصار يتصرف فى شئون الدولة كما شاء وشاءت أهواؤه .

وقد تأثرت الحالة فى بلاد الشام بالاضطراب السائد فى مصر ، فخرج نوابها عن طاعة السلطان مما اضطر أينبك إلى تجهيز حملة لإخضاعهم لكنه ما لبث أن عدل عن السفر مع تلك الحملة حين بلغه اتفاق العساكر على الخروج عن طاعته ، ثم ولى هاربا حين أيقن أن أمره فى إدبار ، وبعث السلطان فى طلب طشتمر نائب الشام وقلده منصب أتابك العساكر بدلا من أينبك البدرى

(١) Muir. The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 101.

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٢٣٤

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٥ القسم الأول ص ٢٣٦

وصار إليه أمر التولية والعزل[١] .

ولما أخذ طشتمر فى تصريف أمور الدولة عظم ذلك على برقوق — وكان قد جمع حوله عددا كبيرا من المماليك — فاتفق مع بركة الجوبانى وبعض الأمراء على محاربته ، وسرعان ما خرجت مماليكه وأوقعت الهزيمة بمماليك طشتمر الذى انتهى أمره بالقبض عليه وحبسه فى الاسكندرية ؛ وبذلك خلا الجو لبرقوق وحل محل طشتمر فى منصب أتابك العساكر وصار هو وبركة صاحبى الأمر والنهى فى القاهرة حتى لهجت الناس بقولهم : « برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة[٢] » .

ومع ذلك فإن الاضطراب لم ينقطع من القاهرة وأصبحت القلعة نفسها مسرحا للثورة ؛ فانتهز الأمير إينال فرصة خروج برقوق للصيد سنة ٧٨١ ﻫ وغياب بركة فاستولى على الاسطبل السلطانى ، كما انقض على دار أسلحة برقوق واستحوذ على أكثر ما فيها من معدات الحرب . ولما بلغ برقوق خبر هذه الثورة التى قام بها إينال ، سار مع جماعة من مماليكه إلى القلعة وأوقع به الهزيمة واستعاد ما استولى عليه هذا الأمير[٣] .

ولم تكد الأحوال فى القاهرة تهدأ بعد القضاء على فتنة إينال حتى قام النزاع بين برقوق وبركة الجوبانى واندلعت نيران الحرب الداخلية من جديد فأخذ الأمراء يعدون العدة للدفاع عن أنفسهم على أثر ما وصل اليهم عن تدبير بركة مؤامرة للتخلص من أنصار برقوق .

ولما رأى برقوق أن الحالة زادت اضطرابا ، دعا القضاة إلى القلعة وأبدى لهم رغبته فى التخلى عن منصبه كما طلب منهم أن يعملوا على استقلال السلطان بتدبير شئون الدولة ، فسعوا فى التوفيق بينه وبين بركة ، وأذعن كل منهما إلى الصلح بعد أن ترددت الرسل بينهما أكثر من مرة[٤] .

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٦٧ ، ابن إياس ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ القسم الثانى ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣١٣

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣١٨

وما هى إلا فترة قصيرة انقضت على هذا الصلح حتى عول برقوق على التخلص من بركة لتآمره على قتله ، فأمر أتباعه من المماليك بالتأهب للحرب ، ودار قتال عنيف بين الفريقين انتهى الأمر فيه بهزيمة بركة وأمره . وفى ذلك يقول ابن حبيب الحلبي[1] :

ياويحها من حالة وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة فيها زوال بركة

ولما تم لبرقوق القضاء على منافسه بركة ، أصبح صاحب السيادة المطلقة لكنه رغم ذلك لم يجسر على الطموح إلى السلطنة ، كما أنه بعد وفاة الملك المنصور على سنة ٧٨٣ هـ ، لم يتيسر له — مع ما كان عليه من العظمة — أن يتسلطن . وكان قد أشيع بين الناس أنه سيرتقى عرش السلطنة ؛ فأظهر أكابر أمراء الدولة عدم ارتياحهم وقالوا : «لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلبغا» . ولما علم برقوق بذلك دعا الأمراء والقضاة والخليفة المتوكل على الله وتحدث معهم فى تولية أحد أولاد الأشرف شعبان ، فوقع اختيارهم على أمير حاج لأنه أكبرهم سنا ، فبايعه الخليفة وأقسم له الأمراء يمين الطاعة ثم قبلوا الأرض بين يديه ولقب بالملك الصالح[2] .

وقد ظل برقوق يتقلد منصب أتابك العساكر ، كما عهد إليه فى تدبير شئون الدولة والوصاية على السلطان لصغر سنه ، وأفتى العلماء يومئذ بذلك[3] .

على أن بعض مماليك كبار الأمراء مالبثوا أن نقموا على برقوق استئثاره بالنفوذ فى الدولة ، فدبروا مؤامرة لاغتياله . ولما وقف برقوق على نوايا هؤلاء المماليك نحوه قبض على فريق منهم وسجنهم ، ثم أشار عليه بعض أصحابه أن يتسلطن ويحتجب عن الناس ، غير أنه اعتذر عن ذلك بأنه يخشى اعتراض قدماء الأمراء بمصر والشام على ارتقائه عرش السلطنة ، ولم

(١) ابن إياس : جـ ١ ص ٢٤٧
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الثانى ص ٣٤٧ — ٣٤٨
(٣) ابن خلدون : جـ ٥ ص ٤٧١ — ٤٧٢

يزل بعض الأمراء من أنصاره يهون عليه الأمر ويتعهد له بالعمل على مؤازرته حتى كان يوم ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر سنة ١٣٨٢ م) حيث دعا برقوق الخليفة والقضاة الأربع وسائر الأمراء إلى اجتماع قام فيه القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف قائلا : « يا أمير المؤمنين ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد وخرج غالب النواب فى الشام عن الطاعة . . . وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » فاستقر الرأى على خلع السلطان الملك الصالح أمير حاج وتولية برقوق عرش السلطنة[١] .

وهكذا تقلص الحكم من أسرة قلاوون بعد أن ظل أبناؤها يتوارثونه قرنا من الزمان . ولم نر سلطانا من المماليك استمر التاج فى بيته سوى الناصر محمد ، إذ حكم بعده أبناؤه وأحفاده سنين عدة .

لكن خلفاء الناصر لم يكونوا — كما بينا — من القوة بحيث يستطيعون القبض على زمام الأمور فى البلاد والمحافظة على إبقاء الحكم فى بيتهم ، إذ خلفه سلاطين صغار السن ، عجزوا عن الوقوف فى وجه الأمراء الذين أتيح لهم الاستبداد بالسلطة ؛ هذا فضلا عما كان من نشوب الخلاف بين الأمراء وسعى كل منهم للتخلص من الآخر مما حمل برقوق الذى أصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة ، فى عهد الملك الصالح أمير حاج ، على إقصاء بعض منافسيه من الأمراء ، ثم لم يلبث أن خلع هذا السلطان وخلفه على العرش ؛ وبذلك زالت دولة بنى قلاوون ، وانتقلت السلطة إلى المماليك الجركسية الذى كان ينتمى إليهم برقوق .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الثانى ص ٣٥٣ — ٣٥٦
ابن إياس : جـ ١ ص ٢٥٧

الفصل الثالث

الخلافة العباسية فى عهد أسرة قلاوون

١ — علاقة الخلفاء العباسيين فى مصر بسلاطين المماليك

لم يكن لدى الدول الإسلامية فى الوقت الذى قضى فيه هولاكو على الخليفه المستعصم ببغداد من القوة ما يستطيع بها إعادة الخلافة ، إلى سابق عهدها ؛ بل أصبح أكثر هذه الدول خاضعاً لسلطان المغول .

وعلى الرغم من انشغال أمراء المسلمين بالعمل على ضبط الأمور فى بلادهم ، فإنهم لم يروا فى زوال الخلافة من بغداد نهاية العهد بها ؛ بل ظلوا يترقبون الفرص لإحيائها ، ولا أدل على ذلك مما رواه مفضل بن أبى الفضائل، فقد ذكر أنه حين قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على أثر إنتصاره على التتار فى موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم الأمير أبى العباس أحمد ، فقال له : « إذا رجعنا إلى مصر ، أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله »(١) . على أن السيوطى يروى رواية أخرى ، فيذكر أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق ، ويزيد على ذلك أن هذا الأمير سار فى جماعة من أمراء العرب ، ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار ، وانتصر على التتار ، ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشق ليذهب إلى الملك الظاهر بيبرس بمصر ، فامتنع عن ذلك لما علم أن أميراً عباسياً آخر قدم إليها ورجع إلى حلب ، فبايعه بالخلافة صاحبها شمس الدين البرلى ولقبه الحاكم بأمر الله ونقش اسمه على الدراهم ، ثم جهزه على رأس جيش صغير لمحاربة المغول(٢) .

---

(١) النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٩٣   (٢) تاريخ الخلفاء ص ٣١٨

على أن هذه المحاولات التى قام بها بعض الأمراء لإحياء الخلافة لم تأت بالغرض المرجو ؛ فظل منصب الخلافة شاغرا إلى أن ولى الظاهر بيبرس سلطنة مصر فرأى أن يقيم الخلافة العباسية فى القاهرة لتشد أزره وتكسب حكمه صفة شرعية وتساعده على أن يؤول إليه النفوذ الذى كان للحفصيين على الأراضى المقدسة(١) . وكانت بلاد الحجاز فى مقدمة الولايات التى تحرص الخلافة على حمايتها .

وقد تحققت آمال بيبرس فى إعادة الخلافة حين أرسل إليه نائبه بدمشق كتابا يتضمن أن رجلا قدم إلى هذه المدينة يدعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسى فكتب إليه السلطان يوصيه بهخيرا ويأمره بإنفاذه إلى مصر ، ثم احتفل باستقباله .

ولم يمض على قدوم هذا الأمير العباسى إلى مصر زمن طويل حتى عقد الظاهر بيبرس مجلسا بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل ، أقر فيه قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز صحة نسبه إلى البيت العباسى ، ثم بايعه بالخلافة وتبعه الملك الظاهر والقضاة ؛ ولقب بالمستنصر بالله ، كما أمر بيبرس بأن ينقش اسمه بجانب اسمه على السكة وأن يدعى له قبل الدعاء للسلطان فى خطبة الجمعة

ولما رأى بيبرس أنه فى حاجة إلى تقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المماليك ، طلب إلى المستنصر بالله أن يعطيه تفويضا شرعيا بتثبيته فى مركزه وفى أملاكه ، فمنحه هذا الخليفة تقليدا بولاية مصر والشام والحجاز واليمن والعراق وما يتجدد من الفتوحات ، كما أعطاه خلعة السلطنة .

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن الخليفة العباسى أوصى الظاهر بيبرس فى هذا التقليد بأن يعيد الخلافة إلى بغداد ؛ ومما قاله(٢) : « . . . وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأول ، فأيقظ لنصرة الإسلام

---

(١) Wiet, Précis De L' Histoire D' Egypte p. 250

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص٤٥٣ — ٤٥٧

جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا وأيد كلمة التوحيد ، فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا . »

ولما اطمأن بيبرس إلى أن سلطته قد توطدت بهذا التفويض الذى أخذه من المستنصر بالله . شرع فى إعادته إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد ؛ فعهد إلى بعض الأمراء والعساكر بمرافقته وخرج فى صحبته إلى بلاد الشام ؛ غير أنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى أشار عليه بعض خاصته بالعدول عن فكرة إعادة الخليفة إلى بغداد خشية أن يعمل على هدم سلطته فى مصر والشام لو تم له القضاء على المغول فى بغداد وأعاد ملك العباسيين ، لذا تغير السلطان على الخليفة وتركه وشأنه يخترق بادية الشام برفقة ثلثمائة فارس من الأعراب والترك .

ولم يكن تخلى بيبرس عن الخليفة المستنصر بالله يثنيه عن عزمه فانه تابع سيره حتى وصل إلى عانة حيث انضم إليه الأمير أبو العباس أحمد ، ثم رحل إلى الحديثة ومنها واصل السير إلى هيت ؛ وهناك اشتبك مع المغول فى معركة انتهى الأمر فيها بهزيمته وقتله سنة ٦٦٠ هـ . ولم ينج من جنده سوى بعض الأمراء ، كان من بينهم الأمير أبو العباس أحمد .

وهكذا فشل الخليفة المستنصر فى إعادة مجد العباسيين . وظل منصب الخلافة شاغرا مدة سنة إلى أن استقر رأى بيبرس على إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التى تحت سلطانه . فبعث فى طلب الأمير أبى العباس أحمد إلى مصر ، ثم احتفل بمبايعته على أثر قدومه ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبذلك أصبحت مصر مقرا للخلافة العباسية .

ولما استقر ملك بيبرس فى مصر والشام عمل على إضعاف شأن الخليفة فأبقاه بالقلعة وحال بينه وبين التدخل فى شئون الدولة والاتصال بالشعب لما قد يترتب على ذلك من إثارته عليه وإحلاله محله فى عرش مصر[1] .

---

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره : ص ٦٢ — ٧٣

وقد ظل الخليفة الحاكم بأمر الله لا يباشر أى عمل من أعمال الدولة طوال عهد بيبرس الذى حال دون نشر نفوذه على الحكام المسلمين ولم يأخذ منه تفويضا بعهد السلطنة لابنه الملك السعيد ، وإنما منح هذا التفويض بنفسه وأمر بقراءته على القضاة والفقهاء سنة ٦٦٢ هـ .

وهكذا استبد بيبرس بالسلطان والنفوذ دون الخليفة العباسى فى القاهرة وأصبح لا يعنى بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة[١] . ويتبين لنا ذلك مما جاء فى التفويض الذى أعطاه بيبرس لولى عهده الملك السعيد . وقد جاء فيه[٢] : « الحمد لله منمى الغروس ومبهج النفوس . . . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده . . . ونصلى على سيدنا محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى .. وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو ، وتوسمنا منه حسن الجنى المرجو . . . فأردنا أن ننصبه فى منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه . . . وخرج أمرنا لا برح مسعدا ومسعفا ، ولا عدمت الأمة منه خلفا منبلا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا السعيد ناصر الدين « بركة خاقان محمد » ، جعل الله مطلع سعده بالإشراف محفوفا وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا — بولاية العهد الشريف — على قرب البلاد وبعدها . وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وشام وغير شام ؛ وجعلنا يده فى ذلك كله المبسوطة ،

---

(١) ذكر السيوطى (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ٥٤) أن الظاهر بيبرس لما خاف عاقبة أمر الخليفة ، أسقط اسمه من السكة وأبقاه على المنابر ؛ وهذا يخالف ما ورد فى التفويض الذى منحه السلطان لابنه الملك السعيد ، إذ جاء فيه : « ولا منبر خطيب إلا باسمنا يميس » .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ٨١ — ٨٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٣ — ١٦٦

ولا تدبير ملك كلى إلا بنـا أو بولدنا يُعمل . . . . . . ولا منبر خطيب إلا باسمنا يميس ، ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق . . . »

على أن الملك السعيد ، سرعان ما نقض سياسة أبيه إزاء الخليفة ، حين عمل الأمراء على تقويض سلطته وحاصروه بالقلعة ؛ فاستدعى الحاكم بأمر الله وطلب منه الوقوف على رغبة الأمراء . ولما أخبره بأنهم يرغبون فى عزله وإعطائه ولاية الكرك ، أذعن لذلك ثم شهد عليه القضاة والأعيان بالخلع أمام الخليفة [١] .

ولما آلت السلطنة إلى بدر الدين سلامش بن بيبرس بعد نزول الملك السعيد عن العرش وعين الأمير قلاوون أتابكا له ، صارت السكة تضرب باسمه على أحد الوجهين وباسم قلاوون على الوجه الآخر ، وبذلك أسقط اسم الخليفة من السكة [٢] .

ولما قبض قلاوون على زمام الأمور فى مصر سنة ٦٧٨ هـ منحه الخليفة الحاكم بأمر الله تفويضا بالحكم ، وفيما يلى بعض فقرات منه [٤] : « . . . الحمد لله الذى جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام وبعد الشحوب جميلة الاتسام . . . وأظهر للسلطان سلطانا اشتدت به للأمة الظهور وشفيت الصدور ؛ وأقام الخلافة العباسية فى هذا الزمن بالمنصور ، كما أقامها فيما مضى بالمنصور . . . وأخرج لحياطة الأمة المحمدية ملكا تقسم البركات عن يمينه ، وتقهر الأعداء بفتكاته . . .

وخرج أمر أمير المؤمنين أن يكون للمقر العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى ، أجله الله ونصره ، كل ما فوضه الله . . . لأمير المؤمنين من حكم

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥٥
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٠
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١١٦ — ١٢٠

فى الوجود . . . وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه . . . وفى كل تفرد بالنظر فى أمور المسلمين بغير شريك . »

وقد أوصى الخليفة السلطان قلاوون فى هذا التفويض كما جرت العادة بمراعاة العدل والقيام بالجهاد ، وختم تفويضه بقوله : « وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار ، فأذقهم وبال أمرهم فى كل إيراد للغزو وإصدار ، وثر لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثار ، واعلم أن الله نصيرك على ظلمهم وما للظالمين من أنصار . وأما غيرهم من مجاوريهم من المسلمين ، فأحسن باستنقاذك منهم العلاج وطُبَّهم باستصلاحك ، فبالطب الملكى والمنصورى ينصلح المزاج والله الموفق بمنه وكرمه » .

ومع أن هذا التفويض أكسب قلاوون تأييداً شرعياً لحكمه ، فإنه صار لا يقدم للخليفة الحاكم بأمر الله الاحترام الذى يتفق وصفته الدينية ، وظل نفوذه خاملا فى عهده إلى أن ولى الأشرف خليل بن قلاوون عرش مصر سنة ٦٨٩ هـ فرعى للخلافة حقها ، وسمح للحاكم بأمر الله بالخروج من القلعة ، كما طلب منه أن يخطب فى يوم الجمعة ١٤ شوال سنة ٦٩٠ هـ بجامع القلعة ، فألقى الخطبة التى قالها فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، إلا أنه ذكر اسم الملك الأشرف بدل اسمه ، وصار الخليفة منذ ذلك الوقت يخطب فى جامع القلعة ويصحب السلطان فى الحفلات الرسمية التى تقام فى القبة المنصورية . وكان يحضر هذه الحفلات نائب السلطنة والوزير وكبار رجال الدولة ، وتبدأ عادة بتلاوة آى الذكر الحكيم . وقد خطب فيها الحاكم بأمر الله سنة ٦٩٠ هـ خطبة بليغة ، حرّض فيها المصريين على أخذ العراق ، كما ألقى فى العام التالى خطبة أخرى حث فيها على الجهاد ، وصلى بالناس الجمعة[١] ، وكان لهذه الخطبة أثرها فى نفوس المماليك ، فسارعوا الى الخروج مع السلطان الأشرف خليل إلى بلاد

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٧٣ — ٧٧٤ ، ٧٧٧
السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ٢ ص ٥٤

الشام حيث وقفوا فى وجه الصليبيين بعكاء موقف البطولة والهمة ونجحوا فى الاستيلاء على آخر معقل لهم فى هذه البلاد .

ولم يكن هذا كل ما قام به الخليفة الحاكم بأمر الله ، بل إنه حين أجمع الأمراء على عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٤ هـ وتولية الأمير كتبغا ، أقر عزله لصغر سنه وعدم أهليته للحكم ، ووافق على تعيين كتبغا سلطانا على مصر ومنحه الخلع ، كما أعطاه تقليدا جاء فيه(١) : « . . . إن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى جعل له منك سلطانا نصيرا وأقام له بملكك على ما ولاه من أمور خلفه عضدا وظهيرا . . . وجمع بك الأمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريق منهم . . . ويد (السلطان) المبسوطة فى إمضاء الحكم بما أنزل الله . . . وفى مصالح الحرمين الشريفين . . . وإقامة سبيل الحجيج . . . وفى عمارة البيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . . . وفى إقامة الخطب على المنابر واقتران اسمه الشريف مع (اسمك) بين كل باد وحاضر . . . وفى سائر ما تشمله الممالك الاسلامية ومن تشتمل عليه شرقا وغربا . . . وشاما ومصرا وحجازا ويمنا . . . وفوض (إليك) ذلك جميعه وكل ما هو من لوازم خلافته لله فى أرضه . . . »

ولما آلت سلطنة مصر إلى الملك المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، منحه الخليفة الحاكم بأمر الله تفويضا لا يختلف فى معناه عن التفويض الذى منح لزين الدين كتبغا ، وبذلك نال هذا السلطان تأييدا شرعيا لحكمه فى وقت كان يتنازع فيه الأمراء على الاستئثار بالسلطة وخاصة بعد خلع السلطان الناصر محمد عن العرش .

ولما كان السلطان لاجين فى حاجة إلى تقوية عرشه فى مصر ، حرص على اكتساب رضاء الخليفة الذى كان الشعب لا يزال ينظر إليه نظرة إكبار وإجلال ، فأمر بأن يتخذ الخليفة الحاكم بأمر الله مناظر الكبش محلا لإقامته

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٧ — ٥٣

بدلا من قلعة الجبل ورتب له مايكفيه من الأموال ، كما صار يدعوه للركوب معه فى المواكب ولحضور الحفلات الرسمية ؛ وبذلك عاد الخليفة إلى الظهور فى المجتمعات العامة بعد أن عمل كل من بيبرس وقلاوون على عدم اتصاله بخواص الدولة ورجالات الشعب .

ومع أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد أقر عزل السلطان الناصر لصغر سنه سنة ٦٩٤ ﻫ ومنح كلا من كتبغا ولاجين تفويضا شرعيا بالحكم ، فإنه لم يكن له أى نفوذ فى إدارة شئون الدولة ، بل كان جل عمله الموافقة على ما يستقر عليه رأى الأمراء الذين تنازعوا السلطة بعد خلع السلطان الناصر ؛ لذلك لا نعجب إذا رأينا هـــذا الخليفة يرحب باستعادة الناصر عرشه بعد قتل السلطان لاجين سنة ٦٩٨ ﻫ (١٢٩٩ م) ويمنحه تفويضا لم يسبق أن منح مثله عندما ولى السلطنة سنة ٦٩٣ ﻫ .

وقد بين الخليفة الحاكم بأمر الله فى هذا التفويض حرصه على رد الحقوق إلى أهلها ، وأحقية الناصر محمد فى سلطنة مصر ، كما رسم له الخطة التى ينبغى أن يسير عليها فى إدارة شئون البلاد ؛ واليك بعض فقرات[1] منه :

« من عبد الله ووليه الامام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد أمير المؤمنين إلى السلطان الأجل . . . سلطان الاسلام والمسلمين . . مبيد الأرمن والفرنج والتتار ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم ، خادم الحرمين ، صاحب القبلتين أبى الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين .

أما بعد ، فالحمد لله الذى أقام ناصر الاسلام وأهله بخير ناصر وأحل فى السلطنة المعظمة من استحقها بذاته الشريفة وشرف العناصر . . .

إن الله تعالى جعل سجية الأيام الشريفة الإمامية الحاكمية ــ أدام الله إشراقها ــ رد الحقوق إلى نصابها وإعادتها إلى مستحقيها ولو تمادت الأيام على اغتصابها . . . وكنت أيها السيد العالم ، العادل ، السلطان ، الملك ، الناصر

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ س ٥٩ — ٦٨

أولى الأولياء بالملك الشريف ، لما لسلفك من الحقوق ، وما أسلفوه من فضل لا يحسن له التناسى ولا العقوق . . .

وكان ركابك العالى قد سار إلى الكرك المحروس وقعدت عنك الأجسام وسافرت معك النفوس ؛ ووثقت الخواطر بأنك إلى السلطنة تعود ، وأن الله تعالى يجدد لك صعودا إلى مراتب السعود . وأقمت بها وذكرك فى الآفاق سائر والآمال مبشرة بأنك إلى كرسى مملكتك صائر ، فلما احتاج الملك الشريف فى هذه المدة إلى ملك يسر سريره . . . لم يدر فى الأذهان . . إلا أنك أحق الناس بالسلطنة الشريفة . . . ولا ذكر أحد إلا حقوق بيتك وفضلها ، ولا قال عنكم إلا بقول الله (وكانوا أحق بها وأهلها) لأن البلاد فتوحات سيوفكم ولأن العساكر الإسلامية استرقهم ولاؤك ، ووالوك لأنهم أرقاؤك فلم يقل أحد : أنى له الملك علينا ؟ بل أقر كل منهم لك باليـــد وقر بولايتك عينا وأخلصوا فى موالاتك العقائد . . .

وكان أمير المؤمنين قد شاهدك يافعا وشهد خاطره أن ستصير للمسلمين نافعا . . . وبلغه عنك من العدل والإحسان ما أعجز وصفه بلاغتى القلم واللسان ، فناداك نداءه على بعد المزار ، ولم يجد لك نظيرا ، فأطال وأطاب لمقدمك السعيد الانتظار إلى أن أقدمت إقدام الليث ، وقدمت إلى البلاد المتعطشة إلى نظرك الشريف قدوم الغيث . . .

ورأى أمير المؤمنين من نجابتك فوق ما أخبرت به مساءلة الركبان . . . فاختارك على علم على العالمين ، واجتباك للذب عن الإسلام والمسلمين . . . وعهد إليك فى كل ما اشتملت عليه دعوة إمامته المعظمة وأحكام خلافته التى لم تزل بها عقود الممالك فى الطاعه منظمة ، وفوض إليك سلطنة الممالك الإسلامية برا وبحرا وشاما ومصرا . . . وما سيفتحه الله عليك من البلاد . . . وتقليد الملوك والوزراء وقضاة الحكم العزيز وتأمير الأمراء وتجهيز العساكر والبعوث للجهاد فى سبيل الله ، ومحاربة من ترى محاربته من الأعداء ومهادنة

من ترى مهادنته منهم وجعل إليك فى ذلك كله العقد والحل والإبرام والنقض والولاية والعزل .

فليتقلد السلطان الملك الناصر ما قلده أمير المؤمنين . . . وليترق إلى هذه الرتبة التى استحقها بحسبه واسترقها بنسبه . . . فقد أراد أمير المؤمنين القيام فى نصرة الدين الحنيف فأقامك أنت مقامه . . . »

ولما توفى الحاكم بأمر الله سنة ٧٠١ هـ خلفه ابنه أبو الربيع سليمان الذى تلقب بالمستكفى بالله ؛ ومع أن أباه كان قد ولاه عهد الخلافة قبل وفاته فإن السلطان الناصر رأى ألا يعترف ببيعته نظرا لصغر سنه إلا بعد استشارة قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد ؛ فلما أقر هذا القاضى صلاحيته للخلافة بايعه السلطان والقضاة ، كما منحه خلعة الخلافة ، وخلع على أولاد أخيه خلع الأمراء ، ثم شهد الشهود أنه ولاه جميع ما ولاه والده وفوضه إليه .

وقد بالغ الناصر محمد فى إعلاء شأن الخليفة المستكفى بالله ، فأمر بأن يخطب له على منابر مصر والشام وينقش اسمه على السكة ؛ ولم يكتف بذلك ، بل أنزله هو وأولاده ومن يلوذ به فى دارين بالقلعة إكراما لهم ، كما أجرى عليهم الرواتب الكثيرة ، وتوثقت الصلة بين السلطان وبين الخليفة فصارا يخرجان معا للتريض وحضور الحفلات الرسمية[1] .

ومع أن الخليفة العباسى فى القاهرة كان مسلوب السلطة ، فإنه ظل يتمتع بشىء من النفوذ الدينى ، مما حمل السلطان على دعوته للخروج معه فى الحملات الحربية ليستعين به فى حث المصريين على الجهاد ومواصلة الحرب حتى النصر ؛ فسار الحاكم بأمر الله مع الناصر لمحاربة المغول ببلاد الشام ، ثم عاد كلاهما إلى القاهرة بعد أن أوقع السلطان غازان محمود الهزيمة بالمماليك فى موقعة مجمع المروج سنة ٦٩٩ هـ .

ولما وصل إلى مصر نبأ معاودة غازان الزحف على دمشق سنة ٧٠٢ هـ ،

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٧

خرج الناصر محمد إلى بلاد الشام بصحبة الخليفة المستكفى بالله ومعهما قضاة المذاهب الأربعة وسائر الأمراء والقراء ، وحين اشتبك الفريقان فى القتال ، خطب الخليفة فى الجنود خطبة قال فيها : « يامجاهدون ، لاتنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وعن حريمكم » كما ظل القراء يتلون القرآن الكريم أثناء المعركة ويحثون الجنود على الجهاد ويشوقونهم إلى الجنة[1] ، وكان لهذا المظهر الدينى الرائع أثره البالغ فى نفوس المصريين ، فازدادت حماستهم فى الذود عن بلادهم والتقت جموعهم بالمغول فى سهل مرج الصفر بالقرب من دمشق وأوقعوا بهم الهزيمة .

مما تقدم يتبين لنا كيف استغل السلطان الناصر تقديس الشعب لشخصية الخليفة ، فاستعان به فى حث المصريين على الجهاد ؛ وكان لهذه السياسة أثرها فى وقوف أهل مصر فى وجه المغول وقفة رجل واحد . وقد أشار إلى ذلك القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر فى كتاب « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » فقال : ركب مولانا السلطان الملك الناصر . . . بجيوشه التى نهضت بسنن الجهاد وفرضه معتضداً ببضعة من الرسول ، منتصراً بابن عمه — الذى لا يسمو أحد من غير أهل بيته لشرفه ولا يطول — ملتمساً بركة هذا البيت الشريف الذى طالما كان الملائكة من نجده وجنده » .

كذلك كان بعض السلاطين يستعين بالخليفة فى توطيد دعائم ملكه إذا ما خرج عليه أمراء دولته ، فطلب السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير من الخليفة المستكفى بالله سنة ٧٠٩ هـ أن يجدد له عهد بيعة السلطنة حين انحاز فريق من أمراء الشام للملك الناصر محمد بن قلاوون الذى كان يسعى إذ ذاك لاستعادة عرشه بعد أن نزل عنه واتخذ الكرك محلا لإقامته سنة ٧٠٨ هـ . وما لبث أن حقق الخليفة رغبة السلطان بيبرس[2] ؛ فأقسم له الأمراء يمين

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الأول ص ٩٢٣

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٩ (القسم الأول) ورقة ١٥٢

الطاعة بحضرته ومنحه عهداً جديداً ، وإليك نصه[١] : « (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي الربيع سليمان بن أحمد العباسي لأمراء المسلمين وجيوشها (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأنى رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين نائباً عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقمته مقام نفسى لدينه وكفاءته وأهليته ورضيته للمؤمنين وعزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعيناً علىّ ، وحكمت بذلك الحكام الأربعة ، واعلموا — رحمكم الله — أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف ولا كابر عن كابر . وقد استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك المظفر ، فمن أطاعه فقد أطاعنى ، ومن عصاه فقد عصانى ، ومن عصانى فقد عصى أبا القاسم ابن عمى صلى الله عليه وسلم ، وبلغنى أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصا على المسلمين وفرق كلمتهم وشتت شملهم وأطمع عدوهم فيهم ، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبى الحريم والأولاد وسفك الدماء ، فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك . وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك ، وأدافع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم لهذا الأمر العظيم ، وأقاتله حتى يفيء إلى أمر الله تعالى ، وقد أوجبت عليكم يامعاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائى اللواء الشريف ، فقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه وقتاله إن استمر على ذلك ، وأنا مستصحب معى الملك المظفر فجهزوا أرواحكم والسلام . »

ولم يكن الشعب المصرى مع ما عرف عنه من إحلال الخليفة من نفسه محل الاحترام والاجلال يرضخ لكل تفويض يمنحه للسلطان وخاصة إذا أيقن أن هذا التفويض يتعارض مع مصلحته ولا يحقق رغباته . وقد تجلت هذه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٣ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ (القسم الأول) ص ٦٥ — ٦٦

الظاهرة عندما قرأ الخطباء على منابر جوامع القاهرة عهد بيعة المستكفي للسلطان بيبرس الجاشنكير ، فقال العامة على أثر سماعهم اسم الناصر محمد : نصره الله نصره الله ، وكرروا هذه العبارة ولما بلغ القارىء اسم المظفر بيبرس صاحوا قائلين : لا نريده ؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قامت فى القاهرة بعض الاضطرابات بسبب هذه البيعة (١) .

أما عن موقف الأمراء إزاء الخليفة ، فإنهم كانوا يرون أنه أصبح مجردا من السلطة الزمنية ، وقد حدا ذلك ببعضهم إلى عدم احترام عهد البيعة الذى جدده المستكفى بالله للسلطان بيبرس الجاشنكير ، ولا أدل على صحة هذا القول مما حدث حين وصل إلى مسامع الملك المظفر بيبرس نبأ انضمام كثير من جنده إلى الناصر محمد ، فقد عهد إلى الأمير بهادرجك بأن يسلم عهد الخليفة للأمير برلغى — قائد جيشه فى العباسة — ليقرأه على الأمراء والجند ، كما بعث معه بكتاب لهذا الأمير فلما قرأ عليه الأمير بهادرجك الكتاب وانتهى إلى قوله « وإن أمير المؤمنين ولانى تولية جديدة وكتب لى عهدا وجدد لى بيعة ثانية ، فتح برلغى العهد فإذا أوله « إنه من سليمان » فقال : « ولسليمان الريح » ، ثم التفت إلى بها درجك وقال له : قل للسلطان : « والله ما بقى أحد يلتفت إلى الخليفة (٢) » .

وقد أصاب الأمير برلغى بقوله إنه لم يبق أحد يهتم بالخليفة لأن المصريين أعرضوا بين بيعته للسلطان بيبرس وظلوا حريصين على ولائهم للسلطان الناصر رغم عزل الخليفة له بعد نزوله عن العرش ، وكان ذلك مما ساعده على استعادة سلطته .

على أننا نرى أن الخليفة بتجديده بيعة السلطان بيبرس لم يكترث بميل

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٤

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٦٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٢

الشعب المصرى إلى الناصر محمد وتمادى فى تأييد سلطنة بيبرس ؛ وكان يجدر به أن يعمل على تحقيق رغبة المصريين فى عودة الناصر محمد إلى سلطنة مصر وينصح لبيبرس بالنزول عن العرش خشية قيام الفتنة ؛ وبذلك يحفظ للخلافة كيانها وهيبتها فى نفوس الشعب ؛ لكنه بتجديده البيعة للسلطان بيبرس رغم كراهة المصريين له ، أضاع هيبته وعرض نفسه للوم السلطان الناصر محمد حين قدم مع الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة لتهنئته بعودته إلى عرش مصر ، إذ قال له[1] : « كيف تحضر (لتسلم) على خارجى ، هل كنت خارجيا وبيبرس كان من سلالة بنى العباس ؟ » ، فتغير وجه الخليفة ولم يجبه .

ولما استقر الأمر للناصر محمد فى مصر بعد نزول بيبرس الجاشنكير عن العرش ، عمل على الاستبداد بالسلطة ، كما أضعف من شأن الخليفة حتى لا يحاول الاتفاق مع بعض الأمراء على خلعه ، وخاصة أنه كان قد أعلن عزله فى البيعة التى جددها للملك المظفر بيبرس . وقد ظل الناصر محمد متحاملا منه بسبب ذلك ، ولم يزل يعترضه ويكدر عليه صفو حياته حتى أمر بنقله من مناظر الكبش إلى أحد الأبراج بقلعة الجبل[2] ، حين رفع إليه قصة كتب عليها بخطه « يحضر السلطان لمجلس الشرع الشريف[3] » ، إذ شق عليه ذلك واعتقد أنه بعمله هذا يرمى إلى الاستئثار ببعض النفوذ . وقد بلغ من تمادى السلطان فى التضييق عليه أن حال بينه وبين الاتصال برجالات الشعب[4] .

وقد ظل الخليفة المستكفى بالله معتقلا بالبرج الكبير بقلعة الجبل إلى أن شفع فيه بعض الأمراء ؛ فقبل السلطان شفاعتهم وسمح له بالعودة إلى مناظر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٧٣ ، مرعى المقدس : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ص ٢٤٦

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٥٣ ؛

(٣) مرعى المقدسى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ص ٢٤٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص القسم الثانى ص ٢٥١

الـكبش ؛ غير أنه مالبث أن أمر بنفيـه إلى قوص ، فسار اليها مع أولاده وحاشيته (سنة ٧٣٧ هـ) ورتب لهم السلطان كثيراً من المال [١] .

على أن إقصاء المستكفى بالله عن مقر الخلافة بالقاهرة . لم يحل دون ذكر اسمه فى الخطبة ، مع اسم الناصر محمد إلى أن توفى بقوص سنة ٧٤٠ هـ [٢] .

ومع أن المستكفى بالله كان قد عهد بالخلافة قبل وفاته لابنه احمد وأثبت ذلك عند قاضى قوص ، فان الناصر محمد عول على عدم توليته الخلافة لما كان يضمره لأبيه المستكفى الذى مال إلى جانب الملك المظفر بيبرس [٣] ، وأخبر القضاة عند اجتماعهم بدار العدل برغبته فى توليـة ابراهيم أخى المستكفى ، وطلب منهم مبايعته ، فحاولوا صرفه عنه لعدم أهليته ، ولما عرف عنه من سوء السيرة ، وقالوا له إن المستكفى عهد إلى ولده أحمد ، وأيدوا قولهم بالحكم الذى أصدره قاضى قوص . فكتب السلطان يستدعى الأمير احمد ، فلماقدم إلى القاهرة ، امتنع عن التوقيع على العهد الذى يتضمن بيعته ، ثم بعث فى طلب ابراهيم وأخبره بما اتصل بمسامعه من قبح سيرته . فأظهر التوبة وتعهد له أن يصلح حالته ويسلك طريق الخير فى أعماله . ومالبث هذا السلطان أن استدعى القضاة وأخبرهم أنه قد أقام ابراهيم فى الخلافة . فأخذ قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة يقنعه بعدم أهليته لها ، فلم يعر الناصر كلامه أى اهتمام وقال : « إنه قد تاب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وقد وليته فاشهدوا على بولايته » ، فلم يعارضه أحد وخطب [٤] له يوم الجمعة ٦

---

(١) ابن الوردى : ص ٣١٧ — ٣١٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٧ ، ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٦٩

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٣٨ (طبعة كاليفونيا)

(٤) ذكر المقدسى (نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ص ٢٤٨) أنه بعد أن ولى الناصر الخلافة لابراهيم استقر رأيه مع قاضى القضاة عز الدين ابن جماعة على ألا يخطب الخطباء لأحمد وابراهيم وأن يكتفى بذكر اسم السلطان فى الخطبة ، وزاد على ذلك فقال : « ومن هناك انقطعت الخطبة للخلفاء والدعاء لهم على كافة المنابر » . على أن هذا القول لا يستند إلى أساس من الصحة ، فقد ذكر المقريزى (السلوك =

ذى القعدة سنة ٧٤٠ هـ ولقب الواثق بالله [١] .

على أن الناصر محمد لما أحس بدنو أجله ، ندم على مبايعته ابرهيم بالخلافة وأوصى برد البيعة إلى احمد بن الخليفة المستكفى وولى عهده [٢] . وقد قام بتنفيذ هذه الوصية ابنه المنصور أبو بكر ؛ فعقد مجلسا على أثر توليته سلطنة مصر سنة ٧٤١ هـ ، دعا اليه الواثق بالله ابراهيم وولى العهد احمد بن المستكفى والقضاة ، ثم سألهم عمن يستحق الخلافة شرعا ، فقال عز الدين بن جماعة إن الخليفة المستكفى أوصى بالخلافة من بعده لابنه أحمد وأشهد عليه أربعين شاهداً بمدينة قوص ، وقد ثبت ذلك عندى بعد ثبوته على نائبى بمدينة قوص وكان لهذه الشهادة التى أدلى بها قاضى القضاة أثرها البالغ فى نفس السلطان ، فخلع الواثق وبايع الأمير أحمد ، ثم حذا حذوه القضاة ، فبايعوه ولقب بالحاكم بأمر الله [٣] .

وقد قال ابن فضل الله العمرى فى مبايعة بعض العباسيين بالخلافة فى القاهرة هذه الأبيات :

وطار منهم نحو مصر قشعم قد جاءها كما يجىء الطائر
قال أخى مستنصر ووالدى ووالده وهو الإمام الظاهر

= ج ٢ ص ٤٨٠ ا) عند كلامه على تولية ابراهيم الخلافة أن الخطباء ظلوا بديار مصر والشام نحو أربعة أشهر لايذكرون فى خطبتهم اسم الخليفة ؛ ثم زاد هذه المسألة وضوحا ، فقال إنه خطب للواثق فى يوم الجمعة ٦ ذى القعدة سنة ٧٤٠ هـ ، ومن ذلك يتبين لنا أن الخطباء صاروا لايدعون للخليفة على المنابر منذ وفاة المستكفى بالله فى أوائل شعبان سنة ٧٤٠هـ إلى أن ولى ابراهيم بن الخليفة الحاكم بأمر الله فى ذى القعدة من هذه السنة .

كذلك ورد فى القلقشندى (صبح الأعشى ج٣ ص ٢٦١) ما نصه : « وبايع الناصر بالخلافة الواثق بالله أبا اسحق ابراهيم بن الحاكم بأمر الله ، وأمر أن يدعى له على المنابر وتحمل له راية الخلافة ؛ فجرى الأمر على ذلك » .

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٨٥ ا

الديار بكرى : الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٨٢

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٦ ص ١٧٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩

فلقبوه مثله مستنصرا وذاك أن جد هذا الناصر
وكان منه الظاهر السلطان ذا خوف ومن بأسائه يحاذر
فبايعوا الحاكم بعد أن أتى وفر فالتفت به العشائر
وهو أبو العباس أحمد الرضى من ولد الراشد نجم زاهر
وقام مستكف كفاه ربه جميع ما يخاف ناه آمر
وبعده الواثق ابراهيم لا عاد ولا دارت له الدوائر
والحاكم الآن أمام عصرنا بشرى لنا إنا له نناصر (١)

ولما تمت مبايعة الحاكم بأمر الله عقد اجتماع بدار العدل فى أوائل سنة ٧٤٢ هـ فوض فيه الخليفة أمور السلطنة للملك المنصور أبى بكر بن الناصر محمد بن قلاوون . وقد حضر هذا الاجتماع القضاة والأمراء ، وجلس الخليفة على الدرجة العليا من التخت وعليه خلعة خضراء ، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالذهب ، وجلس السلطان دونه . ولما التأم عقد المجلس ، خطب الخليفة خطبة افتتحها بقوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وأوصى السلطان بالرفق بالرعية وإقامة الحق ، وإظهار شعائر الإسلام ونصرة الدين ثم قال : فوضت إليك جميع أحكام المسلمين وقلدتك جميع ما تقلدته من أمور الدين (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم) ، ثم ألبس الخليفة السلطان خلعة سوداء وقلده سيفاً عربياً ، وأخذ بعد ذلك القاضى علاء الدين بن فضل الله يتلو تفويض الخليفة للسلطان . ولما فرغ من قراءته ، تناوله الخليفة ، فكتب عليه « فوضت اليه ذلك » ووقع عليه باسمه ، كما كتب القضاة الأربعة شهاداتهم بتوليته السلطنة (٢) .

ومن ذلك نرى كيف عمل الملك المنصور أبو بكر على احترام الخليفة .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٤ — ٦٥
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٩١

بجلوسه دونه فى الاجتماع الذى فوض فيه اليه أمور السلطنة . وكان ذلك أكبر عامل بعث فى نفوس الشعب وجوب تعظيم الخليفة واحترامه بعد أن أعرض السلطان الناصر عن المستكفى وجعله شخصاً عاديا لا نفوذ له .

ومع أن الخلافة قد عادت اليها هيبتها بتولية الحاكم بأمر الله أحمد ، فإن هذا الخليفة لم يعمل على الإستئثار بأى نفوذ فى الدولة ، كما حرص على ألا يقف فى وجه السلطان ، بل لم يثبت لدينا أنه عمل فى نطاق عهد بيعته الذى جاء فيه [1] : « . . . . . . ولم يبق لكم على أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . . . ويقيم فروض الحج والجهاد ويقيم الرعايا بعدله الشامل فى مهاد . . . ويشمل بره سكان الحرمين الشريفين وسدنة بيت الله الحرام . . . ويقيم معونة قبور الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، وأنتم على تفاوت مقاديركم وديعة أمير المؤمنين ، وكلكم سواء فى الحق (عنده) وله عليكم أداء النصيحة وإبداء الطاعة . . . . »

على أن الحاكم بأمر الله ، وإن لم يكن له — كما قال أبو المحاسن [2] — من الخلافة إلا اسمها ، فقد ظل يدعى لمبايعة هؤلاء السلاطين الذين تعاقبوا على عرش السلطنة فى عهده ، كما اتخذه بعضهم سبيلا لحث جنده على نصرته ضد الخارجين عليه من أمرائه ؛ فقد سار السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون بصحبة الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد [3] والقضاة الأربعة وسائر الجند إلى بلاد الشام سنة ٧٥٣ هـ حين بلغه نبأ خروج بعض نوابها عليه ، وما لبث أن قضى على فتنتهم وعاد إلى القاهرة حيث احتفل باستقباله احتفالا باهرا [4] .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٩ — ٦٤

(٢) المنهل الصافى : جـ ١ ص ٧٤

(٣) ذكر ابن خلدون (جـ ٥ ص ٤٥٠) أن الخليفة المعتضد بالله أبا بكر بن المستكفى هو الذى صحب الملك الصالح صالح بن الناصر محمد فى الخروج إلى بلاد الشام ، وليس هذا صحيحا لأن الملك الصالح سار إلى تلك البلاد فى شعبان سنة ٧٥٣ هـ ، على حين أن المعتضد بالله لم يبايع بالخلافة إلا فى أوائل سنة ٧٥٤ هـ أى بعد وفاة الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد . (أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٧٨ ب — ٤٧٩ أ)

G. Wiet, Les Biographies du manhal Safi No. 161 p. 23.

(٤) ابن إياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ١٩٦ — ١٩٧

ولم يكن هناك نظام ثابت لتولية الخلفاء العباسيين فى مصر ؛ فكان أغلبهم يعهد لابنه بالخلافة ، كما فعل المستكفى ، غير أن الناصر محمد رأى من حقه أن يولى من يشاء ، ومن ثم أقام ابراهيم أخا المستكفى . ولما توفى الحاكم بأمر الله سنة ٧٥٤ هـ دون أن يعهد لأحد بالخلافة من بعده ، عقد الأمير شيخون العمرى الناصرى اجتماعا بحضرة السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد ، دعا إليه الأمراء والقضاة وبنى العباس المقيمين بمصر ؛ وبعد أن تناقشوا فيمن يولونه الخلافة ، وقع الاختيار على أبى بكر بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ولقب بالمعتضد بالله[1] .

ومع أن المعتضد ولى الخلافة فى وقت ساده استبداد الأمراء بشئون الدولة وتنافسهم على السلطة ، فلم يعرف عنه أنه حاول الاستئثار ببعض النفوذ ، بل ظل بعيداً عن المنازعات السياسية ، وأصبح من أهم أعماله مبايعة كل سلطان يلى حكم مصر ، ومنحه خلعة السلطنة التى كانت تعرف إذ ذاك « بالتشريف الخليفتى »[2] .

ولما توفى المعتضد سنة ٧٦٣ هـ آلت الخلافة إلى ابنه أبى عبد الله محمد بعهد منه وتلقب بالمتوكل على الله[3] ، وخلع عليه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد بن الملك المظفر حاجى ، كما فوض إليه الإشراف على المشهد النفيسى[4] .

وقد بدت فى عهد الخليفة المتوكل رغبة من بعض أمراء مصر فى الرجوع بالخلافة إلى عهدها الأول . وكان النزاع على السلطة فى مصر هو الذى أوحى

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٧٨ ب — ٤٧٩ ا ، الديار بكرى : الخميس فى أحوال أنفس نفيس جـ ٣ ص ٣٨٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٤٧ ، ١٧٤ — ١٧٥ (طبعة كاليفورنيا)

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ٣ ص ٤٧٩ ا
ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٧ ص ٧٨

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ٢٤٣

إليهم بإبراز هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ ، ذلك أن السلطان الملك الأشرف شعبان ، كان قد خرج مع الخليفة والقضاة الأربعة فى أبهة وزينة لأداء فريضة الحج سنة ٧٧٨ ﻫ (١٣٧٧ م) ، فلما وصل ركبه إلى العقبة ، حدث بينه وبين المماليك السلطانية خلاف بسبب المال الذى طلبوه منه(١) ، ثم بلغه بعد قليل أنهم دبروا مع بعض الأمراء مؤامرة لاغتياله ، وكان ذلك مما حمله على الاشتباك معهم ، غير أنه ما لبث أن هزم وهرب إلى القاهرة ، ومن ثم اتفق من بقى من الأمراء والمماليك بالعقبة على الاجتماع بالخليفة(٢) . ولما مثلوا بين يديه قالوا له : « يا أمير المؤمنين تسلطن ونحن بين يديك » ، فامتنع عن قبول السلطنة رغم إلحاحهم عليه وتجهيزهم الخلع الخاصة بها(٣) ، وقال : « بل اختاروا من شئتم وأنا أوليه » ورجع مع القضاة إلى مصر(٤) . ويرجع السبب فى رفضه السلطنة إلى أنه كان يعلم أن الفرصة لم تسنح بعد للعمل على استعادة نفوذ الخلافة ، كما أن الأفكار فى مصر لم تكن معدة للقضاء على نفوذ أسرة قلاوون ، ومما يؤيد ذلك الرأى أنه بينما كان الأمراء يعرضون السلطنة على المتوكل أثناء إقامته بالعقبة ، استقر الرأى فى مصر بعد قتل الأشرف شعبان على تولية ابنه الأمير على ، ثم بايعه بالسلطنة الخليفة المتوكل على أثر عودته من العقبة ، كما احتفل بعد ذلك بقراءة تقليده بإيوان قلعة الجبل ، وخلع على الخليفة(٥) .

وقد أحسن الخليفة المتوكل صنعاً بامتناعه عن قبول السلطنة لأن الأمور فى مصر لم تكن مستقرة بسبب تنافس الأمراء على الاستئثار بالنفوذ دون السلاطين الذين أصبحوا ألعوبة فى أيديهم ، ذلك أن الأمير أينبك البدرى

---

(١) Muir, The Mamelukeor Slave Dynasty of Egypt p. 101

(٢) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٣٣ (طبعة كاليفورنيا)

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٢٩٤ — ٢١٦ (طبعة كاليفورنيا)

ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٨

لم يلبث أن استبد بالسلطة على أثر تولية الملك المنصور على بن الأشرف شعبان عرش مصر ، وأصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة . وقد بلغ من ازدياد نفوذه أن استدعى الخليفة المتوكل على الله وطلب منه أن يقلد الأمير أحمد بن الأمير يلبغا العمرى السلطنة ، فاعتذر له بأن الأمير أحمد ليس من بيت الملك ، فحاول أينبك أن يثنيه عن عزمه بقوله : « إنما هو ابن السلطان حسن ، حملت به أمه ، فلما قتل السلطان ، أخذها الأمير يلبغا ، فولدته على فراشه » ؟ غير أن هذا الخليفة — رغم هذا التحايل — أبى أن يجيبه إلى طلبه ، فاستاء منه الأمير أينبك وعاب عليه انصرافه إلى اللعب بالحمام واقتناء الجوارى المغنيات والضرب بالعود ، كما نهره وأمر بنفيه إلى قوص ؛ فأخذ المتوكل يجهز نفسه للسفر ، ثم بعث الأمير أينبك فى طلب زكريا بن ابراهيم ابن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله ونصبه خليفة بدل المتوكل من غير مبايعة ولقبه المستعصم بالله ؛ غير أنه ما لبث أن عدل عن نفى المتوكل[١] ، ثم أعاده إلى كرسى الخلافة ، وخلع عليه السلطان كما جرت به العادة فى ذلك العصر[٢] .

ولم يكن الخليفة المتوكل زاهداً فى السلطنة ، بل كان يتحين الفرص لإحياء مجد الخلافة القديم . فلما حسن له بعض رجال الدولة طلب الملك بعد تقلص نفوذ سلاطين أسرة قلاوون وتقلد برقوق عرش السلطنة ، راسل الأمراء والعربان بمصر والشام والعراق ، وبث الدعاة فى البلاد الإسلامية ليحببوا إلى رعاياها الدخول فى طاعته[٣] ؛ هذا إلى أنه قد وصل إلى مسامع برقوق أن الخليفة المتوكل اتفق مع الأمير قرط بن عمر التركمانى ، وابراهيم ابن قطلوتمر العلائى وجماعة من الأكراد والتركمان على تدبير مؤامرة لاغتياله وتنصيبه سلطاناً بدله[٤] مما كان له أسوأ الأثر فى نفس برقوق ، فبعث فى طلب

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ١٠٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣٠١ ، الديار بكرى : الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٨٣

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٧ — ٦٨

(٤) المقريزى السلوك ج ٣ ص ١٤٢ ا

الخليفة المتوكل ومن انحاز إلى جانبه من الأمراء. ولما مثلوا بين يديه أخذ يسأل كلامنهم عما بلغه عنه، فقال قرط: «الخليفة طلبنى وقال (لى) إنى لم أقلد برقوقا السلطنة إلا غصباً. وقد أخذ أموال الناس بالباطل؛ وطلب منى أن أقوم معه وأنصر الحق. فأجبته إلى ذلك ووعدته بالمساعدة وأن أجمع له ثمانمائة فارس من الأكراد والتركمان وأقوم بأمره»، ثم وجه السلطان كلامه إلى الخليفة، فقال: ما قولك فى هذا؟. فرد عليه المتوكل بقوله: «ليس لما قاله صحة». فسأل السلطان الأمير ابراهيم بن قطلوتمر عن ذلك، فقال: «ما كنت حاضراً هذا الاتفاق. لكن الخليفة طلبنى إلى بيته بجزيرة الفيل وأعلمنى بهذا الكلام وقال لى: إن هذا مصلحة ورغبنى فى موافقته والقيام لله تعالى ونصرة الحق». فأنكر الخليفة ما قاله ابراهيم؛ واشتد حنق السلطان على المتوكل وسل السيف ليضرب به عنقه؛ غير أن سودون نائب السلطنة الذى كان حاضراً إذ ذاك سرعان ما حال بينه وبين الخليفة [1]، ومازال به حتى هدأ من غضبه، لكن السلطان — رغم ذلك — ظل ناقما عليه وعول على إقصائه عن الخلافة؛ فعزله وزجه فى السجن بقلعة الجبل، ثم وقع اختياره على عمر بن ابراهيم عم المتوكل، فولاه الخلافة وتلقب بالواثق بالله [2].

ولم يزل الأمراء يشفعون فى الخليفة المتوكل عند السلطان برقوق حتى أمر بفك قيده سنة ٧٨٥ هـ وسمح له بالإقامة بإحدى دور القلعة [3]. وظل الواثق بالله يلى أمور الخلافة إلى أن توفى سنة ٧٨٨ هـ، فتحدث بعض رجال الدولة مع برقوق فى إعادة المتوكل، لكنه أبى واستدعى زكريا ابن الخليفة المعتصم بالله ابراهيم وبايعه بالخلافة، ولقب بالمستعصم بالله وخلع عليه السلطان خلعة الخلافة، كما عهد اليه بالإشراف على المشهد النفيسى [4].

(١) ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر بأبناء العمر: ج ١ ورقة ٢٠٠

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣٧٣ — ٣٧٤

(٣) المقريزى: السلوك ج ٣ ص ١٥٦ ب — ١٥٧ ا

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣٨٢ — ٣٨٣

وقد أثار خلع المتوكل من الخلافة (١) كراهة بعض رجال الدولة للسلطان برقوق ، حتى أن يلبغا الناصرى نائب حلب خرج على طاعته واتخذ من عزله الخليفة سلاحا شهره ضده ، كما أذاع فى بلاد الشام ، ما ألحقه هذا السلطان من الإساءة للخليفة ، فنفرت القلوب منه(٢) ، وما زال نفوذ الأمير يلبغا فى ازدياد حتى كثر أتباعه واستولى على بعض القلاع والمدن فى البلاد الشامية .

ولما اشتد خطر يلبغا الناصرى وأوشكت عساكره على دخول مصر عول السلطان برقوق على إعادة المتوكل إلى الخلافة (٣) ، فاستدعاه لمقابلته . ولما مثل بين يديه قام له السلطان ورحب بلقائه ، واعتذر له عما وقع منه(٤) ثم بعث اليه بعشرة آلاف درهم وبعض الأقمشة الصوفية والحريرية . وبعد شهرين عقد السلطان اجتماعا حلف فيه القضاة كلا من المتوكل وبرقوق للآخر على الموالاة والمصالحة (٥) ، ثم خلع السلطان على الخليفة خلعة الرضى ، وأمر بأن تعاد اليه إقطاعاته ورواتبه ، كما أذن له فى النزول إلى داره وأخلى له بيتا بقلعة الجبل . وفى ١٢ جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ أقام برقوق بمشهد السيدة نفيسة احتفالا قرىء فيه تقليد المتوكل بحضور القضاة ونائب السلطنة (٦) .

على أن إعادة المتوكل إلى منصبه لم يكن لها أى أثر فى تهدئة الفتنة التى أثارها الأمير يلبغا الناصرى الذى دخل القاهرة على رأس جيش كبير وانضم اليه كثير من أتباع السلطان برقوق ، فاضطر هذا إلى الفرار من القلعة وظل مختفيا إلى أن قبض عليه وسجن بالكرك (٧) .

---

(١) ذكر أبو المحاسن (المنهل الصافى جـ ٣ ص ٩٢) أن خلع المتوكل من الخلافة ، كان من الأمور التى احتج بها يلبغا على برقوق لما خرج على طاعته .

(٢) الديار بكرى : الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، جـ ٢ ص ٣٨٣

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣٤٣

(٤) ابن إياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ٢٧٢

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ١٧٠ ا ، ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأنباء العمر جـ ٢ ورقة ٢٧٨

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الثانى ص ٣٩٨ ، ٤٠٣ — ٤٠٤

(٧) ابن إياس : تاريخ مصر جـ ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ ، ٢٧٦ — ٢٧٧

ولما استقر الأمر ليلبغا الناصرى بالقاهرة ، اجتمع بالخليفة والأمراء بقلعة الجبل [١] ، وقال للمتوكل : « يامولانا أمير المؤمنين ماضربت بسيفى هذا إلا فى نصرتك » ثم أخذ بعد ذلك يشاورهم فيمن يصلح لسلطنة مصر ، فأظهر المتوكل زهده فى الملك ، وأشار بإعادة الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان [٢] . أما الأمراء فقد ألح أكثرهم على الناصرى فى قبول السلطنة ، لكنه رفض وأيد أحقية الملك الصالح أمير حاج فى استعادة عرشه ومن ثم استدعاه الأمراء وأجلسوه على عرش السلطنة ولقب بالملك المنصور كما فوض اليه الخليفة المتوكل على الله النظر فى أمور رعاياه [٣] .

وكان سلاطين مصر رغم وثوقهم من ضعف سلطة الخلفاء العباسيين يحرصون على أن يمنحهم الخليفة تفويضا بالسلطنة ليكسبوا حكمهم صفة شرعية ، وفى ذلك يقول ابن شاهين [٤] (١٤١٠—١٤٦٨م) : لا يجوز أن يطلق على أحد لفظ سلطان إلا إذا بايعه الخليفة ، وأفتت بعض الأئمة أن من أقام نفسه سلطاناً قهراً بالسيف من غير مبايعة منه يكون خارجيا ولا يجوز توليته أحد من النواب والقضاة ، وإن فعل شىء من ذلك ، كان جميع حكمهم باطلا . »

وقد زاد على ذلك ابن شاهين فقال : « لا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر ، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأربعة أئمة ، ولم يكن لاهتمام السلاطين بأخذ تفويض من الخليفة العباسى بالقاهرة

---

(١) لم يشر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الثانى ص ٤١٨ ، إلى حضور الخليفة هذا الاجتماع .

(٢) ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء العمر جـ ١ ورقة ٧١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦٨

(٣) ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء العمر ، جـ ٢ ورقة (٢٧٨ — ٢٧٩) ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٨٦ أ

(٤) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٨٩

أى أثر فى خضوعهم له ، بل ظلوا محتفظين بمكانتهم ، وسلطتهم الزمنية . وقد أشار إلى ذلك القلقشندى [١] بقوله : « والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة . . . ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك . »

ولم تبد أية محاولة من سلاطين مصر للقضاء على نظام الخلافة ، بل ظل كل منهم يعنى بإقامة الخليفة ليلجأ إليه فى تأييد سلطته إذا ما حاول أى فرد أن ينتقصها أو أن يسلبه عرشه . وقد أدى هذا الأمر بعضهم إلى التدخل فى تولية الخلفاء وعزل من ينحرف عنهم ، كما أن الخلفاء أنفسهم لما رأوا أن السلاطين أصبحوا يعتمدون عليهم فى إكساب حكمهم صفة شرعية ، صاروا لا يولونهم إحترامهم ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل انحاز بعضهم إلى جانب الأمراء، كما فعل الخليفة المتوكل على الله مع الأمير يلبغا الناصرى الذى خرج على السلطان برقوق ، إذ سارع إلى مقابلته ورحب بقدومه إلى مصر ، وأشار عليه بإعادة الملك الصالح أمير حاج إلى السلطنة ؛ على أن هذا الخليفة سرعان ما عدل عن موقفه فجدد عهد السلطنة والتفويض للظاهر برقوق سنة ٧٩٢ هـ بعد عودته إلى القاهرة وشهد عليه بذلك القضاة [٢] .

ولم يكن الخلفاء العباسيون فى عهد أسرة قلاوون مطلق الحرية بل حيل بينهم وبين الاتصال برجال الدولة فى كثير من الأحيان ، كما ظلوا مسلوبى السلطة رغم اضمحلال نفوذ أبناء السلطان الناصر وحرص الشعب على التمسك بأهداب الخلافة .

ولم تكن مرتبات الخلفاء من الوفرة بحيث تساعدهم على الظهور بالمظهر اللائق بهم ، فقد خصصت لهم حكومة المماليك مبالغ معينة يأخذونها من

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الانشا جـ ٣ ص ٢٧٥

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ١٢١٠ ، ابن إياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ٢٨٩

المكوس المفروضة على الصاغة (١) ، كما كانوا يمنحون «رسم المبايعة» ومقداره ألف دينار (٢) ، وعهد إلى بعضهم الإشراف على مشهد السيدة نفيسة ليستعينوا بما يرد إلى ضريحها من النذور على تيسير سبل معيشتهم . فيذكر المقريزى (٣) أن الخليفة المعتضد بالله تحسنت حاله بما يبيعه من الشمع الذى كان يرد إلى المشهد النفيسى .

من ذلك نرى أن الخلفاء لم يكونوا فى أواخر عهد أسرة قلاوون فى سعة من العيش الأمر الذى اضطرهم إلى قبول أعمال لا تتناسب مع مركزهم ليهيئوا لأنفسهم موردا جديداً يدر عليهم المال . وكان يجدر بسلاطين مصر وأمرائها أن يمنحوا الخلفاء مرتبات تتفق وما لمركزهم الدينى من إكبار وإجلال .

على أن موقف سلاطين مصر من الخلفاء العباسيين فى القاهرة مالبث أن تبدل بعد زوال نفوذ أسرة قلاوون إذ عدل السلطان برقوق بعد خروج يلبغا الناصرى عليه عن سياسة العنف التى اتبعها إزاء الخليفة المتوكل وتغالى فى احترامه ، ولا أدل على ذلك مما أورده القلقشندى (٤) : «وكان المتوكل إذا حضر إلى مجلس السلطان برقوق قام له وربما مشى إليه خطوات ، وجلس على طرف المقعد وأجلس الخليفة إلى جانبه» ، كما احتفظ له بمكانة سامية فى الدولة ، فعينه حين أحس بدنو أجله ناظراً على الأوصياء الذين عهد إليهم بالوصاية على ابنه فرج (٥) ، وبذلك استعاد هذا الخليفة بعض ما كان له من كما علت مكانته وأصبح موضع احترام وإجلال رجال الدولة على اختلاف مراتبهم .

وكان الأمراء فى مصر يرون بقاء أبناء السلطان الناصر محمد فى السلطنة رغم ضعفهم وذلك تمشيا مع مصلحتهم الخاصة ، حتى يتيسر لهم الاستئثار

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٢٤٣
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثانى ص ٣٩٨
(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٤٣
(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٧
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الثالث ص ٥٩٦ (طبعة كاليفورنيا)

بالنفوذ دونهم . فلما انسلخ الحكم من بيت قلاوون بدأ فريق منهم يشعر أنه لم يعد من مصلحتهم إبقاء نظام الحكم فى مصر على ماهو عليه ، وخاصة أن السلطان برقوق لم يكن من بيت الملك ، ومن ثم دبرت المؤامرة التى أشرنا اليها للتخلص من هذا السلطان وتقليد الخليفة المتوكل عرش السلطنة .

على أن هذه المحاولة – رغم فشلها – أحيت فكرة إعادة مجد الخلافة القديم ، ذلك أنه لما سار السلطان الناصر فرج إلى بلاد الشام بصحبة الخليفة المستعين بالله بن المتوكل على الله لمحاربة الأمير نوروز الحافظى نائب طرابلس والأمير شيخ المحمودى نائب حلب ، اللذين خرجا على طاعته وحذفا اسمه من الخطبة بدمشق سنة ٨١٣ هـ ، ودارت بين الفريقين معركة باللجون ، انتهى الأمر فيها بهزيمة الناصر فرج وفراره بمن بقى معه من الجند إلى دمشق ، أشار كاتب السر فتح الله على الخليفة – أثناء إقامته باللجون – أن ينشر علمه الأسود إعلاناً بحمايته لهم . ثم قدم صاحب ديوان الأمير شيخ إلى المستعين بالله وسار به إلى الأمراء .

ولما بلغ الأميرين شيخ ونوروز أن السلطان الناصر فرج تحصن بدمشق بعثا فى طلب كاتب السر واستشاراه فيما يعملان ، فقال : « ما هكذا يقاتل السلطان !؟ » ، وعاب عليهما عدم الإنقياد إلى أحد الأمراء واختلاف كلمتهم ثم أشار عليهما بتقليد الخليفة عرش السلطنة ، وأيد وجهة نظره بأنه لن يتجاسر أحد على الخروج عليه ؛ غير أن الخليفة اشترط احتفاظه بالخلافة إذا خلع من السلطنة . فأجيب إلى طلبه وبايعه الأمراء وأقسموا أن يظلوا أوفياء له ، ونادى منادى الخليفة « ألا إن فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضر إلى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن » ، فانصرف الناس عن الناصر [١] ، وبعث أمير المؤمنين المستعين بالله إلى مصر رسالة تتضمن اجتماع كلمة الأمراء على تنصيبه سلطاناً ، وأنه خلع الناصر [٢] .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٢٧٢ ا — ٢٧٣ ب

وصارت كتب المستعين بالله تفتتح بهذه العبارة : «من عبد الله ووليه الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وابن عم سيد المرسلين المفترضة طاعته على الخلق أجمعين ، أعز الله ببقائه الدين (١) » .

وقد نظم الحافظ ابن حجر فى تولية المستعين بالله السلطنة قصيدة جاء فيها (٢) :

الملك أصبح ثابت الأساس	بالمستعين العادل العباسى
رجعت مكانة آل عم المصطفى	لمحلها من بعد طول تناسى
ثانى ربيع الآخر الميمون فى	يوم الثلاثاء حف بالأعراس
بقدوم مهدى الأنام أمينهم	مأمون غيب طاهر الأنفاس
. . . .	. . . .
ومناقب العباس لم تجمع سوى	لحفيده ملك الورى العباسى
لا تنكروا للمستعين رياسه	فى الملك من بعد الجحود الناسى

* * *

ولما تقلد المستعين بالله سلطنة مصر ، صار يدعى له فوق بئر زمزم كل ليلة ، وعلى منابر مكة والمدينة يوم الجمعة ؛ ولم يدع بهما لأحد من الخلفاء العباسيين بالقاهرة إلا للمستعين . وكان آخر من دعى له على منابر الحجاز من بنى العباس الخليفة المستعصم بالله ؛ فلما قتله هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ، أبطل الدعاء للعباسيين بالحرمين (٣) .

وكان لنبأ تقليد المستعين بالله عرش السلطنة رنة فرح وسرور فى مصر ؛ فلما قدم إلى القاهرة من بلاد الشام بعد مقتل الناصر فرج ، تلقاه الناس بظاهر الخفاوة ، وسار إلى قلعة الجبل وبين يديه الأمراء فى طريق مزين بمختلف الزينات ، ثم نزل بالقصر ولم يخلع على أحد عند قدومه كما جرت

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٧٥ ا
(٢) السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦٩ — ٧٠
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٠

عادة السلاطين بذلك ، وأقبل الناس إلى باب الأمير شيخ سعياً وراء الوظائف . ولم يكن للخليفة من يقوم بخدمته إلا حاشيته التى كانت معه قبل أن يعتلى عرش السلطنة[١] .

ولما استقر أمير المؤمنين المستعين بالله بقصره ، قدم إليه الأمير شيخ ومعه الأمراء ورجال الدولة ؛ فخلع الخليفة على الأمير شيخ خلعة بطراز عظيمة القيمة ، وفوض إليه الحكم بالديار المصرية ، كما سمح له أن يولى ويعزل دون أن يراجعه أو يشاوره فى ذلك[٢] .

على أن الأمير شيخ لم يلبث أن عمد إلى الاستئثار بالنفوذ ، فخلع على دواداره الأمير جقمق وعينه دوادارا للخليفة ، كما أسكنه بقلعة الجبل حتى لا يتمكن المستعين بالله من التوقيع على المراسيم ، إلا بحضور هذا الأمير ولا يتيسر لأحد الاجتماع به إلا وهو معه ؛ فاستاء الخليفة من ذلك[٣] .

ولم يكتف الأمير شيخ بتلك السلطة المطلقة التى منحها له الخليفة ، بل سرعان ما بدا له أن يتسلطن ويخلع المستعين بالله ؛ وقد ساعده على تحقيق رغبته فتح الله كاتب السر الذى قال فى مجلس ضم القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكبار رجال الدولة : إن الأحوال مضطربة ، ولم يعهد أهل مصر خليفة يتقلد السلطنة ، وأن الأمور لن تستقر إلا بتولية سلطان وفقاً للنظام الذى ساد فى تلك البلاد » ، ثم دعاهم إلى تنصيب الأمير شيخ ، فقال الأمير : « هذا أمر لا يتم إلا برضى أهل الحل والعقد » . فقال الأمراء : نحن راضون بالأمير الكبير[٤] » ، ثم مد قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن البلقينى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٧٥ ب

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٠

(٣) المقريزى : السلوك جـ٤ ص ٢٧٦ ا

(٤) لم يشر ابن إياس (جـ ١ ص ٢٥٨) إلى حديث فتح الله كاتب السر ؛ لكنه ذكر أن الأمير شيخ لما طمع فى السلطنة ، دعا القضاة الأربعة وسائر الأمراء إلى اجتماع ، وكتب محضراً أعلن فيه : « أن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا من الطاعة وكثر الفساد فى البر والبحر واضطربت الأحوال وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركى له سطوة ، يقمع أهل الفساد وتصلح الأحوال على يده »

يده وبايعه وحذا حذوه سائر الأمراء والقضاة .

ولما استقر الأمر للأمير شيخ بعث القضاة إلى الخليفة ليطلبوا منه أن يفوض إليه السلطنة ، فاجتمعوا به وسألوه أن يلبي هذه الرغبة ، لكنه أظهر تعنتا فى أول الأمر ، وامتنع عن إجابة طلبهم ثم اشترط لتنفيذ هذا الطلب أن يؤذن له فى النزول من القلعة إلى داره وأن يحلف له السلطان « بأن يناصحه سراً وجهراً ويكون سلما لمن سالمه ، حربا لمن حاربه » ولما وقف السلطان شيخ على رغبة الخليفة ، قال للقضاة « فليتمهل علينا أياما ، فالآن لا يمكن نزوله إلى بيته [١] » ، ثم نقله من القصر إلى إحدى دور القلعة ، ووكل به من يمنعه من الاجتماع بالناس [٢] .

وهكذا سُلب الخليفة سلطته الزمنية وأهمل شأنه وعاد نظام الحكم فى مصر إلى ما كان عليه فى عهد أسرة قلاوون ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى تهاون المستعين بالله فى حقوق السلطنة ، ومنحه سلطات واسعة للأمير نوروز ببلاد الشام والأمير شيخ بمصر الذى ما لبث أن استغلها لمصلحته وأغرى بعض رجال الدولة بالانحياز إلى جانبه ، ولو أن المستعين بالله استغل ترحيب الشعب به وتقديسه لشخصيته وقبض على زمام الأمور فى البلاد وأضعف من نفوذ الأمير شيخ لأصبح من الهين عليه استعادة نفوذ الخلافة ومجدها القديم ؛ لكنه بإطلاقه يد الأمير شيخ فى شئون الدولة أفقد الخلافة ما استردته من حقوقها فى عهده وأبقاها خاملة الذكر .

ولم تقف المحاولات التى دبرت لتقليد الخلفاء العباسيين بالقاهرة سلطنة مصر عند هذا الحد ، بل انضم القائم بأمر الله إلى الجند الذين خرجوا على طاعة الأشرف إينال طمعا فى الوصول إلى السلطنة . ولما حلت الهزيمة بالجند ، ولم ينل الخليفة من وراء انضمامه اليهم شيئا استدعاه السلطان إلى القلعة وعاتبه على موقفه العدائى نحوه . فقال له الخليفة : « خلعت نفسى

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٢٧٨ ا — ٢٧٨ ب

(٢) السيوطى : حسن المحاضره ج ٢ ص ٧٠

وعزلتك ، ولما علم بذلك قاضى القضاة علم الدين البلقينى — وكان حريصا على نقل الخلافة إلى يوسف أخى الخليفة لكونه زوج ابنته — قال : قد بدأ بخلع نفسه فانخلع وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ عزله ، ثم حكم بصحة خلعه من الخلافة سنة ٨٥٩ هـ ، وبايع أخاه أبا المحاسن يوسف .(١)

٢ — موقف العالم الإسلامى من الخلافة العباسية بمصر

كان للخلفاء العباسيين فى القاهرة مكانة سامية فى نفوس كثير من الحكام المسلمين. فلما تبين لمحمد بن تغلق(٢) ملك هندستان أنه ليس هناك ملك أو أمير يستطيع استخدام حقه الشرعى بدون تفويض من الخليفة العباسى ، شرع فى استقصاء أخبار بنى العباس من الرحالة(٣) وما لبث أن وجد ضالته المنشودة بمصر . فتبادل الرسائل مع الخليفة العباسى المستكفى بالله وطلب منه تقليداً .

وقد بالغ محمد بن تغلق فى احترام هذا التقليد وبعث إلى الخليفة بالهدايا ، كما أمر بذكر اسمه فى الخطبة(٤) ، وقرر أن يقال — عند الدعاء للملوك فى الخطبة — إنهم يحكمون بتفويض من الخليفة ، كما حذف من الخطبة أسماء الملوك الذين لم ينالوا تفويضاً ، وألغى تلقيب الملوك بلقب متغلب(٥) .

كذلك أصدر محمد بن تغلق أوامره بنقش اسم الخليفة العباسى على السكة مقروناً بكثير من المدائح(٦) ، وظل اسم المستكفى رغم وفاته سنة ١٣٤٠ م ينقش على عملته إلى سنة ١٣٤٣ م مصحوبا بهذا الدعاء : « أطال الله بقاء الخليفة »(٧)

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧١ — ٧٢

(٢) كان أبوه السلطان غياث الدين تغلق شاه من الأتراك المعروفين بالقرونة الذين يقطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك

ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار جـ ٢ ص ٣٠ — ٣١

(٣) Eliot The History of India. vol III p.642

(٤) Arnold, The Caliphate—p. 104.

(٥) Eliot, The History of India. vol III, p. 250.

(٦) Eliot, The History of India vol III, p. 249.

(٧) Arnold, The Caliphate, p. 105.

وكان من أثر حرص محمد بن تغلق على إظهار ولائه للخليفه العباسى فى القاهرة أن أرسل إليه الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله خلعة مع سفيره حاجى سعيد صرصرى (Haji Sa'id Sarsari) . ولما قدم هذا السفير إلى دلهى سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) خرج إليه السلطان بصحبة النبلاء وقابله بمظاهر الحفاوة والاحترام[١] ، ثم تقدمه فى السير عارى القدمين مسافة غلوة سهم مبالغة منه فى احترامه ؛ وما لبث محمد بن تغلق أن بعث إلى الخليفة كتابا ينبئه فيه بتبعيته له . وظل يتبادل معه الرسائل مدة عامين حتى أنفذ إليه الحاكم بأمر الله تقليداً بالحكم[٢] .

وقد بلغ من تعلق السلطان محمد بن تغلق بأهداب العباسيين وإجلاله إياهم أن الأمير غياث الدين محمد سليل الخلفاء[٣] لما اتصل بمسامعه عطف هذا السلطان على العباسيين وقيامه بدعوتهم رغب فى القدوم عليه وبعث له برسولين ليتحدثا معـــه فى ذلك ؛ فأكرم محمد بن تغلق وفادتهما ومنحهما خمسة آلاف دينار ، كما بعث معهما بثلاثين ألف دينار ليتزود بها الأمير علاء الدين فى رحيله ، وكتب إليه خطابا بخط يده ، يعظمه فيه ويسأله القدوم عليه ، ثم بعث الأمراء لاستقباله بمسعود أباد ، كما خرج هو بنفسه لهذا الغرض . فلما التقيا ترجل كل منهما للآخر ، وتغالى السلطان فى احترامه ؛ فأمسك بركاب جواده حتى ركب ، ثم ركب بعده ، وسار إلى جانبه ، وتحدثا سويا ؛ ومما قاله محمد بن تغلق للأمير غياث الدين : « لولا أنى

---

(١) Allan, Cambridge shorter History of India p. 240.

(٢) Eliot, The History of India vol III p. 249-250

(٣) كان الأمير غياث الدين محمد بن عبدالقاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر قد وفد على السلطان علاء الدين ترمشيرين ملك بلاد ما وراء النهر ، فأكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر قثم بن العباس وظل تحت حمايته إلى أن سمح له محمد بن تغلق بالقدوم عليه .

ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ٤٥

Allan, Cambridge Shorter History of India p. 237.

بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك » ، فقال له غياث الدين : « وأنا أيضا على تلك البيعة » ، ثم قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أحيا أرضا مواتا فهى له) ، وأنت أحييتنا » ، فتلطف السلطان فى التحدث معه وظل موضع عنايته واحترامه حتى أنزله بدار الخلافة فى القصر الذى بناه علاء الدين الخلجى وابنه قطب الدين ، وأعد له فيه ما يحتاج إليه من أوانى الذهب والفضة ، وبعث إليه بعض الفتيان والخدم والجوارى ، كما خصص ثلاثمائة دينار كل يوم لنفقاته ، وأقطع له مدينة سيرى Siri وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين وأعطاه مائة قرية ، وعهد إليه حكم البلاد الشرقية المضافة لدلهى ، وأمر الناس جميعا أن يكونوا فى خدمته كما هم فى خدمة السلطان[١] .

كذلك حذا فيروز شاه Firúz Shah سلطان هندستان (١٣٥١ – ١٣٨٨م) حذو محمد بن تغلق فى الحرص على الالتجاء إلى الخليفة العباسى بالقاهرة لإكساب حكمه صفة شرعية . فأرسل إلى المعتضد بالله يطلب منه تفويضا بالحكم . فأجاب الخليفة طلبه وبعث إليه بخلعة مماثلة للخلعة التى أرسلت لمحمد ابن تغلق وخطابا يتضمن كثيراً من عبارات المجاملة والاحترام ، كما أرسل إليه تقليداً بالحكم وذلك سنة ١٣٥٦ م[٢] .

وقد تحدث فيروز شاه فى ترجمة حياته التى كتبها عن وجهة نظره فى إذعانه للخليفة العباسى بالقاهرة[٣] فقال : « كان من أعظم ما نلته من رحمة الله . أنه بفضل طاعتى وتقواى وصداقتى للخليفة ممثل النبى ، توطدت سلطتى . فبتأييده تحمى سلطة الملوك ، ولا يصبح أى ملك آمنا على ملكه إلا بعد أن يذعن للخليفة وينال تثبيتا من العرش المقدس . وقد أرسل الخليفة عهداً

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ ٢ ص ٤٥ — ٤٦

(٢) Eliot, The History of India vol III pp. 342. 343

Allan, The Combridge shorter History of India p. 246.

(٣) Arnold, The caliphate. p. 105.

بتثبيت سلطتى كنائب له ومرشد للمؤمنين . وإنى لفخور بأن يلقبنى الخليفة بسيد السلاطين ، كذلك أنعم على بخلع ولواء وسيف وخاتم . وهذه كلها تمثل شعار الشرف »[١] .

ولم يكن ملوك هندستان هم الذين لجأوا وحدهم دون غيرهم من ملوك الهند إلى الخليفة العباسى بالقاهرة لتأييد حكمهم ، بل حقق المعتضد بالله ابن المستكفى بالله رغبة باهمان شاه Bahman Shah ، ملك بلاد الدكن ؛ فاعترف به ملكا على تلك البلاد سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٦ م)[٢] ، كما لبى المعتضد بالله داود بن المتوكل على الله طلب السلطان جلال الدين أبى المظفر محمد شاه بن فندو[٣] ملك بنغاله Bengal — الذى عمل على نشر شعائر الإسلام فى مملكته وأرغم عدداً كبيراً من الهندوس على اعتناق هذا الدين[٤] — فبعث إليه تفويضاً وخلعه . وقد سر السلطان جلال الدين بالخلعة التى منحها له الخليفة وأنفذ إليه هدية جليلة سنة ٨٣٤ هـ[٥] .

كذلك وجد بعض الأمراء المسلمين فى الخليفة العباسى بالقاهرة ضالتهم المنشودة لمنحهم تفويضاً شرعياً بالحكم فى ولاياتهم التى استولوا عليها بالخديعة أو القوة . ومن هؤلاء مبارز الدين محمد بن مظفر ، مؤسس الدولة المظفرية فى جنوب فارس (١٣١٣ — ١٣٩٣ م) الذى أعرض عن تحالفه مع ايلخان المغول وشرع فى القيام بالفتح ، وأقسم يمين الطاعة للخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٤ م . كما أمر بذكر اسم هذا الخليفة فى الخطبة بعد استيلائه على تبريز سنة ١٣٥٧ م . ولما خلفه ابنه شاه شجاع Shah Shujá ، حذا حذوه فى

(١) Eliot, The History of India vol III, p. 387.

(٢) Allan, The cambridge shorter History of India p.246

(٣) Wiet, Les Biographies du manhal safi. No.2312 p. 346.

(٤) Allan, The Cambridge shorter History of India' p. 271.

Arnold, The Preaching of Islam, p. 278.

(٥) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٤١ ب

ولائه وتودده للخليفة العباسى بالقاهرة ، فاعترف بخلافة المتوكل على الله سنة ١٣٦٩ م[١] .

ولم يكن للخليفة العباسى فى مصر نفوذ على جميع ممالك العالم الإسلامى ، كما أهمل ذكر اسمه على كثير من منابر البلاد الإسلامية ، وخاصة مكة والمدينة رغم خضوعهما لسلطان المماليك ؛ اللهم إذا استثنينا الخليفة المستعين بالله الذى بويع له بالسلطنة والخلافة معا . ولعل السبب فى ذلك راجع إلى اختلاف وجهة نظر المسلمين فى الخلافة العباسية التى أحياها السلطان الملك الظاهر بيبرس فى مصر ؛ فبينما اعتقد بعضهم أنه لا يزال هناك خليفة له الرئاسة على جميع المسلمين ، سخر فريق آخر من ادعاءات الخليفة العباسى بالقاهرة ، كما شك البعض فى نسبهم ولم يوافقوا على ادعائهم أنهم من نسل خلفاء بغداد ، وأحيي آخرون النظرية التى يقول أصحابها إن الخلافة لم تدم إلا ثلاثين سنة . وقد وردت هذه العقيدة فى الأحاديث النبوية[٢] ، فروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال[٣] : « الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » .

وقد تأثر بعض الحكام المسلمين بهذه الآراء المتباينة عن الخلافة العباسية فى مصر ، ومن ثم لم يطمئنوا إليها ، كما لم يروا ثمة ما يحملهم على الالتجاء إلى الخلفاء العباسيين بالقاهرة للحصول على تفويض شرعى بالحكم . ومن هؤلاء غازان محمود سلطان المغول فى فارس (١٢٩٥ — ١٣٠٥ م) الذى رأى أنه بحاجة إلى تفويض من الخليفة العباسى بالقاهرة ، وأن مقامه لن يعلو بانتحاله لقب الخلافة ، وبناء على هذا الاعتقاد ، أصبح يدعى له فى الخطبة بعد فتحه دمشق بألقاب « السلطان الأعظم وسلطان الإسلام والمسلمين » .

ولما تحول المغول إلى الإسلام ، وحلت الشريعة الإسلامية عندهم محل

---

(١) Arnold, The Caliphate, p. 102-103.

(٢) Arnold, The Caliphate p. 107.

(٣) كنز العمال : ج ٣ ص ٢٠٥ رقم ٣١٥٢

اليَساق ، توقف ملوكهم الأتقياء عن الافتخار بأنهم من نسل جنكيزخان ؛ لكنهم مع ذلك لم يلجئوا إلى خليفة عباسى — لا يعتد به — لحمل رعاياهم على وجوب طاعتهم .

وقد ظل بعض الأمراء المسلمين يتلقبون بلقب خليفة منذ سقوط الدولة العباسية سنة ١٢٥٨ م . ومن هؤلاء أبو عبدالله محمد الحفصى (١٢٤٩ — ١٢٧٧م) وكان أبوه يحيى حاكما على تونس من قبل سلطان الموحدين ، وما لبث أن استقل بها ، لكنه استنكف أن يتلقب بلقب سيده أمير المؤمنين ؛ غير أن ابنه كان أجرأ منه ، فلم يكتف بأن يتلقب بلقب أمير المؤمنين ، بل اتخذ أيضا لقب خليفة وإمام ، وسواء أكان قد تلقب بهذه الألقاب قبيل أو بعد سقوط بغداد سنة ١٢٥٨ م . فإنه أقدم على هذا العمل بإيعاز من شريف مكة . وظل خلفاؤه ينتحلون هذه الألقاب ؛ كما أن أمير الموحدين أباعنان فارس المرينى (١٣٤٨ — ١٣٥٨ م) تلقب بأمير المؤمنين . وقد نعته ابن بطوطة بهذا اللقب . فقال عند كلامه على وصوله إلى القاهرة بعد أدائه فريضة الحج سنة ٧٤٩ هـ (١) ، وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان — أيده الله تعالى — قد ضم الله به نشر الدولة المرينية ، وشفى ببركته بعد اشفائها البلاد المغربية . ، كما لقبه أيضا بلقب خليفة وإمام وظل الله على الأرض (٢) .

كذلك نجد فى الهند أن السلطان علاء الدين الخلجى (١٢٩٦ — ١٣١٦ م) صاحب دلهى ، يلقبه كاتب سيرته الشاعر أمير خسرو بلقب : « خليفة عصره » و « ظل الرحيم بالبشر » و « الإمام المعظم » ، أما ابن هذا السلطان قطب الدين مبارك شاه (١٣١٦ — ١٣٢٠ م) ، فقد نقش اسمه على بعض عملته مقرونا بلقب « الإمام المعظم » و « خليفة الله » (٣) .

---

(١) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ ٢ ص ١٧٨

(٢) Arnold, The Caliphate, pp 110-111,115-116

(٣) Arnold, The Caliphate, pp. 116-117.

وصفوة القول أن لفظ خليفة ، قد تحول عن معناه الأصلى ، فغدا بعض أمراء المسلمين يطلقونه على أنفسهم رغم وجود خليفة عباسى بالقاهرة . ومما حملهم على ذلك اعتزازهم بأنفسهم وسخريتهم من هذا الخليفة الذى أصبح مهيض الجانب ، عاجزاً عن أداء مهام الخلافة (١) التى تنحصر فى النيابة عن النبى فى حماية الدين والقيام بأمور المسلمين .

(١) مقدمة ابن خلدون . ص ١٥٩

الفصل الرابع

سياسة أسرة قلاوون فى نشر الاسلام بمصر

تمهيد — لم تعمل الحكومة الاسلامية فى مصر على التدخل فى شعائر أهل الذمة، بل أطلقت لهم الحرية الدينية وأسندت اليهم كثيراً من الوظائف (١). وظلوا على هذه الحال حتى نقلت دواوين مصر إلى العربية بعد أن كانت تكتب باليونانية والقبطية؛ فصرف أهل الذمة تبعا لذلك عن الأعمال الحكومية وانتقلت مناصبهم إلى أيدى المسلمين من العرب. وتجلت هذه الظاهرة بوضوح فى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أمر بألا تسند المناصب الإدارية فى مصر لغير المسلمين (٢)، مما حمل كثيراً من أهل الذمة على الدخول فى الإسلام وتعلم اللغة العربية حتى يتيسر لهم الإشتغال بالوظائف المدنية. وأخذ المسلمون منذ ذلك الوقت فى الازدياد حتى أصبحت مصر فى بداية القرن الثالث الهجرى دولة إسلامية (٣).

وقد رأى بعض خلفاء العصر الفاطمى الأول بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب شيعى خالفوا به جمهور المسلمين أنهم بحاجة إلى من يعاونهم فى تثبيت سلطانهم. فقربوا اليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيرا من التسامح؛ غير أن تلك السياسة مالبث أن نبذها الحاكم بأمر الله. فألزم أهل الذمة بلبس أزياء خاصة وأشتد فى معاملتهم حتى اضطر كثير منهم إلى اعتناق الإسلام (٤).

---

(١) تعريب أبو ريده ص٦٧، ٨٣) Mez Die Renaissance Des Islams.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢١٠ ، ٢٣٨

(٣) Stanlay Lane-poole, A History of Egypt in The Middle ages p. 38

(٤) (تعريب أبو ريده ص ٩٣ — ٩٤) Mez, Die Renaissance Des Islams

وقد استغل أهل الذمة عطف الحكومة الفاطمية عليهم بعد وفاة الحاكم فعمدوا إلى استعادة نفوذهم ؛ ولم يكتفوا بذلك بل تفننوا فى إلحاق الأذى بالمسلمين وامتدت أيديهم إلى أملاكهم فى خلافة الآمر بأحكام الله الفاطمى ؛ غير أن الوزير أبا على بن الأفضل ما لبث أن أدركته الحمية الإسلامية ، فأعاد إلى المسلمين أملاكهم وألزم أهل الذمة بلبس الغيار ، كما أمر ألا يولوا شيئاً من أعمال المسلمين(١) .

كذلك كان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر يحرص على إقصاء أهل الذمة عن الدواوين ، لكنه لم يسر فى تلك السياسة إلى نهايتها لانشغاله بدرء خطر الصليبيين عن دولته . يقول النويرى(٢) نقلا عن محمد ابن عبد الرحمن بن محمد الكاتب صاحب كتاب الدر الثمين فى مناقب المسلمين ومثالث المشركين : « وأمر (صلاح الدين) بصرف الذمة وأن لا يتصرفوا ما بقيت هذه الأمة . . . وشغله النظر فى مصالح الإسلام عن تتميم هذا الاهتمام » . ولم يحاول أهل الذمة بعد وفاة صلاح الدين أن يستعيدوا نفوذهم بل ظلوا خاملى الذكر طوال العهد الأيوبى .

لما استقر الأمر للماليك فى مصر ، عاد أهل الذمة إلى إثارة الفتن والمناوشات ، فرأى السلطان الملك الظاهر بيبرس أن يأخذهم بالشدة (٣) ، كما ألزموا بلبس أزياء خاصة وحل بهم الذل والهوان ، حتى أصبح محظورا على النصرانى فى عهد قلاوون أن يتحدث مع مسلم وهو راكب(٤) .

وكان النصارى يتحينون الفرص لاستعادة مكانتهم فى البلاد ، فلم يكد الأمراء الخاصكية يستعينون بكتابهم حتى تعالوا على المسلمين وأدى الأمر ببعضهم إلى التطاول عليهم مما حمل السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٦٩ — ٣٧٠

(٢) نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٠ ا

(٣) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٦٥ — ١٦٦

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٤٩٧

على أن يصدر أوامره بأن ينادى فى القاهرة ومصر ألا يستخدم أمير فى ديوانه أحدا من النصارى أو اليهود ، كما طلب من الأمراء أن يعرضوا على كتاب النصارى الدخول فى الإسلام ، فإذا أسلم أحدهم احتفظوا به عندهم ، ومن امتنع منهم عن اعتناق هذا الدين كان جزاؤه القتل . وكان لهذه السياسة أثرها فى دخول كثير منهم فى الإسلام ، وصار الذليل منهم باعتناقه هذا الدين عزيزاً ، كما يقول المقريزى[١] .

وعلى الرغم مما حاق بالنصارى من الاضطهاد فى عهد المماليك ، فإن كثيرا منهم تمكن من جمع ثروة عظيمة ، كما أسرفوا فى البذخ والترف حتى إن أبا الفوارس المتوكل وزير سلطان مراكش لما قدم على القاهرة سنة ٧٠٠ هـ فى طريقه إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج ، وشاهد بجانب القلعة رجلا ممتطيا فرسا وحوله فريق من الناس يقبلون رجليه وهو معرض عنهم ، سأل عنه ؛ فلما قيل له إنه نصرانى شق عليه ذلك وتحدث إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فيما يقاسيه النصارى واليهود فى بلاده ، من الذلة والهوان ، كما أظهر استياءه من إسناد المناصب الهامة فى مصر لبعض أفراد هاتين الطائفتين[٢] ، وقال : « كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض وتذل المسلمين وتمشيهم فى خدمتهم » .

وقد صادف اعتراض وزير مراكش على مسلك النصارى فى مصر قبولا من رجال الدولة ؛ فاستقر رأيهم على عقد مجلس يضم الحكام والقضاة والفقهاء ، ودعى بطرك النصارى وجماعة من الأساقفة وديان اليهود لحضور هذا الاجتماع . ولما التأم عقد المجلس سئل النصارى واليهود عما أقروا عليه فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عقد الذمة ، فلم يحركوا ساكنا ؛ ثم استقر رأى العلماء والفقهاء على أن يُميز النصارى بلبس العمائم الزرق ،

---

(١) خطط : ج ٢ ص ٤٩٧ — ٤٩٨

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٧٧

واليهود بلبس العمائم الصفر ، وتميز نساء كل ملة بعلامة ، وأن يمنعوا ركوب الخيل والبغال ، كما ألزموا باتباع الشروط التى أقرها عمر بن الخطاب على أهل الذمة[١] . وإليك بيانها[٢] : « شرطنا على أنفسنا ألا نحدث فى مدننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة . . . ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان فى خطط المسلمين ، وأن نوسع أبوابها للمارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نأوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى دين الإسلام إن أرادوا ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم فى مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ، ولا نتسمى بأسمائهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد بالسيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ، وأن نجز مقادم رؤوسنا ، ونلزم ديننا حيث كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر صلباننا ، ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا . . . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران فى طريق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع عليهم فى منازلهم ، ولا تعلو منازلنا على منازلهم » .

كذلك أصدر السلطان أوامر تتضمن عدم استخدام أحد من النصارى أو اليهود بالدواوين ، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم ، وهدد من يخالف هذه التعليمات بسفك دمه .

ولما وصل إلى الاسكندرية نبأ المرسوم الذى حد فيه الناصر من حرية أهل الذمة ، سارع سكانها من المسلمين إلى تخريب كنيستين . واستندوا فى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩١٠ — ٩١١

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٣٠ ب ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٥٧ — ٣٥٩

ذلك إلى أنهما قد بنيتا فى العهد الإسلامى ، ولم يكتفوا بذلك ، بل صاروا يهدمون دور الذميين التى تعلو عن دور المسلمين[1] .

ولما اشتد الحال بالذميين وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، اضطر كثير منهم إلى الدخول فى الإسلام حرصا على الاحتفاظ بمراكزهم وأنفة من لبس العمائم الزرق وركوب الحمير[2] .

على أن السلطان الناصر محمد ما لبث أن تغاضى عن تنفيذ الشروط التى ألزم أهل الذمة باتباعها ، وساواهم بالمسلمين ، كما سمح بفتح بعض الكنائس بعد أن ظلت مغلقة نحواً من سنة .

لكن وقع حادث لم يكن فى الحسبان ، ذلك أن المسيحيين استعاروا بسطا ومصابيح من بعض المساجد للاحتفال بأحد أعيادهم ، فهجم بعض المسلمين على المسيحيين وهم يتعبدون وخربوا كنيستهم[3] . ولما علم السلطان الناصر بذلك ، هدد المعتدين بتوقيع أشد العقوبات عليهم . فوضع الفريقان المنازعات التى كانت بينهما جانبا فترة من الزمن ، ثم لم يلبثا أن عادا سيرتهما الأولى ؛ فهدم المسلمون فى مصر ما يقرب من ستين كنيسة .

ولما رأى المسيحيون ما حل بكنائسهم من الدمار ، أخذوا يشعلون النيران فى بعض الأماكن العامة والمساجد ؛ وتوالى لهيبها فى سنة ٧٢١ هـ ، حتى كانت ليلة الحادى والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة[4] ؛ إذ تقابل بعض المصريين براهبين عند خروجهما من المدرسة الكهارية ، بعد أن أشعلا فيها النار ، فقبض عليهما وجىء بهما إلى علم الدين سنجر والى القاهرة . ولما تحقق هذا الوالى من ارتكابهما جريمة إشعال النار فى الأماكن العامة ، قدمهما إلى السلطان ، ثم حدث فى تلك الأثناء أن قبض العامة على

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٤

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٩١١

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p 74.

(٤) ذكر المقريزى (خطط جـ ٢ ص ٤١) أن هذه المدرسة كانت بالدرب المعروف بذلك الاسم وموقعه بجوار حارة الجودرية والقاهين .

نصرانى وهو خارج من جامع الظاهر بيبرس ، وبيده نفط وقطران . وقد اعترف هذا الرجل أن جماعة من النصارى عملوا النفط ووزعوه على فريق منهم ليشعلوا به النيران فى أحياء المسلمين ، كما أقر الراهبان أنهما أشعلا النار نكاية فى المسلمين الذين هدموا كنائسهم (١) .

ولما وصل إلى مسامع السلطان نبأ حوادث الحريق التى ارتكبها النصارى بعث فى طلب البطرك ، فلبى دعوته واعتذر لكريم الدين ناظر خاص الناصر عما اقترفه بعض أفراد طائفته من الجرائم وقال له : « إنهم فعلوا كما فعل سفهاؤكم بالكنائس من غير إذن السلطان » .

غير أن العامة لم ترض بموقف الناصر من طائفة النصارى ؛ فصاحوا جميعا عند خروجه من القلعة : « نصرالله الإسلام ، انصر دين محمد بن عبدالله» ولم يكتفوا بذلك ، بل إنهم حين رأوا كريم الدين ناظر الخاص ، ثاروا فى وجهه ، واتهموه بممالأة النصارى ، وأخذوا يوجهون اليه بعض عبارات تنم عن كراهتهم له واحتقارهم إياه ، كما صاروا يرجمونه بالحجارة ، فاضطر كريم الدين إلى الرجوع من حيث أتى ، ثم شاور الأمراء فى هذا الشغب الذى أثاره العامة ، فأشار عليه الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك بعزل كتاب النصارى من وظائفهم لتهدأ ثائرة العامة ، غير أن هذه الرغبة لم تلق قبولا منه ، وطلب من ألماس الحاجب أن يخرج مع أربعة من الأمراء ليقضى على العناصر التى أثارت الشغب ، كما أصدر أوامره إلى والى القاهرة ، بأن يتعقب العامة . فقبض على نحو المائتين منهم ، وأرسلهم إلى السلطان الذى عول على توقيع أشد العقوبات عليهم ؛ لكنه اضطر أخيراً إلى العدول عن ذلك وأمر باستخدامهم فى أعمال الحفر بالجيزة (٢) .

ولم يكد الناصر محمد ينتهى من تهدئة ثورة العامة حتى وصل إليه نبأ

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ (القسم الأول) ص ٢٣٠ — ٢٣١
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ (القسم الأول) ص ٢٣٢ — ٢٣٣

اشتعال بعض الحرائق فى نواحى جامع أحمد بن طولون والقلعة وفندق طرنطاى ؛ مما حمل العامة على العودة إلى المطالبة بوضع حدلعبث النصارى ؛ فخرج منهم قرابة عشرين ألف رجل ، تجمعوا فى طريق السلطان رافعين خرقا مصبوغة باللونين الأزرق والأصفر ، ونقش على الأزرق منها صلبان بيضاء وصاحوا عند مروره صيحة واحدة : « لادين إلا دين الإسلام ، نصر الله دين محمد بن عبد الله ، يامللك الناصر ، ياسلطان الإسلام ، انصرنا على أهل الكفر ، ولا تنصر النصارى . » ؛ على أن السلطان قد عمل على مداراتهم خشية ازدياد نار الفتنة ، وأمر الحاجب بأن ينادى فيهم « من وجد نصرانيا راكبا حل دمه » ، وألزم النصارى بلبس الثياب الزرق مضافة إلى العمائم ، وأن يشدوا الزنانير فوق ثيابهم ، كما أمر أن تضاعف عليهم الجزية ، وألا يستخدم نصرانى فى دواوينه ودواوين الأمراء ، وكتب بذلك منشور ، تلى على المنابر . وقد جاء فيه [1] : « بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله مظهر هذا الدين المحمدى على كل دين ومؤيدنا الإسلام وأهله . . . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة خالصة باليقين ، ونشهد أن سيد البشر محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين ، وخاتم الأنبياء الذين أرسلهم إلى العالمين ، وأن عيسى بن مريم عبده ورسوله الذى بشر ببعثه وآمن برسالته قبل ظهور دينه المبين . . .

« أما بعد ، فان الله تعالى ، لما أقامنا لنصر الاسلام وأهله ، لم نزل نعلى كلمة الإيمان ونظهر شعائر الإسلام فى كل مكان . . . وكان جماعة من مفسدى النصارى قد تعدوا وطمعوا وتمادوا فى المخالفة ، وبغوا ومكروا مكراً كباراً فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، فيقضى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف فى كل قضية ونجدد عليهم العهود العمرية وأن نقرر على من شمله عفونا ممن ضعف منهم الجزية . . . فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الناصرى لا زال ناصراً للدين بجوده

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٧

أن تستقر الجزية على سائر النصارى بالوجه القبلى ضعف ماعليهم الآن . . . وأن تلبس سائر النصارى عمائم (زرقاوجبابا زرقا) ويشدالزنار فىأوساطهم وألا يستخدم أحد من النصارى فى جهة من الجهات الديوانية والأشغال السلطانية ، وكذلك لا يستخدم أحد من الأمراء أحداً من النصارى عنده ، وأن يبطلوا جميعاً من الجهات التى كانوا يخدمون بها ، والحذر ثم الحذر من أن أحداً منهم يخرج عما رسمنا به ، ومن فعل ذلك منهم كانت روحه قبالة ذلك ، ولا تنفعه بعدها فدية ، ولا جزية . . . وليدخل تحت أمرهذا المرسوم الشريف المطاع كل قوى وضعيف ، وليستقر ضرب هذه الجزية استقراراً بلا زوال ، مستمرا بدوام الليالى والأيام . . . إلى أن يرث اللهالأرض ومن عليها . . . والله تعالى يعلى منار الإسلام ويزيده قوة وإظهاراً ويجعل الدائرة على أعداء الدين . »

على أن هذا المنشور مالبث أن أهمل تنفيذه ، فلم يدفع النصارى الجزية مضاعفة ، كما لم يحل بينهم وبين تقلد الوظائف الحكومية إلا أيامامعدودات . ولتفسير ذلك نقول ، إن كريم الدين ناظر خاص الناصر أنهى إلى السلطان أن جماعة من النصارى تضطلع بأعباء بعض الدواوين وأنهم إذا صرفوا عن أعمالهم فسدت الأحوال ، وتعطلت المصالح ، وسأله أن يظلوا فى أعمالهم حتى نهاية السنة ، فأجيب إلى طلبه ، بل لم يعزلوا من مناصبهم ، كما استقر كتاب الأمراء فى وظائفهم بعد اعتناقهم الإسلام (١) .

وكانت بعض أعمال الدواوين تسند إلى المسيحيين فى مصر لأنهم أعرف بشئون البلاد من المصريين المسلمين . وقد اعتنق بعضهم الإسلام ، ووصل إلى المناصب الهامة فى الدولة ، ومن هؤلاء : كريم الدين بن هبة الله بن السديد المصرى الذى قلده الأمير بيبرس الجاشنكير وظيفة الكتابة ، وظل يترقى فى سلك الوظائف حتى تقلد وظيفة ناظر الخاص فى عهد السلطان الملك

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٨

الناصر ، وصار يسير فى ركابه كثير من الأمراء والمماليك ، كما علت مكانته بين المصريين لتعميره المساجد وسخائه فى منح الصدقات للفقراء (١) .

كذلك كان شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله المعروف بالنشو من بين المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام وتقلبوا فى الوظائف ، فى عهد الناصر محمد حتى تقلد وظيفة ناظر الخاص ؛ غير أنه لم يكن حسن السيرة ، فقد ارتكب كثيرا من المظالم حتى ضج الناس بالشكوى منه ، كما تحدث بعض الأمراء مع السلطان فى ضرورة عزله . وكان أول من جاهر بذلك الأمير سنجر الجاولى ، فقال للسلطان : حاشا مولانا السلطان من شغل الخاطر وضيق الصدر . » فقال السلطان : مماليكى أنشأتهم وأعطيتهم العطاء الجزيل . وقد بلغنى عنهم مالا يليق . فقال الجاولى : حاشا لله أن يبدو من مماليك السلطان شىء من هذا ؛ غير أن علم مولانا السلطان يحيط بأن ملك الخلفاء مازال إلا بسبب الكتاب ، وغالب السلاطين مادخل عليها الدخيل إلا من جهة الوزراء ومولانا السلطان ما يحتاج فى هذا إلى أن يعرفه أحد بما جرى لهم » . وكان لهذا الحديث أثره فى نفس الناصر محمد ، فعول على التخلص من النشو ، وسارع إلى تحقيق تلك الرغبة حين تبين له شدة تعسفه فى معاملة الرعية وتغاليه فى ابتزاز أموال التجار حتى أخذ الناس يترددون على خواصه من الأمراء وشكوا اليهم ماحاق بهم من ظلمه ، كما وصل اليه ، عدة كتب تنم عن استياء الشعب المصرى من تصرفاته .

ولما قبض على النشو سنة ٧٤٠ هـ ، سر الناس كثيرا واجتمعوا تحت القلعة حاملين الشموع ورافعين المصاحف على رءوسهم والأعلام فى أيديهم ، كما أخذوا يصيحون صيحات الفرح لتخلصهم من ظلم النشو .

ولم يكتف السلطان بالقبض على النشو ، بل أمر بمصادرة أملاكه وأمواله. وقد عثر فى منزله على خمسة عشر الف دينار من الذهب وألفين وخمسمائة حبة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الاول ص ٢٣٥ ، الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ١ ص ٣٧٣

من اللؤلؤ تقدر قيمة كل منها بألفى درهم ، وقطعةزمرد زنتها رطل ، وصليب من الذهب مرصع بالجواهر .[١]

وكان من أثر اعتماد أمراء المماليك على كتاب النصارى أن ازداد نفوذهم وساروا فى تعاظمهم على المسلمين سيرتهم الأولى حتى أن بعض كتابهم مر أمام الجامع الأزهر فى أحد أيام سنة ٧٥٥ ﻫ راكباً وخلفه عدد من العبيد ، فشق ذلك على المسلمين وثاروا فى وجهه ، وأنزلوه عن فرسه وكادوا يقتلونه . وسار بعضهم على أثر هذا الحادث إلى الأمير طاز وشكوا اليه نقض النصارى عهدهم ، كما سألوه أن يعمل على نصرة الإسلام والمسلمون . فقدم الأمير طاز إلى السلطان الملك الصالح صالح كتاباً قرىء عليه بحضرة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة يتضمن الشكوى من النصارى والرغبة فى عقد مجلس يلتزمون فيه باتباع الشروط المعينة لهم . فأجابهم السلطان إلى طلبهم وعقد مجلسا دعا اليه بطرك النصارى وأعيان ملتهم ورئيس اليهود وأعيانهم كما حضره القضاة وعلماء الشريعة وأمراء الدولة ، وتلا القاضى علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر فى هذا الاجتماع العهد الذى عقد بين المسلمين وأهل الذمة . ولما فرغ من تلاوته ، التزم بطرك النصارى وديّان اليهود باتباع ما ورد فيه . ثم جال الحديث فيما آل إليه حال أهل الذمة ونقضهم العهد ، فاستقر الرأى على إقصائهم عن وظائف الديوان السلطانى ودواوين الأمراء حتى بعد دخولهم فى الإسلام وألا يكره أحد منهم على اعتناق هذا الدين ، وإذا ما اعتنقه أحدهم برضاه ألزم بألا يدخل منزله أو يجتمع بأهله إلا بعد أن يسلموا ، كما ألزم من أسلم منهم بملازمة المساجد والجوامع ، وألا يستخدم أهل الذمة مسلماً ، وأن ينزلوا عن دوابهم إذا مروا بجماعة من المسلمين ، كما شرط أن تكون عمامة النصرانى واليهودى عشرة أذرع . وصدرت بذلك مراسيم قرئت بجامع عمرو والجامع الأزهر وذلك فى يوم الجمعة ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٧٥٥ ﻫ .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الثانى ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ، ٢٦١ — ٢٦٣

وقد هاجت حفيظة المسلمين فى ذلك اليوم لحنقهم على النصارى ؛ فثاروا عليهم بعد صلاة الجمعة ، ومزقوا ثيابهم ، وأضرموا النيران لإلقائهم فيها ، مما حمل النصارى على الاختفاء فى بيوتهم وأصبح لا يجسر أحد منهم على السير فى الطرقات ، كما اضطروا إلى شرب مياه الآبار لامتناع السقائين عن نقل الماء اليهم من النيل .

ولما اشتد الحال بالنصارى نودى فى القاهرة ومصر بالكف عن التعرض لهم بعد أن حل بهم البلاء ، وحيل بينهم وبين تقلد الوظائف حتى فى حال اعتناقهم الإسلام .

على أن المسلمين مالبثوا أن رفعوا شكاية ، قرئت بدار العدل ، تتضمن أن النصارى استجدوا فى كنائسهم عمائر ثم اجتمع بالقلعة عدد عظيم منهم واستغاثوا بالسلطان وطلبوا منه العمل على نصرة الإسلام ؛ فأصدر أوامره بهدم الكنائس (١) .

ولما عظم البلاء على النصارى وقلت أرزاقهم ، سارع كثير منهم إلى إعتناق الإسلام . فتواردت الأخبار من الوجهين القبلى والبحرى بدخولهم فى الإسلام وحفظهم القرآن ، وأن أكثر كنائس الصعيد قد هدمت وحولت إلى مساجد كما أسلم بمدينة قليوب فى يوم واحد أربعمائة وخمسون نصرانيا . ومنذ ذلك الوقت اختلطت الأنساب فى البلاد المصرية ؛ فتزوج عامة النصارى بريف مصر بعد اعتناقهم الإسلام بالمسلمات وتقلد أبناؤهم فيما بعد بعض مناصب الدولة التى كانت مقصورة على المسلمين وأصبح منهم القضاة والشهود والعلماء (٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٧ ا — ١٧ ب

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٨ ا

الكتاب الثاني

سياسة مصر الخارجية

في عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول — موقف مصر من الدول الإسلامية

الفصل الثانى — سياسة مصر إزاء بلاد النوبة والحبشة

الفصل الثالث — موقف مصر من المغول

الفصل الرابع — علاقة مصر بأرمينية الصغرى

الفصل الخامس — سياسة مصر إزاء الصليبيين

الفصل السادس — العلاقات السياسية بين مصر والدول الأوربية

الفصل الأول

موقف مصر من الدول الاسلامية

(١) بلاد الحجاز

كان السلطان الملك الظاهر بيبرس قد استطاع بفضل إحيائه الخلافة العباسية فى مصر وحرصه على التوفيق بين أمراء مكة والمدينة وإمدادهما بالمال أن يستعيد مكانة مصر فى بلاد الحجاز ، فأصبح الخطباء يدعون له على منابر تلك البلاد ، وتضرب باسمه السكة فيهما ؛ وصار أمراء مكة والمدينة منذ ذلك الوقت يحرصون على إظهار ولائهم لسلاطين مصر ؛ فحلف الشريف أبو نمى أمير مكة سنة ٦٨١ هـ للسلطان الملك المنصور قلاوون وولده الملك الصالح أن يكون مطيعاً لهما وأن يلتزم تعليق الكسوة المرسلة من مصر على الكعبة فى كل موسم ، وألا يعلق عليها كسوة غيرها ، وأن يقدم علم المنصور على كل علم ، وألا يتقدمه علم غيره ، وأن يسهل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والآمين ، وأن يحرس الحاج ويؤمنهم فى سربهم ، وأن يستمر فى إفراد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى وأن يمتثل مراسم السلطان امتثال النائب للمستنيب[١] .

ولما استقرت الأمور للسلطان الملك النـــاصر محمد بن قلاوون ، اهتم بشئون مكة والمدينة ؛ وكان مما أعانه على بسط نفوذه وسيادته على هاتين المدينتين ، ذلك الخلاف الذى تجلى بين أمراء كل منها[٢] ، وما كان من التجاء المنهزم منهم إليه ليستمد قوة وسلطانا .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٠٦ — ٧٠٧

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 71-72

وقد ظلت المنازعات قائمة بين أمراء المدينة منذ أن وفد مقبل بن جماز على الظاهر بيبرس بمصر ، يشكو له أخاه منصوراً ، فقسم إمارة المدينة بينهما . غير أن هذا الحل ، لم يضع حداً للخلاف الناشب بين أميرى المدينة ذلك أن الأمير منصور لما قدم إلى القاهرة سنة ٧٠٩ هـ ، واستخلف بالمدينة ، ابنه كبيشة ، انتهز هذه الفرصة الأمير مقبل وانتزع إمارة المدينة من كبيشة واستأثر بالسلطة فيها . فاستاء من ذلك كبيشة ودعا بعض العرب لنصرته ، ثم هجم على المدينة وقتل عمه مقبل .

ولما عاد الأمير منصور إلى المدينة ، أخذ الأمير ماجد بن مقبل يدعو العرب لمعاونته ضد عمه منصور ، ثم زحف سنة ٧١٧ هـ على المدينة وانتزعها من يده . فبعث الأمير منصور إلى السلطان الملك الناصر يستنجد به ؛ فأمده بفريق من الجند أعانوه على إستعادة نفوذه بالمدينة ؛ غير أن هذا الأمير لم يتمتع طويلا بالحكم ، فقدنقم عليه السلطان وعزله ، وولى أخاه ودى بن جماز ثم أعاده إلى ولايته ، فظل بها إلى أن توفى سنة ٧٢٥ هـ .

وقد ازدادت الحالة سوءاً فى المدينة بعد وفاة الأمير منصور ؛ فاستحكم النزاع بين خلفائه وظل التنافس على إمارة المدينة حتى وليها طُفيل بن منصور ابن جماز الذى أنفرد بإمرتها إلى سنة ٧٥١[1] هـ .

كذلك لم تكن الحالة مستقرة فى مكة بسبب تنافس أمرائها على السلطة ؛ وكان ذلك مما سهل على السلطان الملك الناصر بسط سيادته على تلك المدينة والتدخل فى تعيين أمرائها .

وكان عز الدين حميضة وأسد الدين رميثة يشتركان معاً فى إدارة شئون مكة . وظلا يتوليان حكمها حتى أضطر الناصر محمد إزاء الشكايات التى تقدمت من أهلها إلى أن يرسل فى أوائل سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) حملة مع أخيهما أبى الغيث لتقره على إمارة هذه المدينة بدلا منهما[2] . وكان أبو الفدا إذ ذاك

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠١ .

(٢) Howorth, History of the Mongols, vol III p. 572

بمكة ، فوصله خطاب من السلطان يطلب فيه أن يعاون هذه الحملة فى القبض على حميضة الذى أساء السيرة فى مكة واستبد بالأمور فيها ؛ غير أن حميضة مالبث أن ولى هاربا . وبذلك خلا الجو للأمير أبى الغيث ، فتولى إمارة مكة ثم أعاد الحملة التى قدم معها إلى مصر(١) .

على أن الأمير أبا الغيث لم يتمتع طويلا بامارة مكة ؛ فقد فاجأه أخوه حميضة قبل وصول الحجاج فى أواخر سنة ٧١٤ هـ ، واشتبك معه فى معركة ، إنتهى الأمر فيها بقتله ، ثم فر حميضة وظل بعيداً عن الأنظار حتى أدى الحجاج مناسكهم وعادوا إلى بلادهم ، فرأى أن الفرصة سانحة لاستعادة نفوذه ، ومن ثم رجع إلى مكة واستبد بالأمور فيها(٢) .

ولم يقف النزاع بين أمراء مكة عند هذا الحد ، بل قدم إلى مصر سنة ٧١٥ هـ الأمير أسد الدين رميثة بن أبى نمى ، وأنهى إلى السلطان أنه يدين بالطاعة له ، وطلب منه أن يمد له يد المساعدة ضد أخيه عز الدين حميضة . فأجاب الملك الناصر طلبه ، وأنفذ معه إلى الحجاز فريقاً من الجند المصرى ، وجهزهم بما يحتاجون إليه .

ولما وصل الأمير أسد الدين رميثة إلى مكة ، دارت بينه وبين حميضة عدة معارك كانت له الغلبة فيها ؛ فولى جماعة حميضة منهزمين وفر حميضة نفسه فى نفر يسير من أصحابه إلى العراق يطلب النجدة من أولجايتو ايلخان المغول فى فارس ؛ وبذلك استقر الأمر لأسد الدين رميثة فى ولاية مكة(٣) .

ولما قدم حميضة على أولجايتو خدابنده ، طلب منه أن يمده بطائفة من المغول ليستعين بها على إعادة سلطته بمكة ؛ فلبى ايلخان المغول رغبته ، وعهد إلى الدرقندى نائبه بالبصرة بمرافقته ، كما أرسل معه

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٤ ص ٧٣

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٤ ص ٧٤

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٧٦ — ٧٧ ، النويرى : نهاية الأرب : جـ ٣٠ ورقة ٨٩

Howorth, History of the Mongols vol III . P. 572

جماعة من المغول وعرب خفاجة[١] ؛ غير أن تلك الجموع مالبثت أن تفرقت على أثر وفاة خدابنده وحلت بها الهزيمة على يد محمد بن عيسى — أحد أمراء العرب — الذى شق عليه مسير المغول للاستيلاء على الحجاز ، وعول على صد جموعهم التى صحبها الأمير حميضة . فخرج على رأس جيش من العرب ولما التقى بهم حاربهم وهو يصيح باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون . وانتهى الأمر بقتل أكثرهم وأسر أربعمائة رجل من المغول .

ولما علم السلطان بهذا النصر الذى أحرزه محمد بن عيسى على حميضه وحلفائه من المغول ، سر سرورا عظيما ، واستدعاه إلى مصر وأجزل عليه المنح والعطايا[٢] ، كما أعاد إمرة العرب إلى أخيه مهنا بن عيسى[٣] .

على أن النزاع مالبث أن تجدد سنة ٧١٨ هـ بين الأمير عز الدين حميضة والأمير أسد الدين رميثة ؛ فهجم حميضة على رميثة واضطره إلى الجلاء عنها ، ثم استبد بالسلطة فى مكة وأمر بذكر اسم بوسعيد ايلخان المغول فى الخطبة عوضا عن السلطان الملك الناصر . ولما وصل إلى السلطان نبأ هذه الأحداث التى وقعت بمكة

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٨٠ — ٨١

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ، ص ١٤٧ — ١٤٨

(٣) تعرف قبيلة مهنا بن عيسى بآل فضل ، وهم ينتسبون إلى طىء ؛ وكانت تسند إمرة العرب ببلاد الشام إلى أحد أعيانهم فى عهد المماليك ، ويكتب له تقليد شريف بذلك . ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٣٦

وكان يتولى إمرة العرب فى عهد الملك الظاهر بيبرس عيسى بن مهنا بن مانع . وظل فى هذا المنصب حتى توفى سنة ٦٨٤ هـ ، فولى المنصور قلاوون مكانه ابنه مهنا بن عيسى ؛ غير أنه حدث عندما سافر الأشرف خليل بن قلاوون إلى بلاد الشام أن خرج عليه مهنا بن عيسى فى جماعة من قومه ، فقبض عليهم السلطان وبعث بهم إلى قلعة الجبل ؛ فظلوا معتقلين بها إلى أن أفرج عنهم الملك العادل كتبغا سنة ٦٩٤ هـ وأعاد مهنا بن عيسى إلى إمارته .

ولما علم السلطان الملك الناصر بميل هذا الأمير العربى إلى المغول نقم عليه وعزله من إمرة العرب ، وولى مكانه سنة ٧١٣ هـ فضل بن عيسى ؛ وبقى مهنا مشردا حتى لحق بخدابندا ايلخان المغول سنة ٧١٦ هـ ، فأكرمه وأقطعه أرضا بالعراق . وعندما توفى خدابندا ، عاد مهنا إلى بلاد الشام ، ولم يلبث بعد ذلك أن أعاده الملك الناصر إلى إمرة العرب القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

أنفذ فريقا من جنده إليها وأمرهم بألا يعودوا إلى مصر إلا بعد أن يظفروا بحميضة . وما لبث السلطان أن نقم أيضا على الأمير أسد الدين رميثة حين تبين له تواطؤه مع أخيه حميضة سرا ، وطلب من الأمير بدر الدين التركمانى الذى ولى إمارة الحج فى هذه السنة أن يرسل إليه الأمير رميثة ؛ فقبض عليه وأرسله معتقلا إلى مصر ثم استقر بدر الدين بن التركمانى نائبا فى مكة وظل يتولى هذا المنصب حتى أنفذ السلطان الملك الناصر سنة ٧١٩ هـ الأمير عطيفة أخا حميضـــة إلى مكة[١] ؛ ومن ثم انتهت مهمة الأمير بدر الدين وعاد إلى القاهرة[٢] .

ولما اشتدت الحالة بالأمير حميضة عول على الحضور إلى قائد الجيش المصرى المقيم بمكة ليعلن له دخوله فى طاعة السلطان . وكان لتصرفه هذا أسوأ الأثر فى نفس المماليك — الذين لجأوا اليه بعد أن فروا من ركاب السلطان الملك الناصر أثناء قدومه إلى مكة لأداء فريضة الحج — لأنهم خشوا غائلة العقاب الذى سينزله السلطان بهم إذا ماحضروا إليه بصحبة الأمير حميضة ؛ ولذلك نراهم ينقمون على هذا الأمير ويقتلونه سنة ٧٢٠[٣] هـ .

ولم يمض زمن طويل على وفاة حميضة حتى أخلى السلطان سبيل رميثة وأرسله إلى مكة ليشترك مع أخيه عطيفة فى إمارتها . وقد ظلت السلطة فى مكة موزعة بين هذين الأميرين حتى توفى عطيفة ؛ ومن ثم استقل أخوه رميثة بامارة مكة .

على أن الأمور لم تستقر تماما بمكة فى عهد ولاية رميثة ، فقد حدثت بها فتنة سنة ٧٣١ هـ ، انقض فيها عبيد الأشراف على جماعة من الأمراء والمماليك

---

(١) ذكر أبو الفدا (المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٨٤) أن السلطان الناصر أرسل هذا الأمير ليقيم مع بدر الدين بمكة .

(٢) النويرى : نهاية الأرب . ج ٣٠ ورقة ١١٨ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٨٩

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٤٣٣

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٧

وقتلوهم . ولما علم السلطان بهذه الفتنة ،أنفذ فريقا من جنده تحت قيادة أيتمش لإخمادها . وكان ذلك مما حمل الأشراف والعبيد على الهرب منها ، كما اضطر الأمير رميثة إلى الرحيل عنها إلى مصر ليؤكد للسلطان إخلاصه له . ولما مثل بين يديه ، قدم له فروض الطاعة وحلف أنه برىء من الفتنة التى وقعت بامارته فوثق السلطان من كلامه وعفا عنه [١] ، ثم عاد الأمير رميثة إلى مكة حيث احتفل بقراءة التقليد الذى ولاه فيه السلطان أميرا على هذه المدينة ، واجتمع قائد الجند والأمراء بالكعبة وأقسموا له يمين الولاء [٢].

وقد ظل رميثة مستأثرا بالسلطة فى مكة حتى كبرت سنه فأشرك معه ابنيه ثقبة وعجلان . لكنهما مالبثا أن استقلا بها سنة ٧٤٤ هـ بعد أن دفعا له ستين ألف درهم . وظلا يتوليان حكمها حتى استدعى السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، الأمير ثقبة إلى مصر وقبض عليه ، ثم أرسل مرسوما باعادة إمرة مكة إلى رميثة . ولما علم بذلك عجلان ، رحل الى اليمن ، غير أنه سرعان ما عاد إلى مكة واصطلح مع أبيه ثم استقل بامارة مكة بعد وفاته [٣] .

ولما أطلق السلطان حسن بن الناصر محمد سراح الأمير ثقبة سنة ٧٤٨ هـ ، عاد إلى مكة وأخذ من عجلان نصف البلاد بغير قتال . وظل يشاركه فى إمرتها حتى حدث بينهما نزاع سنة ٧٥٠ هـ ؛ فسافر عجلان إلى القاهرة وولاه السلطان إمرة مكة [٤] . أما الأمير ثقبة فانه توجه إلى اليمن حيث أغرى الملك المجاهد على بن داود صاحب اليمن بالاستيلاء على مكة وباعداد كسوة للكعبة ، فسار الملك المجاهد يريد الحج سنة ٧٥١ فى حفل كبير ، وصحب معه الأمير ثقبة [٥] .

---

(١) ابن خلدون : جـ ٥ ص ٤٣٣ .
(٢) تاريخ ابن الوردى : جـ ٢ ص ٢٩٥
(٣) درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ورقة ٢٦٠
(٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ٢ ص ٤٤٩ — ٤٥٠
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ القسم الأول ص ٨٦

ولما قدم مكة بعض أمراء مصر برفقة الحجاج المصريين ، حذرهم عجلان من غائلة صاحب اليمن وقال لهم : «إن صاحب اليمن يريد أن يقيم فى مكة بعد توجهكم ؛ ومراده أن ينتزع كسوة البيت ويكسوه كسوة أحضرها من اليمن ويريد أن يولى على مكة والياً من جهته ويترك معه جنداً من اليمن ، ويغير أوضاعكم ولا يترك لكم فى مكة أمراء ، وهو فى جمع يسير من اليمن ، ولكن لا طاقة لنا بهم ، ومن المصلحة أنه لا يفوت ، وإن لم تفعلوا قدمت معكم إلى مولانا السلطان وتركت مكة له وبرئت من العهدة[١] . » فبعث أمراء مصر إلى الملك المجاهد ، كتابا قالوا فيه : « إن من يريد الحج إنما يدخل مكة بذلة ومسكنة ، وقد ابتدعت من ركوبك بالسلاح بدعة لا نمكنك أن تدخل بها ، وابعث إلينا ثقبة ليكون عندنا ، حتى تنتهى أيام الحج فنرسله إليك . » فأجاب صاحب اليمن طلبهم وبعث ثقبة ليكون رهينة عندهم . وكان قد تم الاتفاق بينه وبين الملك المجاهد على أنه إذا رحل الأمير طاز من مكة ، أوقعا ببزلار أمير الحج ومن معه ، وقبضا على عجلان ؛ وبذلك يتمهد السبيل لتسليم الأمير ثقبة هذه المدينة[٢] .

أما الأمراء المصريون ، فقد استقر رأيهم مع الأمير عجلان على محاربة الملك المجاهد إذا افترق عنه عساكره بمنى ؛ وسرعان ما أحاطوا به ومعه جماعة من أصحابه ، غير أنه توقف عن الحرب رعاية لحرمة الزمان والمكان وفر إلى جبل منى ؛ وعلى الرغم من ذلك ، فقد ظل القتال دائرا ، حتى اضطر صاحب اليمن — خشية قتل أصحابه — إلى طلب الأمان وتسليم نفسه على ألا يتعرضوا لأحد غيره . وهرب ثقبة إلى اليمن ؛ وبذلك خلا الجو للأمير عجلان بمكة[٣] .

---

(١) درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة . ورقة ٢٦١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ (القسم الاول) ص ٨٦ — ٨٧ (طبعة جامعة كاليفورنيا)

(٣) درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة . ورقة ٢٦٣

ولما شرع الأمير طاز فى الرحيل إلى الديار المصرية ، سلم أمراء الملك المجاهد وحريمه للأمير عجلان وأوصاه بهم خيرا ، ثم سار برفقة صاحب اليمن . وبعث الأمير طقطاى إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، يبشره بما حدث فى مكة .

ولم يكد يستقر مقام الأمير طاز بالقاهرة حتى قيد الملك المجاهد ، وسار بصحبته لمقابلة السلطان ، وحين مثلا بين يديه ، قبل الملك المجاهد الأرض ثلاث مرات وأخذ الأمير طاز يشفع فيه عند السلطان حتى أمر بفك قيده ، ثم أنزل بقاعة الأشرفية حيث أجريت له الرواتب السنية . وأنعم السلطان على الأمير طاز بمائتى ألف درهم ، أما الملك المجاهد فانه ألزم بدفع أربعمائة ألف دينار يقترضها من تجار الكارم[١] ليأذن له السلطان بالسفر إلى بلاده ، غير أنه مالبث أن أعفى من دفع هذا المبلغ ووعده السلطان بأنه سيعمل على إعادته إلى بلاده مكرما ؛ فقبل له الملك المجاهد الأرض ، ووعده بأن يرسل إليه مالا معينا فى كل سنة ، ولم يكتف بذلك بل صار منذ عودته إلى اليمن يحرص على مهاداته[٢] .

وقد ظل كل من عجلان وثقبة يرمى إلى الاستقلال بولاية مكة إلى أن تقلد الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر ، فولى عجلان إمرة مكة سنة ٧٦٢ هـ ، وأشرك معه أخاه ثقبة ؛ غير أن ثقبة مالبث أن توفى ، ومن ثم استقل عجلان بهذه الإمارة[٣] ، وانتهى بذلك النزاع الذى شغل بال سلاطين مصر فترة طويلة من الزمن ، وكان من أثره إضطراب الحالة فى مكة .

مما تقدم يتبين لنا كيف كان أمراء مكة والمدينة يتنازعون السلطة ،

---

(١) يطلق هذا اللفظ على تجار البهار الوارد إلى مصر من الهند واليمن (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٢ حاشية ١)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ القسم الأول ص ٨٨ — ٩٠ (طبعة كاليفورنيا). ابن خلدون : جـ ٥ ص ٥١٣

(٣) درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ورقة ٢٦٨ ، ٢٦٩

وقد ساعد ذلك على عدم استقرار الأمور فى هاتين المدينتين المقدستين ، وسهل لسلاطين المماليك نشر نفوذهم فى بلاد الحجاز ؛ فأصبح يخطب باسمهم فى الحرم والمشاعر ، وتنقش أسماؤهم على السكة ، وفضلا عن ذلك فإن أمراء مكة والمدينة كانوا يحرصون على راحة الحجاج المصريين ويحتفلون بقدوم المحمل المصرى ، وإذا ما قدم السلطان أو أحد نوابه لأداء فريضة الحج ، سارع هؤلاء الأمراء إلى استقبالهم واحتفوا بلقائهم . وقد تجلت مظاهر حفاوتهم بسلطان مصر وأمرائه فى الحجات الثلاث التى أداها الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكانت أولى هذه الحجات سنة ٧١٢ هـ عندما وقع التنافر بينه وبين قراسنقر نائب حلب وأقوش نائب طرابلس وغيرهما مما كان سببا فى خروج المغول إلى بلاد الشام ونزولهم بالرحبة ، ثم رجوعهم إلى بلادهم على أثر ما بلغهم عن تأهب جيوش مصر لصدهم . ولما علم السلطان بعودتهم توجه فى أربعين أميراً لأداء فريضة الحج (١) .

وقد أدى الناصر محمد حجته الثانية سنة ٧١٩ هـ ، واستصحب معه الملك المؤيد صاحب حماه والأمير محمد بن أخت علاء الدين صاحب دلهى (٢) ، وكثيراً من الأمراء وكبار رجال الدولة ، نخص بالذكر منهم : القاضى علاء الدين بن الأثير ، والقاضى كريم الدين وقاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة . وأعد للكعبة كسوة من الحرير الأطلس المنسوج بالاسكندرية .

ولما قدم السلطان إلى الكعبة ، نهى الحجاب أن يمنعوا الناس عن الطواف معه ، وقال لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة حين أشار عليه بأن يطوف راكبا كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام : « ومن أنا حتى أتشبه بالرسول صلى الله عليه وسلم لا طفت إلا كما يطوف الناس » ؛ فصاروا يزاحمونه

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٧٨
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الأول ورقة ٢١٩
(٢) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٨

فى طوافه وهو يزاحمهم كواحد منهم . ولما فرغ من الطواف غسل الكعبة بيده ، كما أخذ أزر إحرام الحجاج وغسلها لهم بنفسه .

وقد بلغ من هيبة هذا السلطان أثناء وجوده بمكة أن فريقاً من المغول الذين قدموا لأداء مناسك الحج ، اختفى خوفا منه ، فاستدعاهم لمقابلته وبالغ فى إكرامهم وأنعم عليهم(١) .

كذلك شرع الناصر محمد فى الرحيل إلى بلاد الحجاز سنة ٧٣٢ هـ لأداء فريضة الحج لثالث مرة . وقد استصحب فى سفره الملك الأفضل صاحب حماه، وكثيراً من الأمراء ، وقاضى القضاة جلال الدين القزوينى الشافعى ، وابن الفرات الحنفى ، وفخر الدين النويرى المالكى ، وموفق الدين الحنبلى(٢) .

وقد قام الناصر محمد أثناء زيارته لبلاد الحجاز سنة ٧٣٢ هـ بكثير من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره ، فوسع طريق عقبة أيله ، وصنع للكعبة بابا مصفحا بالفضة ، أنفق عليه خمسة وثلاثين ألف درهم(٣) .

ولم يكن اهتمام الناصر محمد بتنظيم شئون مكة والمدينة وتيسير سبل العيش على أهليهما أقل من حرصه على بسط سيادته على تلك الأصقاع ؛ فقد عنى بالوقوف على مايشكو منه أهالى الأماكن المقدسة بالحجاز وصار يمدهم بالغلال إذا ما أصابهم القحط .

وعلى الرغم من بعد الشقة بين مصر والحجاز ، فإن بعض أمراء هذه البلاد كان يتردد من حين لآخر على الديار المصرية للتحدث مع السلطان فيما يلاقيه أهالى الحرمين من الصعاب ؛ فقد قدم عطيفة بن أبى نمى أمير مكة إلى مصر سنة ٧٢٢ هـ ليخبر السلطان بالقحط الذى حل بإمارته من جراء عدم سقوط المطر فى هذه السنة ، وما ترتب على ذلك من ازدياد سعر القمح الذى وصل ثمن الأردب منه إلى مائتين وخمسين درهما .

(١) المقريزى : السلوك : ج ٢ ق ١ ص ١٩٧ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٤ القسم الأول — ورقة ٢٢٨ — ٢٢٩
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ — القسم الثانى ورقة ٢٤٥
(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٢٧ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٨

ولما وقف السلطان على ما حل بأهل مكة من الضيق بسبب تعذر حصولهم على القمح ، سارع إلى إمدادهم بالغلال ، فأمر بأن يرسل إلى مكة ألفى أردب . وكان لاهتمام السلطان بارسال القمح إلى مكة لتخفيف آلام القحط على أهلها أحسن الأثر ، فرخص السعر ، وصار يباع أردب القمح بمائة درهم ؛ وبذلك ساد الرخاء فى تلك المدينة فى الوقت الذى قل فيه إنتاج أرضها[١] .

كذلك كان يفيض الناصر محمد على فقراء مكة والمدينة بالصدقات فى مواسم الحج . ولم تقف عنايته بتوفير أسباب الحياة لأهل الحرمين عند هذا الحد ، بل أمر بوضع المكوس عنهم وذلك بأن اتفق مع أميرى مكة والمدينة سنة ٧١٩ هـ على ألا يأخذا مكوسا من أهالى هاتين المدينتين ، وتعهد أن يعوضهما عنها بإقطاعات فى مصر والشام[٢] .

وكان ممن انتهج هذه السياسة أيضا ، السلطان الملك الأشرف شعبان ، فاتفق مع عجلان أمير مكة على أن يرسل إليه كل سنة مائة وستين ألف درهم نقرة[٣] ، وألف أردب من القمح ، على ألا يجبى شيئا مما يجلب إليها من الحبوب والخضروات والثمار والأغنام ، ولا مما يباع فيها ، واستثنى من ذلك بندرجدة ، وتجار الكارم الذين يأتون من اليمن ، وحجاج العراق ، فأباح له أن يأخذ منهم الأموال المقررة . وكتب بذلك ثلاث محاضر ، أثبت إحداها بمكة ، والثانى بالمدينة ، والثالث بمصر[٤] .

(ب) بلاد اليمن

لما توطد الملك لصلاح الدين فى مصر ، عهد إلى أخيه شمس الدولة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الاول ص ٢٣٨
(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٩٧
(٣) الدراهم النقرة : هى التى يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس .
(القلقشندى : صبح الأعشى ﺟ ٣ ص ٤٣٩)
(٤) درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ورقة ٢٦٩

تورانشاه بغزو بلاد اليمن(١) ، فاستولى عليها سنة ٥٦٩ هـ ، وأقام فيها الخطبة للخليفة العباسى بعد أن حذفها المتولى عليها من قبل(٢) . وقد ظل أمراء بنى أيوب قابضين على زمام الأمور فى هذه البلاد حتى خرج على طاعتهم عمر بن على بن رسول (٣) سنة ٦٢٩ هـ ، واستقل بملك اليمن وتلقب بالملك المنصور ، كما ضرب السكة باسمه وصار الخطباء يدعون له على المنابر(٤) .

وكان من أثر إنصراف الأيوبيين إلى القضاء على مناوشات الصليبيين وانشغالهم بالمنازعات القائمة بينهم أن عجزوا عن توطيد نفوذهم فى بلاد اليمن ؛ ومن ثم سهل على بنى رسول الاستقلال بشئونها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل صاروا يتوارثون الحكم فيها بعد أن كان الأيوبيون يتولون أمورها وظل الحال على ذلك إلى أن انتقلت السلطة فى مصر إلى المماليك ، فشغلوا بدورهم بضبط الأمور فى البلاد المصرية ، وصد خطر المغول عنها ، والوقوف فى وجه الأيوبيين بالشام الذين كانوا يتطلعون إليها .

على أن مصر مالبثت أن علا شأنها واتسعت رقعتها فى عهد الملك الظاهر بيبرس ؛ فامتد نفوذها فى بلاد الشام شمالا وبلاد النوبة جنوباً ، وأصبحت البلاد الحجازية واليمنية بمقتضى التقليد الذى منحه الخليفة المستنصر بالله لهذا

---

(١) استقر رأى الأيوبيين أول الأمر على تسليم بلاد اليمن ابنى رسول ، الذين اتخذوا مصر داراً لمقامهم ، ولكنهم سرعان ماعدلوا عن ذلك خشية أن ينازعوهم فى الشام إذا ماقوى نفوذهم ، واتفقوا على تسييرهم إلى اليمن صحبة الملك المعظم توراشاه ؛ فخرجوا معه بعد ما أوصاهم أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بأن يكونوا فى خدمته .

(الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٢٨)

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٤ ،

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٢٨٧

(٣) كان صاحب اليمن الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل قد أناب عنه استاداره على بن رسول فى تلك البلاد حين خرج إلى الشام سنة ٦٢٥ ؛ فظل نائبا بها إلى أن خلفه فى منصبه ابنه عمر بعد وفاته سنة ٦٢٩ هـ (أبو الفدا : ج ٣ ص ١٨٥ — ١٨٦)

(٤) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٤٤ ،

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ٥ ص ٣١

السلطان تحت سيادته ؛ ومما ورد فيه : « . . . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً[١] .

وقد حرص بيبرس على توطيد نفوذه فى بلاد الحجاز حتى تتحقق بذلك رغبته فى أن تتولى مصر زعامة العالم الإسلامى ، وخاصة بعد أن أصبحت مركزاً للخلافة العباسية ، كما ارتبط مع سلطان بلاد اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول بعلاقات الود . فأرسل اليه هذا السلطان سنة ٦٦٦ ﻫ سفارة تحمل هدية ، تشتمل على عشرين فرسا مجهزة بالمعدات الحربية ، وبعض الفيلة ، وحمارة وحش عنابية اللون ، وعدة تحف . وقد تلقى بيبرس هذه السفارة بالترحاب ، وما لبث أن أرسل لسلطان اليمن هدية كان من بين محتوياتها قميص من ملابسه ، طلبه صاحب اليمن ليكون له بمثابة الأمان ، كما بعث اليه خلعة ودرعا وبعض آلات الحرب ، وكتب إليه يقول « قد سيرنا إليك آلة السلم وآلة الحرب مما لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد » .

كذلك وفدت على الظاهر بيبرس الوفود من اليمن فى سنتى ٦٦٩ و ٦٧٤ ﻫ تحمل الهدايا من التحف والفيلة وبعض الحيوانات والطيور ؛ فرحب السلطان بها وأعاد رسل صاحب اليمن مزودين بالهدايا[٢] .

وقد حافظ سلطان اليمن الملك المظفر شمس الدين على العلاقات الودية بينه وبين مصر ؛ فأرسل فى سنة ٦٨٠ ﻫ إلى السلطان الملك المنصور قلاوون وفداً يحمل هدية من العود والعنبر والصينى ورماح القنا . ولم تقتصر مهمة رسل صاحب اليمن على تقديم هذه الهدية لسلطان مصر ، بل طلبوا منه أيضاً أن يرسل لملكهم أماناً مكتوباً على قميص ، وأن يوقع عليه هو وابنه الملك

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٤٥١ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٥٦٣ — ٥٦٤ ، ٥٩٥ ، ٦٢١ .

الصالح ؛ فلبى رغبتهم[١] ؛ وفيما يلى نص هذا الأمان[٢] : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس ، إنا داعون له ولأولاده ، مسالمون من سالمهم ، معادون من عاداهم ، ناصرون من نصرهم ، خاذلون من خذلهم ، لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضيناه لأنفسنا ، وإنا لا نقبل فى حقه سعاية ساع ولا قول واش ، ولا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازماً لشروط مودتنا التى شافهنا بها الأمير مجد الدين رسوله » .

وكان الملك المظفر شمس الدين صـــاحب اليمن يدارى سلطان مصر ويهاديه ، لذلك نراه يدفع الإتاوة صاغراً ويبعث إليه الهدية تلو الهدية ؛ فأوفد رسله إلى الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٤ هـ تحمل الهدايا من الخصيان والأفراس والفيلة والببغاء ورماح القنا والبهار والقماش والأطباق . وقد قبل السلطان هذه الهدايا وأنعم على صاحب اليمن وعلى رسله بالخلع والعطايا[٣] .

ولما آلت سلطنة اليمن إلى الملك المؤيد هزبر الدين داود بن المظفر يوسف سنة ٧٠٣ هـ ، حذا حذو أسلافه فى التودد لسلاطين مصر ، فرحب بالأمير بدر الدين مكتوب المرقبى الذى قدم سفيراً من مصر ليخبره بما حازه السلطان الناصر من ظفر على المغول فى موقعة مرج الصفر ، كما شاركه فى الترحيب به أعيان الدولة من الوزراء والأمراء والمقدمين . وقال الشريف إدريس بن على فى ذلك[٤] :

لم تأتك الرسل من مصر وساكنها إلا مؤدية حقـــاً لكم يجب
وحين لاحت قصور الحصن لاح لهم من نور وجهك ما لا تستر الحجب

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٠٢
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٩ ص ١٢٣ أ — ١٢٣ ب
(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٧٢٩
(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية جـ ١ ص ٣٤٨

واستقبل العسكر المنصور فانصدعت — قلوبهم فهى فى أجوافهم نجب
كتائب مثل ضوء الشمس قسطلها — غيم فساروا بليل والقنا شهب
خفت بهم فرأوا أسداً ضراغمة — عاداتهم فى الورى إن غولبوا غلبوا
وكيف لا والأمين الروح يقدمهم — فى كل روع وحيزوم به يثب
وعاينوا منك وجهاً طالما سجدت — له الملوك وقامت باسمه الخطب

كذلك بعث الملك المؤيد سنة ٧٠٤ هـ ، الأمير أسد الدين محمد بن نور سفيراً إلى الديار المصرية ، مزوداً بالتحف السنية من الفضيات على اختلاف أنواعها كالطشوت والأباريق ، وكثير من الصحون والزبادى ، والثياب المذهبة والصناديق المملوءة بالمسك ، وما تحتاج إليه مطابخ السلطان من الفلفل والقرنفل والزنجبيل ، كما أرسل إليه مع هذا السفير ، بعض الحيوانات ، كالفيل وحمار الوحش والزرافة ، والخيول المسومة العربية[١] .

على أن الملك المؤيد هزبر الدين ، لم يكن حريصا على إحكام أواصر المودة مع سلطان مصر ، يدلنا على ذلك ما قام به سنة ٧٠٧ هـ ، فقد أساء معاملة التجار المصريين وأخذ أموالهم بغير حق ، كما عول على عدم إرسال المال المقرر إلى مصر . وكان يقصد بذلك أن يبعث به إلى مكة ليقدم اسمه على اسم سلطان مصر فى الدعاء . وقد كتب إليه الناصر محمد يهدده وينذره إذا استمر على موقفه ولم يُذعن بالطاعة له ، كما بعث إليه الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان كتابا بهذا المعنى حين امتنع عن إرسال الهدية التى جرت العادة بإرسالها إلى مصر[٢] ، ومما ورد فى هذا الكتاب[٣] : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية جـ ١ ص ٣٦٠ — ٣٦١
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٤٤ ،
المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الاول ص ٣٢ — ٣٣
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ٦ ص ٤٢٢ — ٤٢٦

من عبد الله ووليه أبي الربيع سليمان :

« . . . لما أفاض الله علينا صلة الخلافة ، وجعل محلنا الشريف محل الرحمة والرأفة ، وأقعدنا على سدة خلافة طالما أشرقت بالخلائف من آبائنا ، وابتهجت بالسادة الغطاريف من أسلافنا ، وألبسنا خلعة هى من سواد السؤدد مصبوغة ومن سواد العيون وسويداوات القلوب مصوغة . . . وقلدنا كل إقليم من عملنا من يصلح سياستها عن الدوام ، واستكفينا بالكفاة من عمالنا على أعمالنا ، واتخذنا مصر دار مقامنا وبها سدة مقامنا ، لما كانت فى هذا العصر قبة الإسلام ، وفيئة الإمام وثانيه دار السلام ، تعين علينا أن نتصفح جرائد عمالنا ، ونتأمل نظام أعمالنا ، مكانا فكانا ، وزمانا فزمانا ؛ فتصفحناها فوجدنا قطر اليمن خاليا من ولايتنا فى هذا الزمن . عرفنا هذا الأمر من اتخذناه للممالك الإسلامية عينا وقلبا . . وفوضنا إليه أمر الممالك الإسلامية ... وهو السلطان الأجل ، السيد الملك الناصر . . . واتصل بمواقفنا الشريفة أمور صدرت منك .

منها — وهى العظمى التى ترتب عليها ماترتب — قطع الميرة عن البيت الحرام ، وقدعلمت أنه وادغير ذى زرع ، ولايحل لأحدأن يتطرق إليه بمنع .

ومنها : انصبابك إلى تفريغ مال بيت المال فى شرا لهو الحديث ، ونقض العهود القديمة .

ومنها : تعطيل أجياد المنابر من عقود إسمنا وخلو تلك الأماكن من أمور عقدنا وحلنا .

وما عمدنا إلى مكاتبتك إلا للانذار ، ولا احتجنا إلى مخاطبتك إلا للاعذار ، فأقلع عما أنت بصدده من الخيلاء والاعجاب ، وانتظم فى سلك من استخلفناه . . فلسنا نشن الغارات على من نطق بالشهادتين لسانه وقلبه . . . ولسنا ممن يأمر بتجريد سيف إلا على من علمنا أنه خرج عن طاعتنا ، ورفض كتاب الله ونزع عن مبايعتنا . . .

واشرط على نفسك فى كل سنة قطيعة ترفعها إلى بيت المال ، وإياك ثم إياك أن تكون على هذا الأمر بمن مال ، ورتب جيشاً مقيماً تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار . . ليعود رسولك من دار الخلافة بتقاليدها وتشاريفها حاملا أهلة أعلامنا المنصورة ... وإن أبى حالك إلا أن استمريت على غيك . فقد منعناك التصرف فى البلاد ، والنظر فى أحكام العباد . . . أعلمناك ذلك فاعمل بمقتضاه ، موفقا إن شاء الله تعالى . »

ولم يكتف الناصر محمد بالإنذار الذى أرسله إلى صاحب اليمن ، بل عهد إلى الأمير عز الدين أيبك الشجاعى بأعداد أسطول لغزو تلك البلاد ، غير أن أحداثا داخلية وقعت بمصر ، أرجأت إرسال الحملة البحرية ، إلى اليمن ؛ ذلك أن الناصر محمد ازداد تذمره من كل من الأميرين بيبرس وسلار بسبب استبدادهما بالأمور دونه وتضيقهما عليه ؛ وما لبثت الفتنة أن اشتعلت فى القاهرة ، وتأهب المماليك السلطانية للدفاع عن السلطان بالقلعة كما ثار العامة فى وجه أنصار بيبرس وسلار ؛ وما زال الحال على ذلك حتى طلب بعض الأمراء من السلطان أن يركب مع أمرائه إلى الجبل الأحمر حتى تطمئن عليه العامة ، فلبى طلبهم وهدأت الفتنة .

وعلى الرغم من خمود نار هذه الفتنة ، فإن سلار خشى أن يدبر السلطان حيلة للتخلص منه ؛ ومن ثم عول على أنه يقود حملة بلاد اليمن ليبتعد عن الفتن وليحوز لنفسه النفوذ الأسمى فى تلك البلاد . ففطن لذلك بيبرس ودس إليه من الأمراء من ثنى عزمه عنها ؛ كما أن الرأى مالبث أن استقر على تأجيل سفر الحملة إلى أن يرد جواب صاحب اليمن ، ثم حالت ظروف مصر الداخلية دون إبحارها[1] .

ولم يمض على ذلك أربع سنوات حتى عدل الملك المؤيد هزبر الدين عن موقفه العدائى وعزم على إعادة العلاقات بين اليمن ومصر سيرتها الأولى ،

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الاول ص ٣٣ — ٣٨

فأوفد رسله سنة ٧١١ هـ إلى الناصر محمد ومعهم هدية من الجمال والخيول والوحوش . وقد لقيت هذه الهدية قبولا من السلطان وأمر بتوزيعها على كبار الأمراء وصغارهم(١) .

ولم تقتصر العلاقة بين مصر وبلاد اليمن على تبادل المراسلات والهدايا ، بل استعان بعض ملوك تلك البلاد بالسلطان الملك الناصر ضد منافسيهم . فطلب الملك المجاهد سيف الدين سنة ٧٢٥ هـ — بعد أن تقاص عنه سلطانه (٢) حتى صار لا يعده حصن تعز(٣) — من سلطان مصر أن ينجده ضد ابن عمه عبد الله ابن المنصور صاحب دملوه (٤) الذى أصبح بيده معظم بلاد اليمن وتلقب بالملك الناصر ؛ فامتنع الناصر أول الأمر عن إجابة طلبه . ولما أرسل إليه الملك المجاهد يطلب النجدة مرة ثانية ويرغبه فى أموال اليمن ، سارع إلى تلبية

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٠٧

(٢) لم يكن الأمر مستقراً للملك المجاهد فى بلاد اليمن ؛ فقبض على ابن عمه الملك الناصر جلال الدين سنة ٧٢٢ هـ لخروجه عليه ، ولم يمض على ذلك بضعة أشهر حتى نفر منه بعض الأمراء والعسكر ، واتفقوا على إقامة عمه الملك المنصور أيوب بن السلطان الملك المظفر يوسف بدلا منه . ولما أحكموا تدبيرهم ، قصد الأمراء والمماليك إلى حيث يقيم السلطان الملك المجاهد وقبضوا عليه وعادوا به إلى الملك المنصور أسيراً ؛ فاعتقله فى دار الإمارة وجعله معززاً مكرما ، ثم بعث فى طلب ابن عمه الملك الناصر وأقطعه بعض الأراضى وعين ابنه الملك الظاهر أسد الدين نائبا بالدملوه .

على أن الملك المنصور لم يتمتع طويلا بسلطانه اليمن ، فقد تقدم غلمان الملك المجاهد إلى الحصن الذى يقيم به الملك المنصور بمدينة تعز واستولوا عليه ، ونادوا بشعار المجاهد ، ثم اتفقت كلمة الأمراء على تولية الملك الناصر ؛ فساروا اليه وقالوا له : إن كان الملك المنصور قد مات أو قتل أو قبض عليه فأنت أولى بالملك ؛ غير أنهم لم يجدوا من يساعدهم على تحقيق غرضهم ؛ وبذلك سهل على الملك المجاهد أن يستعيد عرشه ، وما لبث بعد ذلك أن طلب من عمه المنصور أن يبعث إلى ابنه الظاهر كتابا يأمره فيه بتسليم الدملوه ، فكتب له بذلك ، لكنه لم يمتثل لأمر والده وامتنع عن تسليمها ؛ فجهز السلطان الملك المجاهد عسكراً لمحاربته وطالت مدة الحرب بين الفريقين ، كما ظلت الأمور مضطربة فى مملكة اليمن .

(الخزرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ج ٢ ص ١ — ٦)

(٣) تعز : احدى قلاع اليمن . وقد اتخذها سلاطين بنى رسول مقراً لملكهم . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٨

(٤) دملوه : حصن عظيم باليمن . ياقوت : معجم البلدان

رغبته ؛ فأرسل إليه حملة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب [١].

ولما وصل إلى علم أهل زبيد نبأ قدوم هذه الحملة ، ثاروا بالملك الظاهر وأجمعوا على الدخول فى طاعة الملك المجاهد خوفا من معرة الاستعانة بالجند المصرى . وكتبوا إلى المجاهد بذلك ؛ فقوى جانبه ونزل من قلعة تعز يريد « زبيد » [٢] حيث التقى بالعساكر المصرية . ولم يكد يشاهد هذا السلطان هؤلاء الجند — وهم مزودون بعددهم الحربية — حتى دب فى قلبه الرعب ، وهم أن يترجل عن فرسه ، فمنعه الأمير بيبرس ؛ لكن الملك المجاهد مالبث أن نزل عن ركابه حين اقترب منه الجند المصرى ، فترجل له أيضا الأمراء ، وقبلوا الأرض بين يديه ، ثم ساروا معه إلى الخيمة التى أقاموها حيث أخرجوا صندوقا فيه عمامة بعذبتين وخلعة فاخرة ، فألبسوه الخلعة والعمامة [٣] ، ثم دخل الملك المجاهد بلدة زبيد بصحبة الأمراء والعساكر فسر أهلها سرورا عظيما بلقائه [٤] .

ولما وقف الأمير بيبرس على حقيقة الحال فى بلاد اليمن ، أرسل إلى الملك الظاهر بدملوه سفارة تطلعه على كتاب السلطان الناصر الذى يتضمن الرغبة فى التوفيق بينه وبين الملك المجاهد . فطلب الظاهر أن تكون قلعة دملوه للسلطان على أن يكون نائبه بها ، وأعاد الرسل بعد أن أكرم وفادتهم [٥] .

ولما لم يف الملك المجاهد بما قرره على نفسه من الانفاق على الجند المصرى أثناء إقامتهم ببلاده ، عنفه الأمير بيبرس على ذلك ، فاعتذر له بسوء حالة بلاده ثم أصدر أوامره بأن يجهز لهم ما يحتاجون إليه من الأغنام والاذرة ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٥٩ — ٢٦٠
النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٥٧ — ٥٨
(٢) زبيد : مدينة من تهائم اليمن . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٩
(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٣٢
(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٦٥ — ٢٦٦
(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٥٩

وسار بنفسه مع بعض الامراء إلى «تعز» ليشرف على إعداد مايكفيهم من المؤونة . وظل الجند مقيمين بزبيد إلى أن عاد إليهم الأمراء دون أن يظفروا بشىء ؛ ومن ثم أجمع الجند على الرحيل إلى تعز حيث بثوا شكواهم للملك المجاهد ، فوعدهم بأنه سيعمل على إجابة طلباتهم ، لكنه لم يف بوعده واضطر الجند بعد أن اشتد بهم الضيق إلى الإغارة على الضياع والاستيلاء على ما وصلت إليه أيديهم [١] ؛ وما لبثوا بعد ذلك أن اشتبكوا مع جماعة من أهل جبل صبر المطل على قلعة تعز بسبب خروجهم عليهم وقطعهم الماء عنهم، ثم أرغموهم على الاعتصام بالجبل .

ولما ضاق الملك المجاهد ذرعا بالجند المصرى واشتد خوفه ، قال للأمير بيبرس : « إن كان السلطان قد رسم لكم الإقامة ، فالأمر إليه ، وإن كان إنما أرسلكم لنصرتى ، فارجعوا الى أبواب السلطان . » ثم أحضر قضاة تعز ، وأشهد على نفسه أنه أذن للعسكر بالعودة إلى بلادهم ؛ وما لبث بيبرس بعد ذلك أن رحل بجنده إلى مصر [٢] .

ولم يكد يستقر المقام لبيبرس بالقاهرة حتى أغرى الأمير طينال السلطان به ، فنسب إليه أنه أخذ مالا من الملك المجاهد ، وأنه قصر فى امتلاك بلاد اليمن . وقد رأى السلطان أن يعاقبه على ذلك بتوليته نائبا على غزه ؛ غير أن الأمير بيبرس امتنع عن تقلد هذا المنصب حين بلغه ما قيل عنه وبسبب غضب السلطان عليه ؛ بيد أن ذلك لم يمنع الناصر من معاقبته ، فاعتقله هو وحاشيته وصادر أموالهم [٣] .

* * *

ولم يكن فى استطاعة ملوك اليمن التخلص من السيادة المصرية ، بسبب

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٢٦٦ — ٢٦٧

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٦٠

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ (القسم الثانى) ص ٢٣٩ — ٢٤٠

تنافسهم على العرش ووقوع بعضهم فى نزاع مع الأئمة الزيدية[١] الذين اتخذوا صنعاء دارا لإقامتهم وأصبحوا يعتقدون أنه قد آن أوان ظهورهم وحان حين ملكهم »[٢] .

ولا شك أن ملوك اليمن لم يكونوا مطمئنين على دوام ملكهم فى تلك البلاد بسبب انتشار نفوذ هؤلاء الأئمة فى صنعاء ، وما كان يقوم به دعاتهم من بث الدعوة لهم فى أنحاء البلاد ، ومن ثم قام الخلاف بينهم ، وبلغ من اشتداد وطأته أن أرسل يحيى بن حمزة إمام الزيدية إلى الناصر محمد كتابا أطال فيه الشكوى من صاحب اليمن وعدد مساوئه وطلب إمداده بحملة لإجلائه عن دياره وقال : « إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها وقاد إليها الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنفذ منه مابيده أنعم عليه ببعضه وأعطى منه ماهو إلى جانب أرضه » . وقد بعث إليه الناصر ردا على كتابه ، أظهر فيه استعداده لإرسال نجدة إليه ، وقال : « ولا أرب لنا فى استزاده بلاد وسع الله لنا نطاقها ، وكثر بنا مواد أموالها وقدر على أيدينا إنفاقها ، وإنما القصد كله والأرب جميعه كشف تلك الكرب[٣] . . . » .

وكان الناصر محمد يرحب بالتدخل بين أمراء اليمن فى منازعاتهم ، وفيما يقع بينهم وبين الأئمة الزيدية رجاء أن يكون له ضلع فى إدارة شئونها الداخلية وفى تجارة الشرق[٤] .

---

(١) الزيدية : فرقة من الشيعة يعتقدون إمامة على عليه السلام ، والحسن من بعده والحسين ، ثم يفارقون الإمامية من بعد الحسن ، فيذهب الإمامية إلى إمامة على زين العابدين عليه السلام ، ولا تذهب الزيدية إلى ذلك لأنه لم يشهر سيفه فى منابذة (أعدائهم الأمويين) وذلك أحد شروط الإمامة عندهم . وقد اعتقدت الزيدية بإمامة زيد لأنه شهر سيفه ضد الأمويين .

ابن زهرة الحسينى : غاية الاختصار فى أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار ص ٨٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٥٢

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٣٧ — ٣٣٨

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 73.

وقد استطاع سلطان مصر بتدخله لحسم الخلاف القائم فى تلك البلاد بين أمرائها حينا وبين هؤلاء الأمراء والأئمة الزيدية حينا آخر أن يحتفظ لمصر بمكانها الأسمى فى بلاد اليمن ، فأصبح ملوكها يدينون بالطاعة لسلاطين مصر ويحرصون على إرسال الإتاوة إليهم خشية إقدام هؤلاء السلاطين على غزو تلك البلاد واستبدادهم بالسلطة فيها ، كما أنه بفضل حرص ملوك اليمن على إرضاء سلاطين مصر ، صارت تجارة الشرق ترد إليهم دون أن ينالها أى سوء .

(ح) الهنـــد

أسس قطب الدين أيبك سنة ١٢٠٦ م أول دولة إسلامية بهندستان[١] على أثر وفاة محمد الغورى سلطان الدولة الغورية[٢] ، وظلت سلالته تتوارث عرش تلك الدولة حتى سنة ١٢٨٧م حيث خلفتهم أسرة إسلامية تركية تعرف بالأسره الخلجية[٣] Khalgis (١٢٩٠ — ١٣٢٠ م) .

وقد شن المغول عدة غارات على هندستان فى عهـــد الملك المسعود علاء الدين سنجر الخلجى . وكان أشدها خطراً تلك الغارة التى اجتازوا فيها ممرات الهند الشماليه قاصدين دلهى سنة ١٢٩٧ م . ولما صاروا على مقربة منها جزع أعوان علاء الدين ونصحوا له بمسالمتهم ، فأبى الإصغاء إليهم وعهد لقائده ظفر خان Zafar Khan بملاقاتهم ، فأوقع بهم هزيمه منكرة[٤] .

ولما توفى السلطان علاء الدين سنة ١٣١٦ م ، قبض وزيره كافور على زمام الأمور فى يده وأجلس على العرش شهاب الدين عمر وهو طفل لا يتجاوز

---

(١) كانت دولة هندستان الاسلامية تشمل شمال الهند حتى مصب نهر الكنج
Stanly Lane-Poole, The Mohammedan Dynasties p. 295.

(٢) كانت الدولة الغورية تشمل أفغانســتان وهندستان . وقد ظلت قائمة من ســنة ٥٤٣ — ٦١٣ هـ (١١٤٨ — ١٢١٦ م) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 291

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit, pp 295 — 299.

(٤) Stanley Lane- Poole, Mediaeval India Under Mohammedan Rule pp. 96 — 97.

ست سنوات ، وسمل عيون أخوين له أكبر منه سنا ، وأساء معاملتهما ، كما طرد أمهما الملكة واغتصب أملاكها .

ولم يمض على إعتلاء شهاب الدين العرش أكثر من خمسة أسابيع حتى خرج عليه أحد إخوته وسمل عينيه واغتصب منه العرش وتلقب بقطب الدين مبارك شاه — وكان على النقيض من والده — فانصرف إلى اللهو واللعب ووقع تحت تأثير وزيره المنبوذ خسروخان الذى لم يلبث طويلا حتى تجرأ على سيده وقتله سنة ١٣٢١ ، ثم إرتقى العرش بدلا منه ، وأخذ يسيء السيرة فى البلاد ويسفك الدماء البريئة حتى لجأ المسلمون إلى تغلق — أحد القواد الذين وقفوا فى وجه المغول حين حاولوا اجتياح الهند فى عهد السلطان علاء الدين — فجمع بعض القوات ودخل دلهى لتخليصها من يد خسرو ؛ وسرعان ما تكلل مسعاه بالنجاح ، فقبض على هذا الوزير وقطعت رأسه ، ثم جمع تغلق النبلاء والضباط واقترح عليهم اختيار أحد أمراء الأسرة المالكة . ولم يكد ينته من حديثه حتى نادوا به جميعا ملكا عليهم وقدموا له فروض الطاعة(١) .

وقد قام تغلق بكثير من الأعمال الجليلة ، فأعاد الأمن إلى نصابه وأخضع الثائرين فى ولايات الدكن ، كما سار بنفسه على رأس حملة إلى بلاد البنغال وجعلها تدين بالطاعة له . ولما توفى سنة ١٣٢٥ م حين عودته من تلك البلاد ، خلفه ابنه الجخان Ulugh khan الذى تلقب بالسلطان محمد بن تغلق(٢) .

وعلى الرغم من إنصراف محمد بن تغلق إلى تنظيم شئون دولته ، وما لقيه من المتاعب فى ذلك السبيل ، فإن مطامعه تعدت حدود بلاد الهند ، ووضع منهاجا جديدا لسياسة دولته الخارجية ، يتضمن فتح الصين وخراسان وتوطيد

---

(١) Stanley Lane-Poole, Mediaeval India Under Mohammedan Rule, pp. 116-120

(٢) Stanley Lane- Poole, Op-Cit, pp. 121, 122, Allan, The Cambridge Shorter History of India p. 232.

علاقته بمصر ، بعد أن كانت همة أسلافه موجهة فقط إلى إنقاذ الهند من شر المغول .

وكان محمد بن تغلق يكرم وفادة الأجانب الذين يقصدون بلاده ويفضلهم على غيرهم من المواطنين ، حتى إنه كثيراً ما خصص للوافدين على دلهى إيراد بعض القرى ليكونوا منعمين برغد العيش أثناء إقامتهم ببلاده ، وليمكنوا من العودة فى أيسر حال(١) .

وقد قضى محمد بن تغلق — ببذله الأموال على الوفود التى هرعت إلى بلاده — على الكنوز والثروات المتجمعة لديه . وكان يأمل من وراء الترحيب بقدوم الأجانب إلى الهند أن يعاونوه على تنفيذ مشروع فتح خراسان الذى كان من بين مشروعاته المتطرفة . وقد جهز له جيشا ضخما ، استنزف أموال خزائنه ، حتى إنه فى العام التالى لإعداده ، عجز عن دفع نفقاته وإنتهى به الأمر بحله(٢) .

وكان محمد بن تغلق يرمى من وراء فتح خراسان إلى إضعاف نفوذ المغول ودرء خطرهم عن دولته . وقدحمله ذلك على إرسال وفدين الى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٣١م للسعى فى الحصول على معاونته ضدهم(٣)

وكان محمد بن تغلق قد بعث إلى الناصر ، قبل ذلك ببضع سنين رسله

---

(١) tanley Lane- Poo e , Mediaeval India Under Mohammedan Rule, p. S128.

(٢) Allan, The Cambridge Shorter History of india p. 237·

(٣) Sir William Muir The Mameldke or Slave Dunsty of Egydt. p. 73.

لم يشر المقريزى : (السلوك جـ ٢ ص ٤٢٢ ا) إلى ما طلبه سفراء محمد بن تغلق من الناصر واكتفى بقوله إن رسل ملك الهند قدمت إلى مصر سنة ٧٣١ هـ عن طريق بغداد ، وأن السلطان أكرمهم وخلع عليهم .

أما Lane-Poole فقد ذكر فى كتابه :

(A History of Egypt in the middle ages p. 310) أنه من المحتمل أن محمد ابن تغلق الذى كان يفكر فى فتح شرق فارس قد طلب من الناصر القيام بهجوم عاجل على مملكة المغول فى غرب فارس .

مزودين بهدايا من التحف الهندية الفاخرة وأربعة عشر حقا ، ملئت بفصوص الماس ؛ غير أنه حدث بينهم ما حملهم على التشاجر — وهم فى طريقهم إلى مصر — فقتل بعضهم بعضا . ولما نمى ذلك إلى الملك المجاهد صاحب اليمن ، قتل من بقى منهم واستحوذ على ما معهم من الهدايا (١) .

ولما وصل إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نبأ استيلاء الملك المجاهد صاحب اليمن على الهدايا المرسلة إليه من محمد بن تغلق ، نقم عليه وقبض على رسوله الذى كان قد قدم عليه إذ ذاك ومعه هديه منه وزجه فى السجن (٢) ، كما أنفذ إلى صاحب اليمن كتابا عاتبه فيه على عدم اهتمامه بإرسال هدية ملك الهند إليه وإستحواذه عليها (٣) .

ولم يكتف محمد بن تغلق بإنفاذ بعض رسله وهداياه إلى السلطان الناصر ، بل دخل أيضا فى مراسلات مع المستكفى بالله الخليفة العباسى بالقاهرة وابنه الحاكم بأمر الله أحمد ، ليمنحاه تقليدا بولايته على بلاده ، فاجاباه إلى طلبه (٤)

ولما آلت سلطنة هندستان إلى فيروز شاه (٥) (١٣٥١ – ١٣٨٨م) أذعن للخليفة العباسى بالقاهرة ، وبعث إليه يطلب منه تفويضا . فأرسل المعتضد بالله سنة ١٣٥٦ م بعثة تحمل تقليدا بتوليته سلطانا على دلهى ، وكتابا أذاع

---

(١) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ ص ١٨٠ ، عبدالحى ابن فخر الحسنى : نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ص ١٣٥

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ١٠١

(٣) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ٢ ص ١٨٠

(٤) Arnold, The Caliphate, p. 104 .allan, The Combridge Shorter History of India p. 240

(٥) لما توفى محمد بن تغلق سنة ٧٥١ هـ ، اتفقت كلمة رجال الدولة على تولية ابن عمه أبو المظفر كمال الدين فيروز شاه ، لكنه امتنع أول الأمر عن قبول السلطنة ، وما زال القضاة وأعيان الدولة يلحون عليه حتى قبلها ثم بايعوه فى المحرم سنة ٧٥٢ هـ .

وقد افتتح هذا السلطان عهده باقامة العدل والاحسان وأسس مدينة كبيرة بالقرب من دلهى سنة ٧٥٥ هـ سماها فيروز آباد ، كما عنى بنشر العلوم وتشجيع العلماء .

عبد الحى بن فخر الدين الحسنى : نزهة الخواطر وبهجة المسامع والخواطر ص ١١٠ — ١١٢

فيه أن الخليفة اعترف بباهمان شاه Bahman Shah ملكا على بلاد الدكن (١) Deccan ، ومن ذلك نرى كيف أصبح لسلاطين مصر والخلفاء العباسيين بالقاهرة مكانة سامية فى بلاد الهند .

(د) بلاد المغرب

كان من أثر المركز السامى الذى تبوأته مصر بين أمم العالم الإسلامى فى عهد أسرة قلاوون ، أن أصبح الملوك الشرقيون يخطبون ود سلاطينها ويستنجد بهم البعض لاستعادة ملكهم . فقدم الأمير أبو يحيى زكريا الحفصى (٢) على السلطان الناصر محمد سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وطلب منه أن يرسل معه حملة لتعاونه على إستعادة نفوذه بتونس ، على أن يكون نائباً له بهذه الإمارة ؛ فجهز معه السلطان فريقا من الجند (٣) . ولما وصل طرابلس التف حوله جماعة من العربان والمغاربة ؛ فاشتد بهم أزره ، واستطاع أن يضم هذه المدينة إلى حوزته ، ثم أقام فيها الخطبة للناصر محمد ؛ وما لبث بعد ذلك أن تابع سيره إلى تونس على رأس العساكر المصرية وظل يحاصر مدينة إفريقية ، حتى تيسر له فتحها ، ثم أشهد الأمير أبو البقاء خالد — صاحب تونس — على نفسه بالخلع ؛ وبذلك تيسر للامير أبى يحيى زكريا أن يستعيد

---

(١) Allan. The Cambridge Shorter History of India p. 246.

(٢) ينتسب الحفصيون إلى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وكان من أكبر أصحاب محمد بن تومرت بعد عبد المؤمن ؛ وقد تولى ابنه عبد الواحد إفريقية نائبا عن بنى عبدالمؤمن سنة ٦٠٣ هـ . وظل الحفصيون يتولون تونس ويخطبون باسم عبدالمؤمن والمهدى إلى سنة ٦٦٢ هـ حيث نقم أبو زكريا بن عبد الواحد على بنى عبدالمؤمن ؛ فخلع طاعتهم وأسقط اسم عبدالمؤمن من الخطبة وأبقى اسم المهدى وتملك افريقية وخطب لنفسه بالأمير المرتضى .

ولما استعاد ابنه أبو عبد الله محمد الحفصى ملكه بعد أن خلع منه ، تلقب وخطب لنفسه بالمستنصر بالله أمير المؤمنين أبى عبدالله محمد ابن الأمراء الراشدين ، واقتدى به من خلفه من الحفصيين فى التلقب بلقب أمير المؤمنين .

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٨٧ — ١٨٩ ،
Sir Thomes Arnold, The Caliphate, pp. 115-116.

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ٢ ص ١٣
ابن إياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ١٥٧

ملكه بتونس . ولما استقر له الأمر بها ، حذف اسم المهدى محمد بن تومرت من الخطبة وأمر الخطباء بأن يدعوا للناصر محمد بن قلاوون على المنابر (١) ؛ ومن ذلك نرى كيف ساعد هذا الأمير الحفصى على امتداد سلطنة المماليك فى عهد الناصر محمد إلى طرابلس وتونس ؛ فظلت تقام الخطبة فيهما باسمه من سنة ١٣١١ — ١٣١٧ م (٢) .

على أن الأمير أبا يحيى زكريا لم يتمتع طويلا بالملك ، فقد خشى على نفسه من الأمير أبى بكر أخى الأمير خالد الذى خلع من عرش تونس ، وخرج من إمارته سنة ٧١٧ هـ قاصداً فاس ، فظل بها فترة من الزمن ، ثم توجه إلى طرابلس ، وأبحر منها مع أهله إلى الإسكندرية سنة ٧١٩ هـ حيث عاش زاهداً فى الملك إلى أن توفى سنة ٧٢٩ هـ (٣) .

كذلك تبادل الناصر محمد مع يوسف بن عبد الحق سلطان المغرب الأقصى الرسل والهدايا ، فأرسل اليه وفداً مزوداً بالتحف . ولما قدم هذا الوفد على سلطان المغرب سنة ٧٠٦ هـ ، تلقاهم بمظاهر الحفاوة وبعث بهم إلى أقاليم مراكش ليتطوفوا بها ، غير أنه مالبث أن توفى ، وحذا خليفته أبو ثابت البزولى حذوه فى الترحيب بهم والتقرب إلى سلطان مصر ، فأنفذ معهم إلى الناصر هدية من الخيل والبغال والإبل (٤) . وعلى الرغم من أن هذه الهدية لم تصل إلى مصر بسبب اعتراض بعض قطاع الطرق لركب حجاج المغرب ورسل الناصر ؛ فقد توثقت عرا الصداقة بين الدولتين وازدادت رسوخا فى عهد السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب المرينى الذى حرص على

---

(١) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج ١ ص ٣٥١

(٢) Stnaley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 208.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢٩ — ١٣٠

ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ٢ ص ١١٣ — ١١٤

أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٩ — ١٩٠

(٤) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٢٠ — ٤٢١

التودد لسلطان مصر ، فكتب للناصر يبشره بفتح بجاية[١] والانتصار على تلمسان[٢] سنة ٧٣٧ ﻫ ، وزوال ما كان يعوقه عن وفادة الحاج[٣] ، كما بعث إليه كتاباً آخر سنة ٧٣٨ ﻫ مع الهدايا التى أرسلها بصحبة ابنته وحاشيتها[٤] ؛ وكان من بينها خمسمائة جواد مغربى بعدتها وبعض الأقمشة الحريرية والصوفية والكتانية والأوانى الخزفية وأصناف الدر والياقوت . وقد وزع السلطان هذه الهدية على الأمراء واستأثر منها لنفسه بالدر والياقوت[٥] . وفيما يلى بعض فقرات من كتاب السلطان أبى الحسن على المرينى[٦] : « . . . . إنا نحيط علم الإخاء الأعز ما كان من عزم مولاتنا الوالدة قدس الله روحها ونور ضريحها على أداء فريضة الحج الواجبة . . . فاعترض الحمام دون ذلك المرام ، وعاق القـــدر عن بلوغ ذلك الوطر ، . . . وإن لدينا من نوجب إعظامها . . . وهى محل والدتنا المكرمة . . . . وقد شيعناها إلى حج بيت الله الحرام . . . . . وحين شخص لذلكم الغرض الكريم موكبها . . . أصحبناها من حور دولتنا وأحظيائها ووجوه دعوتنا العلية وأوليائها ، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر . . . من أعيان بنى مرين . . . ، والعرب وأولاد المشايخ أولى الديانة والتقوى . . . وقصدهم من أداء فرض الحج قصدها . . . وسيرنا من تحف هذه البلاد إليكم ما تيسر فى الوقت تسييره . . . ومعظم قصـــدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذى خططناه بيدنا . . . إلى مسجد سيدنا ومولانا ، وعصمة ديننا ودنيانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . . » .

---

(١) بجاية : إحدى مدن المغرب الأسط وتقع على ساحل (البحر الأبيض) . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٦٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٠٩

(٢) تلمسان : تقع بالمغرب الأوسط ، وقد قامت بها مملكة تحد شرقا بافريقية وغربا بمملكة فاس (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٤٩)

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٩٥

(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٦٤ ب

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٤٤٠ — ٤٤١

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٩٩ — ١٠٣

ولما وصلت ابنــة سلطان بنى مرين وحاشيتها إلى القاهرة فى رمضان سنة ٧٣٨ ﻫ ، رحب بها الناصر محمد ثم نقلها بمن معها إلى إحدى دور القلعة وأحسن ضيافتهم ؛ فخصص لهم كل يوم ثلاثين رأساً من الغنم ونصف أردب أرز وقنطاراً من حب الرمان وربع قنطار سكر وغير ذلك مما يلزمهم من الشمع والتوابل ، ثم ندب السلطان الأمير جمال الدين متولى الجيزة للسفر معها إلى بلاد الحجاز ، وأمره بأن يعد لها ركبا خاصا بها ، كما كتب إلى أميرى مكة والمدينة بأن يكونا فى خدمتها[1] ، ثم بعث إلى السلطان أبى الحسن على المرينى يخبره بوصول وفد حجاج المغرب ؛ وكان مما جاء فى هذا الكتاب[2] : « . . . (لقد) استقبلناهم على بعد بالإكرام . . . وأسدلنا الخلع على جميعهم ، واحتفلنا بهم فى قدومهم ومقامهم وتشييعهم ... وعرضوا بين أيدينا ما أصحبتهم من الطرف والهدايا التى لا تحملها ظهور البحار فكيف ظهور المطايا . . . فتقبلنا أجناسها وأنواعها وتأملنا غرائبها وإبداعها ، وجعلنا يوما أو بعض يوم فى حواصلنا إيداعها ، ثم استصفينا منها نفائس آثرنا إليها إرجاعها وفرقنا فى أوليائنا اجتماعها . . . وسطرنا (هذا الكتاب) وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم ، وأمت أم القرى ركائبهم . . . وكتبنا إلى أمراء المدينة المشرفة أن تتلقى بالقبول الحسن مصحفه ، وتحله بين الروضة والمنبر . . . وعما قليل يتم حجهم واعتمارهم . . . ثم يصدرون إن شاء الله اليكم ركائبهم بالمنائح مثقلات . . . »

ولما عاد حجاج المغرب من بلاد الحجاز بعد أدائهم مناسك الحج ، جهز معهم الناصر هدية للسلطان أبى حسن على المرينى ، تشتمل على ثياب من الحرير المنسوج بالإسكندرية وخيمة مصنوعة بالشام ، فيها أمثال البيوت

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٦٠ ا
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٤١
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٨٩ — ٣٩٥

والقبـاب ، ومبطنة من الداخل بالحرير العراقى ، وصوان من الحرير مربع الشكل ، وعشرة جياد بسروج ولجم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة ومرصعة باللآلىء(١) .

ولما وصلت هذه الهدية إلى سلطان المغرب ، حازت قبوله ، وأعاد رسل الناصر بكتاب أثنى فيـــه عليه ؛ ومن ثم توطدت العلاقة بين مصر وبلاد المغرب الأقصى .

. . .

وكان صاحب تلمسان يراسل أيضاً الناصر ، ويحرص على التودد إليه رغم انحياز سلطان مصر لسلطان المغرب الأقصى الذى عرف بعدائه لإمارة تلمسان .

وقد أوضح عبد الرحمن بن أبى موسى بن يغمراسن صاحب تلمسان موقفه من الناصر فى هذه المكاتبة(٢) : « . . . تلقينا كتابكم بما يجب من التكريم . . . وعلمنا ما انطوى عليه من المنن والأفضال . . . ومن أعظم إذنكم لنا فى أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر . وقد وجب شكركم علينا من كل الجهات واتصلت المحبة والمودة طول الحياة ؛ غير أن فى قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم ، ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف ، ولنا القدرة على القيام بواجبكم والوفاء بكريم حقكم ، وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى والحمد لله من كيده . . . وقد توجه إلى بابكم الشريف قرابتنا الشيخ الصالح ... أبو زكريا يحيى ... وغرضنا أن تعرفوه بجميع ما يصلح لذلكم المقام الشريف مما فى بلادنا ، ويصلكم إن شاء الله فى أقرب الأوقات . . . »

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٥ ص ٤٤١

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٨٥ — ٨٧

(هـ) مملكة غرناطة

كانت سياسة مملكة غرناطة الخارجية موجهة إلى صد خطر الإسبان وتوطيد صداقتهم بالدولة المرينية بالمغرب الأقصى واستمالة سلاطينها ومن ثم قامت بين الدولتين علاقات سياسية ؛ فعاون بنو مرين دولة غرناطة فى كثير من الحروب التى قامت بها ضد المسيحيين فى إسبانيا[١] .

على أن سلطان بنى مرين كان أحيانا يمتنع عن إنجاد غرناطة كما حدث سنة ٧١٩ هـ ؛ فقد رفض أبو سعيد عثمان بن يعقوب المرينى أن يرسل نجدة إلى الغالب بالله أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر (٧١٣ — ٧٢٥ هـ) ، (١٣١٤ — ١٣٢٥ م) ملك غرناطة ؛ وعلى الرغم من ذلك فإن النصر كان حليفه بفضل الأعمال الحربية التى قام بها قائد جيشه واضطر الإسبان إلى طلب الهدنة ، فأجيبوا إلى طلبهم[٢] .

ولم يعمل ملوك غرناطة منذ قيام دولتهم سنة ٦٢٩ هـ على إيجاد صلات وثيقة بينهم وبين سائر العالم الإسلامى ، كما أن الأمراء المسلمين من ناحيتهم شغلوا عن ذلك بتوطيد سلطتهم فى دولهم ودفع خطر المغول عنهم ؛ ولذلك لم يكن هناك بد من أن يوجه ملوك غرناطة أنظارهم إلى سلاطين بنى مرين لقرب دولتهم منهم .

على أن ملوك غرناطة لم يظلوا منصرفين عن العالم الإسلامى فترة طويلة ، بل تبودلت بينهم وبين سلاطين المماليك فى مصر فى القرن الثامن الهجرى مراسلات تنم عن الرغبة فى توطيد الصلات بين الفريقين ؛ ويتبين لنا ذلك جلياً من هذا الخطاب الذى أرسله السلطان الغنى بالله ملك غرناطة (٧٥٥ — ٧٩٣ هـ) إلى يلبغا الخاصكى الذى كان مستأثراً بالسلطة دون سلطان مصر

---

(١) Camb. Med. Hist. vol VII p. 567 et Seq

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٩٨ — ١٩٩
Ency. Isl. art, Nasrids

الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ) ومما جاء فيه(١) :

« إلى الأمير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين . . . زين الأمراء ، علم الكبراء . . . الأمير الأوحد يلبغا الخاصكى . . . أما بعد حمد الله تعالى . . . فانا كتبنا إليكم كتب الله تعالى لكم حظاً من فضله وافراً . . . من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، دار ملك الأندلس . . . ولارائد (لنا) إلاالشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التى أنتم عنوان كتابها المرقوم . . . والتماس بركتها الثابته الرسوم ... وإلى هذا فإننا كانت بين أسلافنا ، تقبل الله تعالى جهادهم . . . وبين تلك الأبواب . . . مراسلة ينم عرف الخلوص من خلالها وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها . . . اشتقنا إلى أن نجددها بحسن منابكم ونواصلها بمواصلة جنابكم . . . نخاطبنا الأبواب الشريفة فى هذا الغرض مخاطبة خجلة من التقصير وجلة من الناقد البصير ... وهذه البلاد مباركة ... والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته وينفع بوسيلة النبى صلى الله عليه وسلم الذى نعول على شفاعته ويبقى تلك الأبواب ملجأ للاسلام والمسلمين . . . وإقامة لشعائر الحرم الأمين ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين . »

ولا شك أن هذا الخطاب يعطينا صورة صحيحة عما كان بين سلاطين مصر وملوك غرناطة من علاقات ودية ، وعن موقف هؤلاء الملوك من مصر وكيف كانوا ينظرون إليها نظرة إكبار وإجلال على اعتبار أنها مركز العالم الإسلامى .

على أن الأمر الجدير بالذكر أن حرص ملوك غرناطة على التقرب إلى مصر وتوثيق عرى الصداقة بها لم يظهر جلياً إلا منذ عهد محمد الغنى بالله ذلك السلطان الذى لم يكتف بالرسالة التى بعثها إلى يلبغا الخاصكى ، بل أنفذ سفارة وخطاباً آخر إلى السلطان الملك الأشرف شعبان يتضمن قيامه بمحاربة المسيحيين فى إسبانيا واستعادته ملكه سنة ٧٦٥ هـ بعد أن اغتصبه منه بعض

(١) المقرى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب جـ ٤ ص ٦٢ — ٦٣

أقاربه ؛ وفي هذا دليل قاطع على توثق العلاقات بين مصر وغرناطة وعلى روح الإخاء والمودة التي كانت سائدة بين حكام البلدين . وقد بعث الأشرف شعبان إلى محمد الغني بالله رسالة رد فيها على كتابه نقتطف منها ما يأتي [١] :

« . . . نوضح (لعلمك) الكريم أن كتابك ورد علينا مشتملا على المحاسن الغراء ، مغرباً بل معرباً لنا بحمرة لونه أن نسبته إلى الحمراء . . . فوقفنا على مضمونه جميعه ، وعلمنا ما فيه : من (استمرارك) على عادة (سلفك) في القيام بأمر الجهاد . وقطع دابر الكفرة ذوي الشقاق والعناد وتوطيد ما (لديك) من تلك البلاد . . . وأما غير ذلك فقد وصل رسول الحضرة العلية الينا وتمثل بمواقفنا المعظمة . . . وأقبلنا عليه ، وضاعفنا الإحسان اليه ، وأدى الينا ماتحمله من المشافهة الكريمة ورسائل المحبة والمودة القديمة ، فرسمنا بإجابة قصده . . . وقضاء شغله الذي حضر فيه ، وتسهيل مآربه . . . ومسامحة الحضرة العالية بما يتعين على ماقيمته ألفا دينار مصرية حسب ما عينه (رسولك) . »

ولم تقف العلاقات بين مصر وغرناطة عند حد تبادل السفارات والرسائل ، بل كان من أثر المركز السامي الذي تبوأته مصر بين أمم العالم الاسلامي أن أصبح مسلمو غرناطة يوجهون أنظارهم إلى سلاطينها لينقذوهم من الأخطار الخارجية التي هددت دولتهم وأزالتها في النهاية ؛ فحين شدد فردناند Ferdinand ملك قشتالة الحصار عليهم بعثوا بالرسل يطلبون النجدة من سلطان المماليك بمصر ؛ ولكن هذه المحاولة ذهبت أدراج الرياح ، فلم تأت اليهم أية مساعدة واضطر أبو عبدالله Boabdil ملك غرناطة إلى تسليم المدينة لفردناند[٢] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٤١٤ — ٤١٦ .

(٢) Stanley Lane Poole. Moors in Spain, P. 266.

الفصل الثانى

سياسة مصر إزاء بلاد النوبة والحبشة

(١) بلاد النوبة

كان نفوذ مصر قد استقر فى بلاد النوبة ، فى عهد الملك الظاهر بيبرس ، وظل ملوكها يؤدون الجزية ويقدمون فروض الطاعة لسلطان مصر إلى أن امتنع سيامون Shemamun ملك دنقلة عن دفعها . ولما علم بذلك قلاوون عول على غزو النوبة ، فأنفذ اليها جيشاً سنة ٦٨٥ ﻫ (١٢٨٦ م) تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر المسرورى والى القاهرة ، والأمير عز الدين الكورانى . كما كتب للأمير عز الدين أيدمر السيفى والى قوص أن يسير معهما بما عنده من المماليك السلطانية وعربان الأقاليم . ثم انقسم الجيش إلى نصفين ، سار أحدهما تحت قيادة المسرورى محاذيا شاطىء النيل الغربى ، أما الفريق الآخر فقد سار به أيدمر من البر الشرقى وهو الجانب الذى فيه مدينة دنقلة [١] .

ولم يحاول سيامون أن يوقف تقدم هذا الجيش ، بل كتب لنائبه جريس Gurays صاحب بلاد الجبل يأمره بأن يتبع سياسة الانسحاب المنظم حتى يتيسر له ضم بعض القوات اليه . وكان الجيش المصرى إذ ذاك يتابع زحفه وما لبث أن أوقع الهزيمة بالنوبيين فى دنقله وأسر جريس وفريقاً كبيراً منهم أما سيامون ، فقد ولى هارباً [٢] ، ثم ملك الأمير عز الدين أيدمر ابن أخت سيامون على بلاد النوبة وعين جريس نائباً له ، وأبقى معهما فريقاً من الجند ، كما قرر عليهما جزية يؤديانها لسلطان مصر كل سنة [٣] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٣٦ — ٧٣٧
النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٣ ب

(٢) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I p. 184

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٣٧

على أن سيامون سرعان ماعاد ثانية إلى دنقلة على رأس جيش كبير بعد رحيل الحملة المصرية ، وأوقع الهزيمة بالحامية التى أبقاها عز الدين أيدمر بالنوبة ، واستعاد بذلك مملكته[١] ، وفر كل من الملك الجديد ونائبه جريس بمن بقى معهما من الجند إلى مصر[٢] .

ولما علم السلطان الملك المنصور قلاوون أن سيامون استرد مملكه وتغلب على جنده ، جهز سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) مع متملك النوبة وجريس قوة من الجند بقيادة الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، وأمره بتسليم البلاد اليه ؛ غير أنه فى أثناء سيرهم توفى هذا الملك ؛ فأحل السلطان محله ابن أخت داود أحد ملوك النوبة السابقين ، وأرسل إلى عز الدين أيبك ، يأمره بأن يملكه . ثم تابعت الحملة سيرها ، وتقدمها جريس نائب ملك النوبة ومعه أولاد كنز ليحاولوا بالطرق السلمية عمل ما تستطيع القوات نيله بأسلحتها الحربية . ولما وصل الجنود دنقله ، وجدوا أن سيامون قدهرب إلى جزيرة تقع إلى الجنوب منها على مسافة خمسة عشر يوما[٣] ، فأخذوا يتعقبونه حتى اقتربوا من هذه الجزيرة التى لجأ اليها وبعثوا اليه يطلبون منه الدخول فى طاعتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل أمنوه ؛ فلم يقبل الاذعان لهم وسار منهزماً إلى جهة الأبواب ؛ فافترق عنه الأمراء والأسقف والقسس ومعهم الصليب الفضى الذى كان يحمله الملك فوق رأسه ، وتاج الملك ، وطلبوا الأمان من قائد الجند الأمير عز الدين أيدمر ؛ فأجابهم إلى طلبهم ، ثم مد سماط فى كنيسة المسيح (Jesus) بدنقله ، وملكوا الأمير الذى بعثه السلطان قلاوون ، وألبسوه التاج ، وقرروا أن يقوم أهل النوبة بأداء الأموال التى فرضها المسلمون عليهم بعد فتحهم لها ؛ وبعد أن أبقوا طائفة من العسكر مع ملك النوبة عادوا إلى القاهرة محملين بالغنائم سنة ١٢٩٠ م[٤] .

(١) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I p. 184

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٤٣

(٣) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I p. 184.

(٤) المقريزى : السلوك : جـ ١ القسم الثالث ص ٧٤٩ — ٧٥٢
النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٧٣ أ — ٢٧٤ ب

ولم يمض على رحيل الجند المصرى من بلاد النوبة زمن طويل ، حتى عاد سيامون متخفياً إلى دنقلة وأخذ يطرق كل باب حتى اجتمع حوله سائر عسكره ، ثم زحف على دار الملك ، واستطاع أن يستعيد ملكه دون أى عناء ؛ وما لبث بعد ذلك أن قتل الملك الذى حل محله ، كما قتل نائبه جريس ، وكتب إلى قلاوون يسأله العفو عنه ، ويتعهد له بدفع الجزية ، كما بعث إليه رقيقاً وبعض الهدايا(١) . وكان السلطان إذ ذاك مشغولا بأمور أخرى ، وفى حالة لا تساعده على رفض طلبه ؛ ومن ثم أقره ملكا على النوبة (٢) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كُتبت نسخة من الشروط التى تعهد سيامون باتباعها وحلفوه عليها ؛ وفيما يلى نص هذه اليمين(٣) :

والله والله ، وحق الثالوث المقدس ، والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور ، والمعمودية ، والأنبياء ، والرسل ، والحواريين ، والقديسين ، والشهداء الأبرار ، وألا أجحد المسيح كما جحده بودس ، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه ، وألا أكون بودس الذى طعن المسيح بالحربة . إننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك (المنصور قلاوون) ، وإنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وإنى ما دمت نائبه لا أقطع المقرر علىّ فى كل سنة تمضى : وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان خالصاً من كل حق ، والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها ، وأن يكون علىّ فى كل سنة كذا وكذا . وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عينا . وإننى لا أترك شيئاً من السلاح ولا

Budge, A History of Ethiobia, Nubia and abyssinia vol I p. 106 (١)

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٥٣

Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan p. 184.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٩٠ — ٩١ .

أخفيه، ولا أمكن أحداً من إخفائه، ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو عن شيء من هذا المذكور أعلاه كله، كنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلى إلى غير الشرق، وأكسر الصليب، وأعتقد ما يعتقده اليهود، وإنني مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت (بها) السلطان فى وقته وساعته. ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم يكن مصلحة. وإنى ولىّ من والى السلطان وعدو من عاداه، والله على ما نقول وكيل.»

على أن سيامون ما لبث أن عاد إلى إثارة القلق لمصر؛ فأنفذ إليه الأشرف خليل بن قلاوون، حملة لإخضاعه، ثم انتهى به الأمر بأن حل محله Boudemma الذى كان قبل قدومه إلى النوبه مسجونا بمصر. وقد حمل الأمير عز الدين أيبك الأفرم تقليد توليته، كما تسلم منه ومن القسس فى دنقلة يمين الإخلاص والولاء للسلطان، ثم عاد إلى مصر بعد أن خلف وراءه ببلاد النوبة حامية من المشاة، وكمية كبيرة من القمح(١).

وقد حرص ملوك النوبة منذ ذلك الوقت على إظهار ولائهم لسلاطين مصر؛ فقدم أمَىْ Amái بنفسه إلى القاهرة (١٣٠٤ — ١٣٠٥ م) مزوداً بالهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون(٢).

ولما ولى كرنبس Kerenbes آخر ملوك دنقلة المسيحيين عرش تلك البلاد ظل يدفع الجزية، لكنه كان ألين عريكة من أسلافه؛ ولذلك بعث الناصر إلى النوبة حملة فى سنة ١٣١٥ م، وعول فى العام التالى على تمليك الأمير النوبى المسلم عبد الله برشنبو Abdulla ibn Sambu على أهل بلاده؛ ومن ثم جهز معه حملة سنة ١٣١٦ م تحت قيادة الأمير عز الدين أيبك.

ولم يكد يصل إلى كرنبس نبأ مسير هذه الحملة إلى بلاده حتى بعث إلى

(١) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I, p. 185.

(٢) المقريزى: السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٧ — ٨
Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan, vol I, P. 186.

السلطان ابن أخته كنز الدولة ومعه كتاب يسأله فيه أن يشمله بعطفه ، ويوليه الملك ، وقال له : « إذا كان يقصد مولانا السلطان أن يولى البلاد لمسلم ، فهذا مسلم وهو ابن أختى والملك ينتقل إليه من بعدى » ؛ غير أن السلطان لم يجب كرنبس إلى طلبه واعتقل كنز الدولة (١) .

ولما وصل الجيش المصرى إلى دنقلة ، اضطر كرنبس وأخوه أبرام Abraam إلى الفرار ، فأخذ الجنود يطاردانهما حتى تمكنوا من القبض عليهما ثم أرسلا إلى القاهرة ، وتقلد عبدالله برشنبو عرش دنقلة . غير أنه لم يتمتع طويلا بالحكم ؛ فقد احتال كنز الدولة على السلطان حتى أذن له بالسفر إلى أسوان لجمع ما عليه من الخراج ، وما لبث بعد ذلك أن رحل قاصداً دنقلة . وكان عبد الله برشنبو إذ ذاك قد غير كثيراً من نظم بلاد النوبة وتملكه شيء من الكبر والزهو لم تجر عادة ملوك النوبة بمثله ، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة ، فكرهوا حكمه . فلما قدم إليهم كنز الدولة ، احتفلوا بلقائه وحيوه بتحية الملك وهى قولهم « موشاى ، موشاى » ، ودخلوا تحت طاعته . وما لبث كنز الدولة أن أوقع الهزيمة بعبد الله برشنبو وقتله ، وتقلد عرش النوبة ؛ غير أنه لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله وتعظيما لهم وحفظا لحرمتهم .

ولما بلغ السلطان نبأ قتل برشنبو وتملك كنز الدولة سنة ١٣١٧م ، أطلق سراح أبرام أخى كرنبس وأرسله إلى النوبة بعد أن وعده بأن يملكه عرش تلك البلاد ، ويفرج عن أخيه كرنبس إذا تمكن من القبض على ابن أخته كنز الدولة ، وبعث به إليه .

ولما قدم أبرام إلى دنقلة ، استقبله كنز الدولة أحسن استقبال ، وسلم إليه مقاليد الملك وصار فى خدمته ؛ غير أن أبرام ما لبث أن قبض عليه وعزم على إرساله إلى مصر ؛ لكنه توفى ثم اجتمع أهل النوبة حول كنز

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٩٥

الدولة وملكوه عليهم(١) .

على أن الناصر محمد ما لبث أن أعاد الكرة على كنز الدولة ، فجهز مع كرنبس سنة ١٣٢٣ م حملة لمحاربته ، لكنه سرعان ما ولى هاربا وتقلد كرنبس الحكم للمرة الثانية . ولما غادرت الجنود المصرية بلاد النوبة ، عاد كنز الدولة إلى الظهور ونصب نفسه ملكا على تلك البلاد(٢) .

وكان من أثر سياسة الحزم التى اتبعها الناصر إزاء بلاد النوبة وتدخله فى تعيين ملوكها أن أصبحت لمصر مكانة سامية فى تلك البلاد ؛ فحرص ملوكها على دفع الاتاوة المقررة عليهم ؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك بل صار الخطباء فى بلاد النوبة منذ أن ولى عرشها أولاد الكنز يدعون على المنابر للخليفة العباس بالقاهرة وسلطان مصر(٣) .

على أن بلاد النوبة وإن كانت قد خضعت خضوعا حقيقيا للنفوذ الإسلامى فى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس(٤) ، فإن المسيحية لم يضعف شأنها فى تلك البلاد إلا بعد أن مهد السلطان الناصر السبيل لتمليك أمير نوبى مسلم عليها واعتلى عرشها ملوك مسلمون من أولاد كنز الدولة(٥) الذين أصبحوا أصحاب السيادة على جزء كبير من مصر العليا ، وظلوا حكاما على النوبة حتى فتح السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م(٦) .

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٩٦

المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٦١ — ١٦٢

Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I pp. 186-187

(٢) Macmichael, Op, Cit vol I p. 187.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٧٨ ، جـ ٨ ص ٦

(٤) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.

(٥) أولا الكنز : أصلهم من ربيعة ، وقد هاجر كثير منها إلى مصر سنة ٢٤٠ هـ (٨٤٥ م) فى خلافة المتوكل العباسى ونزلوا بأعالى الصعيد . ثم بسطوا نفوذهم على منطقة أسوان ولما ظفر شيخهم أبو المكارم عبة الله سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٦ م) بأبى ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله الفاطمى ، منحه هذا الخليفة لقب كنز الدولة ، وأصبح صاحب هذا اللقب يسمى فيما بعد أمير أسوان ، كما صارت ربيعة تعرف ببنى كنز .

المقريزى : البيان والاعراب عما نزل بمصر من الأعراب ص ٤٨ ، ٥٥

Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I pp. 148-150

(٦) Budge, A History of Ethiopia, nubia, and Abyssinia vol I p. 106

وقد أخذ كثير من القبائل العربية الرحالة فى المهاجرة إلى السودان منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ؛ فأطلقت جهينة[١] وحلفاؤها من فزارة قبائلهم فى الجنوب والغرب تاركين بنى كنز وعكرمة فى شمال النوبة ومصر العليا[٢].

ولما عاثت جهينة فسادا فى بلاد النوبة وعجز ملوك تلك البلاد عن إخضاعهم اضطروا إلى مصاهرتهم مصانعة لهم ؛ وبذلك انتقل الملك فى بلاد النوبة إلى بعض أبناء جهينة من أمهاتهم طبقا لنظام وراثة العرش السائد عند ملوك تلك البلاد الذى يقضى بتمليك الأخت وابن الأخت .

على أن هؤلاء العرب لم يحسنوا سياسة الملك ، كما لم ينقد بعضهم إلى بعض وأصبحوا شيعا وأحزابا ؛ وفضلا عن ذلك فإنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من التبدى ، ولم يبق لهم أى مظهر من مظاهر الملك[٣] .

(ب) بلاد الحبشة

كان من أثر تبعية كنيسة الحبشة[٤] لبطاركة الاسكندرية وعدم تعيين أى مطران بها إلا من طائفة الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية[٥] ، أن صار ملوك تلك البلاد يبعثون إلى سلاطين مصر بهداياهم وكتبهم مع بعض الرسل يطلبون فيها تعيين مطران لهم[٦] ، كما حرصوا على إحكام أواصر الصداقة معهم . وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح فى عهد الظاهر بيبرس ؛ فأرسل إليه

---

(١) جهينة إحدى قبائل اليمن التى هاجرت إلى مصر واستقرت فى أعالى الصعيد .
(المقريزى: البيان والاعراب عما نزل بمصر من الأعراب ص ٣٨)

(٢) Macmichael, A History of the Arabs in the Sudan vol I p. 187.

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٢٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٤) كان أغلب أهالى الحبشة يدينون بالمسيحية على المذهب اليعقوبى . وقد بلغ من تعصبهم لهذا المذهب أن صاروا يعادون الطائفة الملكية من النصارى ؛ فإذا دخل أحد رجالها بلاد الحبشة أظهر أنه يعقوبى خشية إلحاق الأذى به وقتله .
(المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٣)

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٥ ص ٣٠٨

(٦) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٣

ملكها كتابا يتودد فيه إليه ويطلب منه مطران ، فرد عليه بيبرس بكتاب أظهر فيه اهتمامه بالعمل على تلبية طلبه (١) .

وقد ظل ملوك الحبشة يعملون على التودد لسلاطين مصر ويبعثون الرسل مزودين بالهدايا إلى أن ولى عرش تلك البلاد Amda Seyon الذى عرف باسم « جبره مصقل » Gabra Maskal بعد تقلده زمام الحكم (٧١٢ - ٧٤٤ هـ ، ١٣١٢ – ١٣٤٤ م) ، فأنفذ كتابا مع بعض رسله الى الناصر محمد سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) يطلب فيه إعادة ما خرب من الكنائس بالديار المصرية ، كما التمس منه أن يعامل النصارى بالحسنى ، وهدده بأنه إذا لم يرعاهم رعاية حسنة ، عامل بالمثل رعاياه المسلمين وخرب مساجدهم ، ولم يكتف بذلك بل أنذره بتحويل مجرى النيل إلى الصحراء (٢) ، وقال : « نيل مصر الذى به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها ، مجراه من بلادى وأنا أبيده » ؛ فسخر منه السلطان وأعرض عن رسله ثم ردهم الى بلادهم (٣) .

وقد قضى « جبره مصقل » معظم حكمه فى شن الحروب ضد مسلمى الحبشة . ولما اشتدت وطأته عليهم قدم الفقيه عبدالله الزيلعى إلى مصر وطلب من السلطان أن يعمل على منع هذا الملك من التمادى فى سياسته العدائية نحو مسلمى بلاده ؛ فأصدر مرسوماً للبطرك بأن يرسل لملك الحبشة ، كتاباً يأمره فيه بالإقلاع عن إلحاق الأذى برعاياه المسلمين . فكتب البطرك اليه خطاباً أنكر فيه الأعمال التى اقترفها مع مسلمى الحبشة وذكر له أنه حرم ارتكاب هذه الأفعال (٤) .

وعلى الرغم مما كان يتمتع به ملوك الحبشة من نفوذ عظيم فى بلادهم ،

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٢١٩ — ٢٢٢
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ١٢٠ ، ٤٠ — ٤١
الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٢٣ — ١٢٤

(٢) Budge, A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia. vol 1 pp.288.289

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٦٦ والمقريزى السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٢٧٠

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٣٣

فإنهم كانوا يحرصون على اكتساب رضاء بطاركة الإسكندرية واحترام أوامرهم وتقديسها ؛ فاذا أرسل البطرك إلى أحدهم كتابا ، خرج والى الاقليم المجاور لحدود المملكة لاستلامه ، ثم يضعه فوق علم ويسير به فى موكب من القسس والشمامسة وولاة الأقاليم التى يمر بها فى طريقه ؛ ويظلون على هذه الحال حتى يصلوا «أمحرا» [١] فيخرج صاحبها بنفسه لاستقبالهم ويتسلم المطران الكتاب ؛ غير أن الملك لا يستطيع أن يتصرف فيه إلا بعد أن يعقد اجتماعا بالكنيسة ثم يتلى عليه وهو واقف ، ولا يجلس حتى ينفذ ما أمر به [٢] .

لهذا لا نعجب إذا رأينا «نوايا كرستس» Newaya Krestos ملك الحبشة (١٣٤٤ — ١٣٧٢ م) الذى خلف أباه « جبره مصقل » يلقى القبض على من ببلاده من التجار المصريين ويمنع القوافل المصرية من دخول حدود بلاده حين وصله نبأ اعتقال Abbà mark بطرك الاسكندرية بسبب رفضه دفع الضرائب الفادحة التى طلبها منه سلطان مصر .

ولما رأى المصريون أن ملك الحبشة — بوقوفه فى وجه التجارة المصرية — أنزل خسائر فادحة بالتبادل التجارى بين مصر والحبشة ، ضجوا بالشكوى ؛ فلم ير السلطان بدآ من أن يطلق سراح البطرك ، ثم طلب منه أن يستخدم نفوذه لدى ملك الحبشة ليمهد للقوافل المصرية سبيل سيرها كما كانت الحال من قبل [٣] .

على أن الحروب لم تنقطع بين ملوك الحبشة ومسلمى بلادهم ، فقد شغل

---

(١) يقول المقريزى (الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٦) إن أمحرا كانت فى عهده « مدينة مملكة الحبشة . وملكها يتسلط على جميع ممالك الحبشة السبع وهى : « أوفات » و « دوارو » و « رابينى » و « هدية » و « شرخا » و « باق » و « دارة » ، ويأخذ منها القطيعة فى كل سنة وهى قماش وغيره . »

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨ — ٣٠٩

(٣) Budge, A History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia vol I pp. 298-299

Newaya Moryam (١٣٧٢ — ١٣٨٢ م) بمحاربتهم حتى توفى وخلفه أخوه داود الأول David I (١٣٨٢ — ١٤١١ م)، فاشتدت فى عهده نار الحرب بين العرب والأحباش المسيحيين (١) . ولما علم بذلك الظاهر برقوق سلطان مصر ،طلب من متى بطرك الاسكندرية سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٨ م) أن يرسل إلى داود ملك الحبشة كتابا ، يأمره فيه بالكف عن شهر الحروب عليهم . وقد حمل هذا الكتاب إلى ملك الحبشة برهان الدين الدمياطى (٢) ، ثم قدمت رسل الملك داود ومعهم كتاب منه إلى السلطان وهدية محملة على عشرين جملا ، تشتمل على كثير من طرائف الحبشة ؛ ومن بين محتوياتها قدور ملئت بقطع من الذهب على شكل الحمص (٣) .

---

(١) Budge, a History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia vol I pp. 299-300

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٣٣

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الثانى ص ٣٨٣ (طبعة كاليفورنيا)
Budge A History of Ethiopia. Nubia, and Abyssinia vol 1 p. 301

الفصل الثالث

موقف مصر من المغول

(ا) مغول فارس

كان المغول منذ أيام هولاكو يتطلعون إلى فتح مصر . وقد رأى سلاطين المماليك بدورهم أن يضعفوا من شوكتهم وينتقموا منهم لما حل بالإسلام من الخطوب على أيديهم .

ومما لا شك فيه أن موقعة عين جالوت التى دارت بين قطز وهولاكو كانت صدمة قوية لهؤلاء المغول لعظم الخسائر التى حلت بهم فى الرجال والعتاد . وقد أزمع هولاكو بعد تلك الهزيمة النكراء التى حلت به على مهاجمة المماليك والقضاء عليهم ، لكن الموت عاجله سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٥ م) . فلما خلفه ابنه أباقا بادر إلى العمل على إعادة سمعة المغول الحربية إلى سابق عهدها ، ومن ثم سار على سياسة أبيه فى مناوأة المماليك ومصادقة الصليبين ، فراسل كلمنت Clement IV ، وجريجورى العاشر Gregory X ، ونيقولا الثالث لتنظيم حملة مشتركة ضد المماليك فى مصر وسورية [١] .

على أن الآمال التى كان يرمى أباقا إلى تحقيقها من وراء محالفته المسيحيين لم تتحقق ؛ فقد ضعفت الروح الدينية والمعنوية عند الصليبين ، كما ضعفت سلطة البابوات حتى أصبحوا أتباعا للأباطرة والملوك .

وقد ظهر العداء فى عهد أباقا خان بينه وبين بيت جغطاى Toghatay وعلى رأسه بوراك Bûrak الذى انضم إليه أحد أقربائه واسمه تكودر Tukudor سنة ١٢٦٨م - وكان هولاكو قد ولاه بعض بلاد جورجيا -

---

(١) Browne Literaryt History of Persia pp. 18—19 ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٠٢ — ١٠٣

فأغار على حدود بلاد أباقا الشرقية وتفاقم شره وهدد خراسان وبلاد فارس؛ وكان ذلك مما أقلق بال أباقا واضطره إلى مناضلته طويلا حتى استطاع اقصاءه عن بلاده سنة ١٢٧٩ م .

ولاشك أن هذا الخلاف الذى قام بين أفراد البيت المغولى قد ساعد على ضعف ايلخانات المغول فى فارس الذين أصبحوا يحاربون أقرباءهم من ناحية ، ويحاربون سلاطين المماليك من ناحية أخرى .

وقد نجح السلطان الملك الظاهر بيبرس فى دفع خطر المغول عن مصر؛ فهزم جند هولاكو قبيل اعتلائه العرش ، كما أوقع بهم هزيمة منكرة فى موقعة البستان Abulustayn سنة ١٢٧٧ م ؛ ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى رحل أباقا إلى قيسارية ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها. ولما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب (١) .

وعلى الرغم من مهاجمة المغول لقيسارية التى استولى عليها المماليك ، فإن الملك الظاهر بيبرس لم يعد لمقاتلتهم لأنه بعد إستيلائه على هذه المدينة وإتجاهه إلى حارم ، أمر بتسيير جيشه إلى مصر ، كما أن الجيش المصرى كان قد بلغ به الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعا عن قيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاقى الجيش فى هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهرير الشتاء ، وفضلا عن ذلك فإنه بعد أن فارق قيسارية إلى دمشق لم يلبث أن عاجلته منيته قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردهم على أعقابهم (١) .

لم يقف تيار العداء بين المغول فى فارس والمماليك فى مصر بعد وفاة الملك الظاهر بيبرس ، بل ظل مستحكما حتى استقر الأمر للسلطان الملك المنصور

---

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp 28 - 29
الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٠٨

(٢) كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١٠٩

قلاوون ، فأخذت جيوشهم تجتاح الحدود السورية ثانيـة مرتـكبين نفس الفظائع التى ارتكبوها منذ عشرين عاماً (١) ؛ وكان مما شجعهم على ذلك ماسمعوه من إختلاف كلمة المماليك ، هذا إلى إعتقادهم أن سنقر الأشقر الذى خرج على طاعة الملك المنصور قلاوون ونادى بنفسه سلطانا على دمشق ، سيعمل على مؤازرتهم ويتفق معهم على قتال سلطان المماليك(٢) .

على أن الملك المنصور قلاوون رأى من ناحيته أن يوجه همته إلى صد غارات المغول ؛ فلم يكد يعلم أنهم سائرون فى طريقهم إلى بلادالشام حتى أنفذ اليهم سنة ٦٧٩ هـ حملة عسكرت بحماه ، كما أن أمراء المماليك من ناحيتهم أرسلوا إلى سنقر الأشقر يقولون له :«وهذا العدو قد دهمنا وماسببه إلا الخلف بيننا وما ينبغى هلاك الإسلام » ، وكان لذلك القول أثره فى نفس سنقر الأشقر ؛ فمنع جنده من محاربة المصريين .

ولما وصلت الأنباء بزحف المغول إلى أطراف حلب ، أخلاها أهلها ومن كان معسكراً فيها من الجنود ونزحوا إلى حماة وحمص ؛ ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عين تاب وبغراص ودربساك ، ودخلوا حلب نفسها فأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ودور الأمراء كما ارتكبوا فى هذه الولاية من صنوف الوحشية والعسف ما اضطر الأهالى إلى الفرار نحو الجنوب ، ثم رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب والغنائم . أما أهالى دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب ، وهاجر منهم خلق كثير إلى مصر ليحتموا فيها (٣) .

على أن المغول سرعان ما عاودوا الكرة على بلاد الشام سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ؛ فنازل أباقا خان قلعة الرحبة ، وتقدم منكوتمر بن هولاكو

(١) Muir, The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt p. 34

(٢) ذكر المقريزى (السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٦٩٧) أن الأمير طرنطاى لما أسر بعض أصحاب منكوتمر ، ومن بينهم حامل محفظته ، عثر فيهـا على كتب من سنقر الأشقر وأتباعه من الأمراء ، يحرضون فيها المغول على دخول الشام ويعدونهم المساعده .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٦٨٠

حتى وصل حماه ؛ وكان جيشه يضم عدة فرق من الأرمن والكرج ، وكذلك الفرنجة . وقد التقت هذه الطوائف بجيوش السلطان الملك المنصور قلاوون التى كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كبير من الأكراد والتركمان ؛ ثم دار القتال بين الفريقين بالقرب من حمص ، حيث حمل جيش المماليك على المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم وقتل كثير منهم (١) .

ولما علم أباقا خان بانهزام أتباعه — وهو على الرحبة — رحل إلى بغداد ، ولحق به من نجا من المغول ، وفيهم أخوه منكوتمر الذى استاء منه أباقا لعجزه عن إلحاق الهزيمة بجند المماليك وقال له : « لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت » .

وقد كتبت البشائر بهذا النصر الذى أحرزه المماليك إلى سائر البلاد واحتفل أهالى القاهرة باستقبال السلطان الملك المنصور قلاوون على أثر عودته مظفراً من بلاد الشام (٢) .

ولما توفى أباقا خان ، خلفه أخوه تكودار سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) الذى اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام قبل سلطنته (٣) ، واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامى ؛ فأرسل كتبا إلى فقهاء بغداد وإلى قلاوون سلطان المماليك فى مصر ، أعلن فيها رغبته فى حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه ، كما أظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١١٣ ب
النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٨ — ٩
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٦٩٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٠٤ — ٣٠٦
(٣) نشأ تكودار هذا على المسيحية وتعمد فى صباه باسم نيقولا . ولما بلغ سن الرشد ، اعتنق الاسلام وذلك على أثر اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم .
Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 229
Browne, Literary History of Persia. vol. III pp. 25—26.

وقد بعث تكودار أحمد بنبأ اعتناقه الاسلام إلى السلطان الملك المنصور مع رسولين هما الشيخ قطب الدين محمود الشيرازى قاضى سيواس وأتابك السلطان مسعود ، سلطان السلاجقة الروم ، وفيما يلى نص هذا الكتاب (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، باقبال قان فرمان أحمد إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا ، وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل ، وأخينا الكبير ، نوبة الملك ، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا ، وأهدى عقليتها إلينا فاجتمع عندنا فى قوريلتاى المبارك — وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء — جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ، ومقدمو العساكر ، وزعماء البلاد . واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير فى إنفاذ الجم الغفير ، من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبتها من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها ، وشديد بطشتها ، إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها صم الأطواد وعزمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ،

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ — ٦٨

فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين تلك الفتن الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا الله إليه : من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وأننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال إلا بعد إيضاح الحجة ، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح ، إذ كان الشيخ قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ؛ فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما تنطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يجب ما قبله وأنه تعالى ألقَ فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، ونشاهد أن عظيم نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، ألا يحرموها بالنظر إلى سائر الأحوال فكل يوم هو فى شان . فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعى الاعتماد وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ؛ فلينتظروا إلى ماظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره ، فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، فى إيراد كل أمر وإصداره تقديماً لناموس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى ، إجلالا وتعظيما . وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف . وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها . ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد شيئاً مما قرر أولا . وأمرنا بتنظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ، وتسيير قوافلها ، وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين

إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم ؛ وحرمنا على العساكر والقراغولات والشحانى فى الأطراف التعرض لهم فى مصادرهم ومواردهم . وقد كان قراغول صادف جاسوسا فى زى الفقراء كان سبيله أن يهلك ، فلم نهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى وأعدناه إليهم . ولا يخفى عنهم ما كان فى إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم فى زى الفقراء والنساك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم فى تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم مافعلوا ، وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار . فإذا أمعنوا الفكر فى هذه الأمور وأمثالها لايخفى عنهم أنهم أخلاق جبلية طبيعية ، وعن شوائب التكلف والتصنع عرية . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعى المضرة التى كانت موجبة للمخالفة ، فإنها إن كانت طريقاً للذب والذود عن حوزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين ، وإن كانت لماسبق من الأسباب فمن يتحرى الآن طريق الصواب فان له عندنا لزلفى وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم (طريقتنا) وما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافنا ، وحرمنا على جميع العساكر العمل بخلافها ، لنرضى الله والرسول ، ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلى بنور الإئتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ، ويشكر سابغ ظلها البوادى والحواضر ، وتقر القلوب التى بلغت من الجهل الحناجر ، ويعفى عن سالف الجرائر . فان وفق الله سلطان مصر إلى مافيه صلاح العالم وانتظام أمور بنى آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثق ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة . . . . وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن

بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع معرفة هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) والله تعالى الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، إن شاء الله تعالى . »

وقد علق السير توماس أرنولد (١) على ما كان للإسلام من أثر فى نفس تكودار أحمد ، ذلك الأثر الذى وضح وضوحا جليا فى كتابه إلى سلطان المماليك ، بقوله : « إن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عند ما يتحول فجأة من قراءة مااقترفوه من الفظائع وماسفكوه من الدماء إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير التى أعلنت عن نفسها فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك فى مصر والتى يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولى . »

وقد رد قلاوون على ايلخان المغول بكتاب رحب فيه بدخوله الإسلام وبزوال الأحقاد التى كانت بين ايلخانات فارس والمماليك فى مصر ؛ وإليك ماجاء فى هذا الكتاب (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور ، كلام قلاوون إلى السلطان أحمد ؛ أما بعد حمد الله الذى أوضح بنا ولنا الحق منهاجاً ، وجاء فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذى فضله الله على كل نبى نجى به أمته وعلى كل نبى ناجا ، صلاة تنير مادجا ؛ فقد وصل الكتاب الكريم الملتق بالتكرم ، المشتمل على النبأ العظيم ، من دخوله فى الدين ، وخروجه عمن سلف من العشيرة الأقربين .

ولما فتح هذا الكتاب بهذا الخبر العلم المعلم والحديث الذى صحح عند أهل الاسلام إسلامه وأصح الحديث ما روى عن مسلم ، توجهت الوجوه بالدعاء

(١) The Preaching of Islam p. 232.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٣

إلى الله سبحانه فى أن يثبته على ذلك بالقول الثابت ، وأن ينبت حَبّ حُبّ هذا الدين فى قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت ، وحصل التأمل للفصل المبتدإ بذكره من حديث إخلاصه فى أول عنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ، ودخوله فى الملة المحمدية ، بالقول والعمل والنية . فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام وألهمه شريف هذا الإلهام ؛ فحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين إلى هذا المقال والمقام ، وثبت أقدامنا فى كل موقف إجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام .

وأما إفضاء النوبة فى الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير اليه وإفاضة جلابيب هذه النعمة العظيمة عليه وتوقله الأسرة التى طهرها الله بإيمانه ، وأظهرها بسلطانه ، فقد أورثها الله من اصطفاه من عباده ، وصدق المبشرات من كرامة أولياء الله وعباده .

وأما حكاية اجتماع الاخوان والأمراء الكبار ومقدمى العساكر وزعماء البلاد فى مجمع قوريلتاى الذى ينقدح فيه زند الآراء ، وأن كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه قد فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم ، وانتهت اليه أهواؤهم ؛ فوجده مخالفا لما فى ضميره ، إذ قصده الصلاح ورأيه الاصلاح ، وأنه أطفأ تلك النائرة ، وسكن تلك الثائرة ؛ فهذا فعل الملك المتق المشفق من قومه على من بق ، المفكر فى العواقب بالرأى الثاقب ؛ وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم الغرة ، لكانت هذه الكرة هى الكرة ؛ لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فلم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى .

وأما القول منه إنه لا يجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة وتركيب الحجة ، فبانتظامه فى سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته متركبة على من غدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة ، فإن الله سبحانه وتعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا

واجتهادنا إنما هو لله ؛ وحيث قد دخل معنا فى الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذهول ، وبارتفاع المنافرة تحصـــل المظافرة . فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره فله أهل بأهل فى كل مكان وجيران بجيران بكل أرض .

وأما ترتيب هذه الفوائد الجمة على إذكار شيخ الاسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله تعالى من بركاته ، فلم يزل لى قبله كرامة كهذه الكرامة ، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار إسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الاسلام مجتمعاً كأحسن ما كان ؛ ولا ينكر لمن بكرامته ابتداء هذا التمكين فى الوجود ، أن كل حق ببركته إلى نصابه يعود .

وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما فى إبلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من أحوال أحواله ، وخطرات خاطره ومسطرات ناظره ، ومن كل ما يشكر ويحمد ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الاشارة إلى أن النفوس إن كانت تتطلع فى إقامة دليل ، تستحكم به دواعى الرد الجميل ، فلينظر إلى ماظهر من مآثره ، فى موارد الأمر ومصادره : من العدل والاحسان بالقلب واللسان والتقدم بإصلاح الأوقات ؛ فهذه صفات من يريد لملكه الدوام ، فلما ملك عدل ، ولم يلتفت إلى لوم من عدا ولا لوم من عذل ؛ على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التى تستنطق بالدعاء الألسنة ، فهى واجبات تؤدى ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أو عليه يقتصر ، أو له يدخر ، إنما يفتخر الملك العظيم بأن يعطى ممالك وأقاليم وحصون ، أو يبذل فى تشييد ملكه أعز مصون .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحانى بالأطراف التعرض إلى أحد بالأذى و (تحتيم) إصفاء موارد الواردين والصادرين من القذى ؛

فمن حين بلغنا تقدمه بذلك تقدمنا أيضاً بمثله إلى سائر النواب بالرحبة وحلب وعينتاب ، تقدمنا إلى مقدم العساكر بأطراف تلك الممالك ، بمثل ذلك ، وإذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان ، تحتم إحكام هذه الأحكام وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أمسك وأطلق ، وأن بسبب من تزيا من الجواسيس بزى الفقراء ، قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن ، فهذا باب من ذلك الجانب ستروه ، وإلى الاطلاع على الأمور صوروه ، فظفر النواب منهم بجماعة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ماغطتـــه خرقة الفقر ولا كيف .

وأما الإشارة إلى أن فى اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم ، وينتظم شمل بنى آدم ، فلا راد لمن طرق باب الاتحاد ، ومن جنح للسلم فما جار ولا حاد ، ومن ثنى عنانه عن المكافحة ، كمن يريد المصافحة للمصالحة ؛ والصلح وإن كان سيد الأحكام ، فلا بد من أمور تبنى عليها قواعده ، وتعلم من مدلولها فوائده فإن الأمور المسطورة فى كتابه عن كليات لازمة ينعم بها كل معنى معلوم ، إن تهيأ صلح أو لم ، وثم أمور لابد أن تحكم ، وفى سلكها عقود العهود تنظم قد تحملها لسان المشافهة التى إذا أوردت أقبلت من معنى دخوله فى الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين ، ومابسطه من عدل وإحسان ، وسيرة مشهورة بكل لسان ؛ فالمنة لله فى ذلك فلا يشيبها منه بامتنان ؛ وقد أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم فى حق من امتن بإسلامه : (قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) .

ومن المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطرف إلى ما فى يد غيره من أرض ومال ، فإن حصلت الرغبة فى الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل ؛ فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، تمت المصاحبة والمصادقة . ورأى الله تعالى والناس كيف يكون إذلال معادينا ،

وإعزاز مصافينا. فكم من صاحب وجد حيث لايوجد الأب والأخ والقرابة. وما تم أمر الدين المحمدى واستحكم فى صدر الإسلام إلا بمظافرة الصحابة . فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحسن الوداد وجميل الاعتضاد ، وكبت الأعداء والأضداد ، والاستناد إلى من يشتد به الأزر عند الاستناد فقد فهم المراد .

ومن المشافهة إذا كانت رغبتنا غير ممتدة إلى ما فى يده من أرض ومال ، فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغيرفائدة تعود . فالجواب أنه لو كف كف العدوان من هنالك ، وخلى لملوك المسلمين مالهم من ممالك سكنت الدهماء وحقنت الدماء ، وما أحقه بألا ينهى عن خلق ويأتى مثله ، ولا يأمر بشىء وينسى فعله . وقنغرطاب بالروم الآن ، وبين بلاد فى أيديكم خراجها يجى اليكم ، فقد سفك فيها وفتك ، وسبى وهتك ، وباع الأحرار ، وأبى إلا التمادى على ذلك والاصرار .

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على ألا تبطل هذه الاغارات ، ولا يقتصر على هذه الاثارات ؛ فتعين مكاناً يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتفق فيها متلقى الجمعين مرة ومرة قد عاف مواردها من سلف من أولئك القوم ، ويخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم . ووقت اللقاء علمه عند الله لا يقدر ، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر . وما نحن ممن ينتظر فلته ، ولا ممن له إلى غير ذلك لفته . وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة التى لا تأتى إلا بغتة ، والله تعالى الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة ، إن شاء الله تعالى . »

وكان من أثر المكاتبات التى تبودلت بين ايلخان فارس ، وسلطان المماليك فى مصر ، أن وقف العداء بين الدولتين ؛ على أن المغول سرعان مانقموا على تكودار أحمد لاعتناقه الإسلام وإرغامهم على التدين به ؛ فدبر نبلاؤهم

المؤامرات لخلعه وتولية ابن أخيه أرغون الذى تمكن من قتل عمه تكودار أحمد فى ١٠ أغسطس سنة ١٢٨٤ م ، ونودى به سلطانا فى اليوم التالى .

وقد اضطهد أرغون المسلمين فى بلاده وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أمعن وزيره سعد الدولة اليهودى فى الكيد للاسلام والتآمر عليه والحط من شأنه .

وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى مصر ، فعادت العلاقة بين دولتى المماليك والمغول فى فارس سيرتها الأولى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذ المماليك يتطلعون فى عهد السلطان الملك الأشرف خليل إلى إجلاء المغول عن العراق وضم هذا القطر إلى مصر ؛ ويتضح لنا ذلك من الخطبة التى ألقاها الخليفة الحاكم بأمر الله فى القبة المنصورية ، وحرض فيها على أخذ العراق [١] .

على أن المماليك وإن لم يقدموا على تنفيذ هذا المشروع فى عهد الأشرف خليل ، فانهم أخذوا يتربصون الدوائر بالمغول ؛ فلما أغاروا على الرحبة خرجت إليهم طائفة من جند دمشق لصدهم ، وتمكنت من ردهم على أعقابهم سنة ٦٩١ هـ [٢] .

كذلك عول السلطان الملك الأشرف خليل على ضم قلعة الروم [٣] إلى حوزته حين علم أن أهلها يوادعون التتار ويمالئونهم على المسلمين ؛ ولا أدل على المصاعب التى كان يثيرها أهالى هذه القلعة ضد دولة المماليك مما ورد فى الكتاب الذى أرسله علم الدين سنجر الشجاعى نائب السلطنة بدمشق

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٧٤
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٧٧
(٣) قلعة غربى الفرات مقابل البيرة [ياقوت : معجم البلدان]

إلى شهاب الدين بن الخوبى قاضى القضاة بهذه المدينة على أثر نجاح السلطان الأشرف خليل فى الاستيلاء عليها ، حيث يقول : « . . . وكانت هذه القلعة المذكورة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى فى الحلق ، والغلة فى الصدر ، والخسوف الطارىء على طلعة البدر ، لا تخلو من غل تضمره ، فى لين تظهره ، وغدر تستره فى غدر تورده وتصدره . وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجار وموادعة التتار وممالأتهم على الإسلام بالنفس والمال ، ومساواتهم لهم حتى فى الزىّ والحال ، يمدونهم بالهدايا والألطاف ، ويدلونهم على عورات الأطراف ، وهم يثقون بمسالمة الأيام ، ويدعون أن قلعتهم لم تزل من الحوادث فى ذمام[١] . . . »

وقد رحل السلطان الملك الأشرف خليل من القاهرة قاصداً بلاد الشام فى ٨ ربيع الآخر (سنة ٦٩١ هـ) على رأس جيش كبير وبصحبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السلعوس ، ثم زحف من دمشق إلى حلب قاصداً قلعة الروم . ولما اقترب منها ، أخذ فى محاصرتها حتى تمكن من فتحها عنوة بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوما ، وسماها قلعة المسلمين[٢] ؛ وما لبث أن عاد بعد ذلك إلى دمشق وبين يديه الأسرى وبطريك الأرمن ؛ فرحب به أهلها وبسطوا له شقق الحرير التى لم تجر العادة بإعدادها إلا عند قدومه من مصر ؛ لكن وزيره شمس الدين بن السلوس ، أشار بوضعها فى طريقه احتفاء بفتحه قلعة الروم[٣] .

ولما تم للملك الأشرف خليل الاستيلاء على قلعة الروم ، بعث إلى شهاب الدين بن الخوبى قاضى القضاة بدمشق كتابا جاء فيه : « . . . ولما أذن الله بالفتح الذى أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب ، والمنح الذى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٠١ أ

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٧٨
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد جـ ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠

أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب ، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره ، فى يوم السبت حادى عشر شهر رجب الفرد . فسبحان من سهل صعبها وعجل كسبها وأمكن منها ومن أهلها ، وجمع شمل الممالك الإسلامية بشملها ، فالمجلس السامى يأخذ خطابه من هذه البشرى . . . فإنه بفتح هذه القلعة . . . وحيازة ثغرها ومعقلها ، تحقق من بسيحون وجيحون ، أنهم بعدفتح باب الفرات بكسر أقفالها أقفال هذه القلعة لايرجون أنهم يربحون ؛ وما يكون بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق(١) . . »

ولم تكن حالة دولة المغول فى فارس فى عهد جيخاتو الذى خلف أخاه أرغون سنة ١٢٩١ م بما تجعلها توالى هجماتها على بلاد الشام ، فقد كان من أثر إسراف هذا السلطان فى إنفاق الأموال الكثيرة على ملذاته أن نفدت خزانة دولته(٢) .

وكان جيخاتو مكروها من المغول لسوء خلقه ، فرفعوا شكواهم من تصرفاته إلى ابن عمه بيدو . ولما أحس بالخطر الذى يتهدده فر هاربا ؛ غير أنه ما لبث قبض عليه وقتل سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) ، فخلفه بيدو الذى توج فى همذان وظل يتولى الحكم بضعة أشهر ، أظهر فيها انحيازه إلى المسيحية وبذل كثيراً من الجهد لوضع العقبات فى سبيل نشر الإسلام بين المغول ، كما استهل عهده بالقضاء على مناوأة ابن أخيه غازان الذى كان يلى بلاد خراسان ؛ لكن غازان ما لبث أن خرج على بيدو ودارت بينهما معركة بالقرب من همذان انتهى الأمر فيها بفرار بيدو وقتله ؛ وبذلك آل عرش المغول إلى غازان بن أرغون فى ذى الحجة سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) ، فكافأ نوروز بأن فوض اليه نيابة المملكة ، كما عين أخاه خدابنده واليا على بلاد خراسان(٣) .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٠٠ ب — ١٣٠١

Browne, Literary History of Persia vol III p. 37 (٢)

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣١ — ٣٢

وقد اعتنق غازان الدين الاسلامى فى السنة الأولى من ولاية الملك العادل زين الدين كتبغا سلطان المماليك فى مصر (١) . ويرجع الفضل فى إسلامه إلى وزيره نوروز المسلم الذى كان على علم بالتصوف والتاريخ . وكان غازان قد نذر بين يدى هذا الوزير أن يعتنق دين الاسلام إذا انتصر على بيدو ، وسرعان ما نفذ وعده بعد تغلبه عليه (٢) ، وذلك بمساعدة عالم كبير يدعى الشيخ صدر الدين .

ولم يخالط الاسلام قلب غازان أول الأمر ، فقد روى الشوكانى (٣) ، أنه لما أسلم غازان قيل له: «إن دين الاسلام يحرم نكاح نساء الآباء» — وكان قد استحوذ على نساء أبيه ومن بينهن خاتون التى حازت رضاءه — ، فشرع يفكر فى الارتداد عن الاسلام . ولما وقف على هذه الرغبة بعض خواصه ، قال له : «إن أباك كان كافرا ، ولم تكن خاتون معه فى عقد صحيح ، إنما كان مسافحا بها ، فاعقد أنت عليها ، فإنها حل لك ؛ فلقى هذا القول قبولا من نفسه وعمل على تنفيذه .

على أن غازان مالبث بعد ذلك أن أظهر تحمسا لدينه الجديد ، فأمر بهدم الكنائس والبيع ومعابد الأوثان فى تبريز ، وقد سبقه إلى هذا العمل وزيره نوروز الذى حطم جميع المعابد الدينية التى لا تمت للاسلام بصلة ، وقتل القساوسة البوذيين ، وجبى الضرائب من رجال الكنيسة ؛ كما تغالى فى اضطهاد المسيحيين حتى أصبح من المتعذر عليهم السير فى شوارع بغداد ، وصار نساؤهم يذهبن إلى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم لصعوبة التمييز بينهن وبين نساء المسلمين (٤) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧١

(٢) Browne, Literary History of Persia vol III p. 40.

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع جـ ٢ ص ٢ — ٣

(٤) Howorth, History of Mongols, vol III p. 396.

كذلك اتخذ غازان هو ورجال بلاطه العمامة لباسا للرأس(١) ، وسك عملة جديدة نقشت عليها بعض العبارات الاسلامية ، كما أصدر فى مايو سنه ١٢٩٩م قرارا بتحريم الربا لمنافاته للشريعة الاسلامية(٢) .

ولم يكن لاعتناق غازان الاسلام أثر فى توطيد علاقته بالمماليك فى مصر ، بل سار على سياسة من سبقه من ايلخانات المغول فى بسط نفوذ دولته على ما جاورها من البلاد ، وخاصة بلاد الشام التى كانت خاضعة لنفوذ دولة المماليك ؛ ومن ثم قضى فترة طويلة من حكمه فى محاربتهم . وقد سهل عليه مهمة السير فى هذه السياسة هروب قبجق نائب دمشق وكشفه حقيقة الحال فى بلاد الشام إليه(٣) .

وقد اتخذ غازان من غدر الجيش الذى أرسله سيف الدين بلبان الطباخى نائب حلب بأهل ماردين ونهبه أرضها فرصة سانحة لغزو سورية ، فعهد إلى سلامش أن يذهب إلى بلاد السلاجقة الروم بآسيا الصغرى ليضم جندها إلى الحملة التى معه ، ثم يتوجه إلى حلب من ناحية سيس حيث يشترك معه فى غزو بلاد الشام(٤) .

بيد أن سلامش سرعان ما حدثته نفسه بالاستقلال ببلاد الروم ؛ فخلع طاعة غازان وكتب إلى الملك المنصور لاجين سلطان مصر يطلب نجدة لقتاله فأجابه إلى طلبه وأرسل إلى نائب دمشق يأمره بإنفاذ العساكر لمساعدته .

ولما علم غازان بخروج سلامش عليه ، أعرض عن المسير إلى الشام وجهز العساكر إلى بلاد الروم تحت قيادة بولاى ، وعاد إلى تبريز بصحبة الأمير قبجق ؛ ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى انحاز إلى جانب بولاى

---

(١) Howorth, History of Mongols. vol III p. 421

(٢) Browne, Literary History of Persia, vol III p. 41.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ س ٣٧

(٤) تاريخ سلاطين المماليك س ٥٤

من كان مع سلامش من التتار ، كما اعتصم التركمان الذين كانوا من بين جنوده فى الجبال ؛ وبذلك انفرد سلامش بفريق صغير من الجند واضطر إلى النزوح إلى دمشق ثم إلى مصر حيث رحب بقدومه السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون ؛ غير أنه مالبث أن طلب العودة إلى بلاده ليحضر أولاده ؛ وبينما كان مارا بحلب فى طريقه إليها ، قبض عليه بعض المغول وأرسلوه إلى غازان حيث أمر بقتله .

على أن غازان ما لبث أن أعد جيشا لبسط سلطانه على بلاد الشام واسترجاع ما فقده المغول على يد الملك المنصور قلاوون . ولما وصل إلى الناصر محمد نبأ عبور غازان نهر الفرات سنة ٦٩٩ هـ عهد إلى بعض الأمراء بالخروج إلى بلاد الشام لصد غارات المغول ، ثم تبعهم على رأس جيش كبير بعد أن أناب عنه فى مصر الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار .

ولم يكد الجيش المصرى يصل غزة حتى عولت إحدى فرقه التى تعرف بالأويراتية على إثارة الفتنة لإعادة الملك العادل كتبغا إلى العرش والأخذ بثار إخوانهم الذين قتلوا فى عهد سلطنة الملك المنصور لاجين ؛ فدبروا مؤامرة بالاتفاق مع بعض المماليك السلطانيـة للتخلص من السلطان الملك الناصر والأميرين بيبرس ، وسلار . وقد أخرت هذه المؤامرة زحف الجيش المصرى كما كانت سببا فيما حل به من الفوضى والإرتباك وفقد كثير من معداته الحربية .

على أن الأمراء سرعان ما أظهروا نشاطا عظيما فى القضاء على هذه الفتنة فقبضوا على الأويراتية وقتل منهم نحو الخمسين ، ونودى عليهم « هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك » (٢) ؛ ومن ثم استأنف الجيش المصرى سيره حتى نزل بعسقلان ، وسار منها إلى دمشق ؛ على أنه ما كادت تصل الأخبار بكثرة جند المغول حتى وقع الرعب فى قلوب

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٢٢ ب
المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٨٧٦ — ٨٧٨
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٨٨٤

المماليك ، ثم لم يلبثوا أن تقدموا شمالا والتقى الفريقان بمجمع المروج (١) .

وكان فى جيش المماليك صفوة القواد الأكفاء وقد أخذ ابن دقيق العيد وغيره من رجال الدين يخترقون صفوف الجند ليبثوا فيهم روح الحماس وحب النصر ؛ فقويت بذلك عزائمهم على الثبات وبدأوا يهاجمون المغول ويلقون عليهم النفط حتى تمكنوا من إلحاق الهزيمة بميمنتهم ؛ غير أن غازان سرعان ما حمل عليهم ، فقام بهجوم هزم فيه قلب جيش المماليك . وظل السلطان فى اعتزاله يحوطه اثنا عشر مملوكا وهو إذ ذاك يبكى ويبتهل ويقول : « رب لاتجعلنى كعبأ نحسا على المسلمين » ؛ وكان كلما هم بالفرار منعه بعض حراسه وطمأنه .

وقد رأى غازان أن يكف عن مطاردة جيوش المماليك المنهزمة خشية أن يكونوا قد وضعوا له كمينا كعادتهم فى الحروب ؛ فكان ذلك كما قال المقريزى : « من لطف الله بهم ، فلو تتبعهم لهلكوا عن آخرهم (٢) » .

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فإنه اتجه بعد هذه الهزيمة التى لحقت بجيوشه مع فريق من الأمراء وطائفة يسيرة من الجند إلى بعلبك تاركا خلفه كثيراً من المؤن والذخائر ، ثم تابع سيره حتى دخل دمشق ؛ غير أنه لم يكد يصل إليها حتى جاءت الأخبار بزحف غازان على هذه المدينة بعد استيلائه على ما كان بحمص من الذخائر وخزائن السلطان ؛ فوقع الرعب فى قلوب الأهلين وخرجت النساء باديات الوجوه وترك النـاس حوانيتهم واموالهم وازدحموا جميعاً على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ودفعوا الأجور الباهظة فى سبيل نقلهم على الخيل والحمير ، بل توجه كثير من الأهالى إلى مصر وتركوا دمشق خاوية ليس بها غير جماعة اتفقوا فيما بينهم على اختيار وفد من كبرائهم وعلمائهم لطلب الأمان من غازان ؛ كان من بينهم قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، وشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تمية

(١) يقع هذا المكان فى وادى الخازندار بين حماه وحمص .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٨٧ — ٨٨٨

وبعض الفقهاء والقراء والأعيان ؛ فلما التقى هذا الوفد بغازان أخبرهم أنه أرسل أماناً لأهالى مدينتهم مع بعض رسله ؛ فعادوا إلى دمشق ، ثم عقد اجتماع بالمسجد الأموى فى اليوم التالى لقدومهم تلا فيه أحد رجال التتار صورة الأمان(١) ، الذى كان يتضمن تأمين الاهلين جميعاً على اختلاف أديانهم وإيجاد حكومة تقر العدل والنظام إذا ما ضُمَّت مصر إلى حوزة المغول ؛ وفيما يلى نص هذا الامان(٢) : « بقوة الله تعالى ليعلم أمراء التومان(٣) والألوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة . . . أن الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين .)

ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم حالفون بالإيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام . وكان أحدهم إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد. وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومد الأيدى العادية إلى حريمهم وأموالهم ، والتخطى عن جادة العدل والإنصاف ، وارتكابهم الجور والإعساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية على أن توجهنا إلى تلك البلاد لإزالة هذا العدوان ، وإماطة هذا الطغيان ، مستصحبين الجم الغفير من العساكر .

ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد ، أزلنا العدوان

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ٨٥ — ٦٢ ، المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٨٨٩ — ٨٩٠

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٢٥ ب — ٣٢٦ أ تاريخ سلاطين المماليك (Zetterstéen) ص ٦٢ — ٦٤

(٣) التومان الفرقة التى يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل Quatremére. Histoire Des Sultans Mamlouks II. 2. p. 152.

والفساد وبسطنا العدل والإحسان فى كافة العباد ممتثلا للأمر الإلهى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) وإجابة لما ندب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم : إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا .

وحيث كانت طويتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة والنذور الاكيدة ، منّ الله علينا بتبلج تباشير النصر المبين والفتح المستبين ، وأتم علينا نعمته ، وأنزل علينا سكينته ، فقهرنا العدو الطاغية والجيوش الباغية ، وفرقناهم أيدى سبا ، ومزقناهم كل ممزق ، حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ؛ فازدادت صدورنا انشراحا للاسلام ، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ، منخرطين فى زمرة من حبب إليهم الإيمان ، وزينه فى قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة .

فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة ، والنذور المؤكدة . فصدرت مراسيمنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار التعدى عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه ، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة ، وآمال مفسوحة بعمارة البلاد وبما هو كل واحد بصدده ، من تجارة وزراعة وغير ذلك. وكان هذا الهرج العظيم وكثرة العساكر ، فتعرض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم إلى نهب بعض الرعايا وأسرهم ، فقتلناهم ليعتبر الباقون ، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر ، وغير ذلك من الفساد . وليعلموا أنا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة ، وألا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف

الشرعية ، لقول على عليه السلام: إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا . والسلاطين موصون على أهل الذمة المطيعين كما هم موصون على المسلمين ، فإنهم من جملة الرعايا . قال صلى الله عليه وسلم : الإمام الذى على الناس راع عليهم وكل راع مسئول عن رعيته .

فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء ، والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا ، الاستبشار بهذا النصر الهنى ، والفتح السنى ، وأخذ الحظ الوافر من السرور ، والنصيب الأكبر من البهجة والحبور ، مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة والمملكة الظاهرة آناء الليل وأطراف النهار . »

على أن المغول لم يحافظوا على العهود التى تضمنها هذا الأمان ، فسرعان ما نزل غازان على دمشق وعاثت جيوشه فسادا فى ظاهر المدينة وامتدت أيدى جنده إلى بيت المقدس والكرك تنهب وتأسر ؛ ونزل بدمشق ما نزل بغيرها من المدن ، فأخذت أموال أهلها بالباطل . ولم تسلم من المغول إلا قلعة دمشق الحربية التى اعتصم بها واليها أرجواش المنصورى وحال دون استيلاء المغيرين عليها[١] . وكان قد تحدث معه فى تسليمها الأمير قبجق وبعض الأمراء الذين التجأوا بغازان ، فقالوا له : « دم المسلمين فى عنقك إن لم تسلمها » فأجابهم على ذلك بقوله : « دم المسلمين فى أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم إليه المجىء إلى دمشق وغيرها » ثم وبخهم وامتنع عن تسليمهم القلعة وظل متحصنا بها[٢] .

على أن عدم نجاح المغول فى احتلال قلعة دمشق لم يثنهم عن بسط نفوذهم فى بلاد الشام ؛ فخطب لغازان على منابر دمشق بهذه الألقاب « السلطان الأعظم ، سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان » وعين الأمير قبجق واليا على هذه البلاد ، كما أسند إليه ولاية القضاة والخطباء ؛

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٠

Howorth, History of the Mongols vol III pp. 444—445

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢٥

وقرىء تقليد تعيينه على منبر المسجد الأموى ؛ وفيما يلى نص ماورد فيه[1] :
« بقوة الله تعالى وميثاق الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان . الحمد لله الذى أيدنا بالنصر العزيز والفتح المبين . . . . ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تنظمنا فى سلك المخلصين ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله سيد الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تصله إلى يوم الدين .

أما بعد فإن الله تعالى لما ملكنا البلاد ، وفوض إلينا النظر فى أمور العباد وجب علينا أن ننظر فى مصالحهم وأن نهتم بنصائحهم ، وأن نقيم عليهم نائبا يتخلق بأخلاقنا فى كرم السجايا ويبلغنا الأغراض من مصالح الرعايا ، فأجلنا الفكر فيمن نقلده الأمور ، وأنعمنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور واخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم . . . . يقول فيسمع مقاله ويفعل فتقتنى أفعاله ، يكون أمره من أمرنا وحكمه من حكمنا وطاعته من طاعتنا ومحبته هى الطريق إلى محبتنا ؛ فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى المؤيدى العضدى النصيرى العالمى العادلى الذُخرى الكفيلى . . . . . . السيفى ، سيف الدين ، ملك الأمراء فى العالمين ، ظهير الملوك والسلاطين ، قبجق هذا المخصوص بهذه الصفات الجميلة ، والمحتوى على هذه السمات الجليلة ، وله حرمة المهاجرة إلى أبوابنا ووسيلة القصد إلى ركابنا ؛ فعرفنا له هذه الحرمة ، وقابلناه بهذه النعمة ، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين ، وعلى ما استحفظ قوى أمين ، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا ، فأقمناه مقامنا فى العدل والقضايا .

فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة ، بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية ، والساحلية والجبلية والعجلونية والرحبية ، من العريش إلى سلمية ، نيابة تامة عامة كاملة شاملة ، يؤتمر فيها بأمره ، ويزدجر فيها بزجره ، ويطاع فى أوامره ونواهيه ، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه ، له الأمر التام والنظر العام ، وحسن التدبير وجميل التأثير والإحسان الشامل لأهل البلاد ، واستجلاب الغزاة والقواد ، وتأمين من

يطلب الأمان ، والطاعة والامتنان ، متفقاً فى الاستخدام والتأمين ، مع ملك الأمراء ناصر الدين ، فإن اجتماع الآراء بركة ، والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة ، وكل من أمَّناه فإنه أماننا أجريناه على قلبهما ولسانهما .

وقد أنعمنا عليه بالسيف والسنجق الشريف والكوس والبايزة[١] الذهب برأس السبع ، ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه ، وينزلون لنزوله ، وليكونوا تحت حكمه ، رفعة لقدره ، وتنويهاً باسمه .

وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين ، والصدور والأعيان والجمهور ، أن يتحققوا أنه نائبنا فى السلطنة الشريفة ، وأن له المنزلة المنيفة ، وليطيعوه طاعة تزلفهم لديه ، وتقربهم إليه ، ويحصل لهم بها رضاه عنهم ، وإقباله عليهم ، وقربهم منه . وليلزموا عنده الأدب فى الخدمة كما يجب ، وليكونوا معه فى الطاعه والموافقة على ما يجب .

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله فى أحكامه ، وخشيته فى نقضه وإبرامه ، وتعظيم الشرع وحكامه ، وتنفيذ أقضية كل قاض على قول إمامه ، وليعتمد الجلوس للعدل والإنصاف ، وأخذ حق المشروف من الأشراف ، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه ، وليكف الكف العادية عن كل من يتعدى إليه . . . . . »

ولما رأى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ما قام به المغول فى دمشق من أعمال العنف والسلب ، عوّل على العودة إلى مصر ، فسار إليها بصحبة خواصه . أما الجنود المصرية والشامية فقد اضطربت حالهم وصارت العامة توبخهم بسبب الهزيمة التى ألحقها المغول بهم ، وعجز أكثر الأمراء والجند عن العودة إلى مصر لضعف خيلهم عن متابعة السير ، كما اضطر

---

(١) البايزة : لوح صغير من ذهب مرسوم على أحد وجهيه رأس سبع الدكتور زيادة : حاشية رقم ٣ (كتاب السلوك ج ١ ص ١٠١٤) (Dozy : Supp. Dict.)

بعض الجند إلى تغيير زيهم حتى يتيسر لهم بذلك الإقامة بدمشق بعيدين عن إيذاء العامة[١].

وقد واصل المغول زحفهم إلى الشمال، فنزلوا بالصالحية ونهبوا مافى مدارسها وجامعها من البسط والقناديل، كما نبشوا دفائنها العديدة، وقتلوا من أهليها زهاء تسعة آلاف؛ وكان ذلك مما حمل تقى الدين بن تيمية على الخروج فى عدة جموع إلى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود ليبثه شكواه من أعمال المغول، فسار معهم إلى الصالحية ليتبين حقيقة الأمر. ولم يكد يصل إلى المغول خبر قدومه حتى ولوا الأدبار ورأى تقى الدين بن تيمية أن يقابل غازان بمرج راهط ليشكوا له ماارتكبه المغول من الأحداث على الرغم من ذلك الأمان الذى أعطاه لأهالى دمشق؛ غير أن حاشية غازان لم تمكنه من الاجتماع به[٢].

ولم يتمتع أهالى دمشق بالأمن والطمأنينة، فقد شدد المغول الحصار عليهم واشتطوا فى جمع الأموال حتى عجز كثير من الناس عن أداء ما فرض عليهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اشتد الغلاء فى دمشق حتى بلغ ثمن الشىء سبعة أضعافه، واقترنت هذه الأحداث بكثرة عدد القتلى من الجند والعامة؛ وقال فى ذلك أحد الشعراء:

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة فما أحد منا من السبع سالم
غلاء وغازان وغزو وغارة وغدر وإغبان وغم ملازم[٣]

ولم ينج من قسوة غازان أحد من الناس، لافرق فى ذلك بين الرجال والنساء والصبيان والفقهاء والقراء والعلماء؛ وبلغ من شدة الرعب الذى وقع فى قلوب الأهالى أن امتنعوا عن الخروج من منازلهم خوفا من أن يسخرهم

---

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ٦٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤

(٢) تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٠،

المقريزى: السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٨٩١ — ٨٩٢

(٣) المقريزى: السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٨٩٣ — ٨٩٤

تاريخ سلاطين المماليك ص ٧١ — ٧٢

المغول فى ردم الخنادق وأداء بعض الأعمال الحربية ، وكان من أثر ذلك أن عطلت الشعائر الدينية فى المساجد فترة قصيرة من الزمن .

ولم يكن هذا كل ماحل بأهالى دمشق ، بل غنم منهم غازان مغانم كثيرة ، فبلغ ما حمل لخزانته ٣,٦٠٠,٠٠٠ درهم [١] ، عدا ما استولى عليه من الأسلحة والثياب والدواب والغلال ، وما نهبه أتباعه [٢] .

وقد ظل أهالى دمشق يعانون كثيرا من الضيق حتى عاد غازان إلى بلاده فى جمادى الأولى سنة ٦٩٩ هـ بعد أن أقر فى نيابة دمشق الأمير قبجق وأقام قطلو شاه قائد الحامية المغول ببلاد الشام .

ولم تمض أيام قلائل على رحيل غازان إلى بلاده حتى قرىء على منبر الجامع الأموى بدمشق كتاب تولية قبجق نيابة الشام ، وآخر بتولية الأمير ناصر الدين يحى بن جلال الدين الختنى الوزارة وبهذا الكتاب إشارة إلى عزم غازان على العودة قريبا لغزو الديار المصرية ، ونصها : « إننا توجهنا إلى البلاد وتركنا بالشام ستين ألفا من جيشنا لحفظه وإننا فى فصل الخريف نرجع إلى البلاد قاصدين مصر [٣] . »

على أن قطلو شاه مالبث أن لحق بغازان وخرج قبجق لوداعه ، ثم نودى فى المدينة: « طيبوا قلوبكم وافتحوا دكاكينكم وتهيئوا غدا لملتقى سلطان الاسلام والشام الأمير سيف الدين قبجق بالشموع . . . قد دفـــع الله عنكم العدو المخذول» ، ومن ثم انفرد قبجق بحكومة دمشق. وقد استهل هذا الأمير عهده ، بأن طلب من سكان المدينة العودة إلى بلادهم وقراهم ، ثم أمر بأن ينادى : « لايغرر أحد بنفسه ولايخرج إلى الجبل ولا إلى الحواضر ، ومن فعل ذلك قدمه فى عنقه . » ومالبث قبجق أن قوى نفوذه بانضمام فريق من الجند إليه ،

(١) ذكر صاحب كتاب تاريخ سلاطين المماليك (ص ٧٧) ، أن هـذا المبلغ ٣,٦٠٠,٠٠٠ دينار .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٨٩٤ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ١٣٢٧ . تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٥ .

وصار موكبه يضاهى موكب السلطان ، وكثر ازدحام الناس على بابه.[١]

وعلى الرغم من استقرار الأمور لقبجق بدمشق ، فإن قلعتها ظلت فى يد أرجواش ؛ ومازال النزاع قائما بين هذين الأميرين حتى رأى كل من بدر الدين بن جماعة وتقى الدين بن تيمية أن يعملا على إحلال الوئام محل الخصام بينهما ، غير أن مجهودهما ذهب أدراج الرياح ، ولم يمض على ذلك زمن طويل ، حتى خرج الأمير سيف الدين قبجق من دمشق بصحبة بعض الأمراء قاصدا مصر لمقابلة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان لرحيل هؤلاء الأمراء من دمشق أثر سيء فى نفوس الأهالى ، فاضطربوا اضطرابا شديدا ، وأمر أرجواش بأن ينادى فى المدينة : « احفظوا البلد والزموا الأسوار وأخرجوا العدد » ، ومالبث هذا الأمير أن أصبح يشرف بنفسه على شئون دمشق ، ثم أصدر أوامره بأن يذكر اسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى الخطبة مقرونا باسم الخليفة العباسى بالقاهرة ، وكان لهذا التغيير رنة فرح فى قلوب الأهالى[٢] .

أما موقف الناصر محمد فإنه لما عاد إلى مصر أخذ يعد العدة لمحو العار الذى لحق به من جراء الهزيمة التى أوقعها المغول بجنده ؛ ففرض ضرائب جديدة ورغب الأثرياء فى التبرع بالمال حتى يتيسر بذلك لمصر صد تيار المغول ، كما جهزت الأسلحة وكثرت الرغبة فى امتياط الجياد ، حتى زاد ثمن الفرس من ٤٨٠ درهما إلى ١٦٠٠ درهم ، وارتفعت قيمة الإبل ، فبيع ما كان بمائة ، بسبعمائة ، وألف درهم .

كذلك أنفذ السلطان ، إلى نواب القلاع ببلاد الشام يأمرهم بحمايتها ، ويخبرهم بما استقر عليه رأيه من العودة ثانية إلى هذه البلاد ، كما كتب إلى

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٦ — ٧٧ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢٧ .
(٢) تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٨ — ٧٩ .

قبجق وغيره من الأمراء يدعوهم إلى طاعته ؛ فأجابوه إلى طلبه (١) .

ولما أتم السلطان إعداد حملته ، خرج من القاهرة متجها إلى بلاد الشام ثم تبعه الجيش بقيادة الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير الاستادار ، فتقابلا مع الأمير قبجق وأتباعه فى منتصف الطريق بين غزة وعسقلان ، وطلبا إليهم التوجه إلى السلطان بالصالحيه ، فلبوا الدعوة . ولما بلغ السلطان خبر قدومهم ، ركب إلى لقائهم وبالغ فى إكرامهم ثم عاد بهم إلى قلعة الجبل حيث عفا عنهم وخلع عليهم وعهد إلى قبجق بولاية الشوبك إجابة لطلبه ؛ وما لبث أن عاد الأميران بيبرس وسلار على رأس الجيش المصرى من دمشق ، ورحب السلطان بقدمهم (٢) .

على أن العداء لم ينته بين المغول والمماليك ، فقد ذاع فى المحرم سنة ٧٠٠ ﻫ بدمشق نبأ مسير غازان إلى بلاد الشام ؛ ولما وصل إلى الناصر محمد نبأ زحف المغول على تلك البلاد ، استدعى الوزير شمس الدين سنقر الأعسر والأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى والى القاهرة ، وأمرهما بجباية الأموال من الناس كما ألزم أصحاب الأراضى بأداء مال معين ، قرر على كل منهم ، فبلغ جملة ماجبى من القاهرة ومصر والوجهين البحرى والقبلى مائة ألف دينار ، هذا إلى فرضه ضرائب أخرى ، أرهقت الأهلين حتى ضجوا بالشكوى وانطلقت ألسنتهم بالطعن فى حق رجال الدولة ، واستخف العامة بالجند وصاروا يقولون لهم : « بالأمس كنتم هاربين واليوم تريدون أخذ أموالنا » . ولما كثر تجرؤ العامة على الجند ، نودى فى القاهرة بأن كل من يتعرض لجندى قتل وصودرت أمواله (٣) .

ولما أتم الناصر محمد إعداد معداته ، سافر إلى بلاد الشام بصحبة الأمراء

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٩٧ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٠٠ — ٩٠٢

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٠٦ — ٩٠٧

والعساكر . ولم يكد يستقر مقامه بغزة حتى ورد إليه خبر عبور غازان نهر الفرات ، فأمر جيوشه بالرحيل لملاقاته ، لكنها لم تلبث أن قاست كثيراً من الشدائد بسبب البرد وهطول الأمطار ، ثم عاد الناصر محمد إلى مصر بعد أن أصاب جنده الجهد الشديد وانقطاع المدد عنهم .

أما فيما يتعلق بموقف غازان ، فإنه بعد أن عبر الفرات ، سار متجها إلى أنطاكية ؛ غير أن شدة البرد حملته على عدم مواصلة الزحف ، فرجع أدراجه بعد هجومه على أنطاكية وجبل السماق ونهبه الأموال وأسره العدد الوفير من الرجال ، حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم ؛ وحالت الأمطار الغزيرة والثلوج المتكاثفة دون دخول المغول دمشق . وقد عقب صاحب تاريخ سلاطين المماليك (١) وأبو المحاسن (٢) على هذه الغزوة بقولهما : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال)

وكان غازان يأمل أن تساعده الدول الأوروبية فى انتزاع سورية من قبضة المماليك ، فأرسل إلى ملكى انجلترا وفرنسا عدة سفارات تطلب العون ضد المماليك ؛ فلم يلق طلبه قبولا (٣) .

ولما يئس غازان من مناصرة ملوك أوربا له ، عول على مهادنة المماليك فأرسل فى رمضان سنة ٧٠٠ هـ (مايو سنة ١٣٠١ م) رسالة إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مع وفد مكون من الفقيه كمال الدين موسى ابن يونس قاضى الموصل ، والأمير ناصر الدين على خواجا . وحين وصل هذا الوفد إلى القاهرة ، استقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ثم دعى إلى قلعة الجبل ، حيث اجتمع الأمراء والعسكر . ولما التأم عقد المجلس ، قام قاضى الموصل – أحد سفراء غازان – وخطب خطبة بليغة نوه فيها بالصلح ودعا للسلطان ولغازان وللأمراء ، ثم قدم للمجتمعين كتاب غازان . وقد عاب فيه

(١) ص ٨٣ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٢ .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 56.

السلطان لهجومه على أملاكه من غير سبب ، وتوعده الانتقام إذا اتصل بعلمه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم ومقاتلتهم بنواحى حلب والفرات ، وناشده الله والدين أن يعمل على تلافى ماقد يقع ببلاده من الخراب ، وطلب منه أخيراً أن يُعد له الهدايا والتحف ؛ وفيما يلى نص هذا الكتاب : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية . فرمان السلطان محمود غازان .

ليعلم السلطان المعظم الملك الناصر ، أنه فى العام الماضى بعض (عساكركم) المفسدة دخلوا أطراف بلادنا ، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا ، كماردين ونواحيها ، وجاهروا الله بالمعاصى فيمن ظفروا به من أهلها ، وأقدموا على أمور بديعة ، وارتكبوا آثاراً شنيعة ، من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة ، فأنفنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهم ، وأخذتنا الحمية الإسلامية ، فحدتنا على دخول بلادهم ومقاتلتهم على إفسادهم ، فركبنا بمن كان لدينا من العساكر ، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر . وقبل وقوع الفعل منا واشتهار الفتك عنا ، سلكنا سنن المرسلين ، واقتفينا آثار المتقدمين واقتدينا بقول الله : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ، وأنفذنا صحبة يعقوب الشكرجى جماعة من القضاة والأئمة الثقات ، وقلنا (هذا نذير من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) فقابلتم ذلك بالإصرار وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالأضرار ، وأهنتموهم وسجنتموهم وخالفتم سنن الملوك فى حسن السلوك ، فصبرنا على تماديكم فى غيكم وخلودكم إلى بغيكم إلى أن نصرنا الله ، وأراكم فى أنفسكم قضاة (أفأمنوا مكر الله فلا

(١) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ٢٢٣ ب — ٢٢٤ ب) .
النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٣١ ا .
تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٣ — ٩٤ .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٦٩ — ٧١ .

يأمن مكر الله) وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال وآل بهم الأمر إلى ما آل ، أنهم تداركوا الفارط من أمرهم ، ورتقوا مافتقوا بغدرهم ، ووجه إلينا وجه عذرهم ، فإنهم ربما سيَّروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية ، رسلا لإصلاح تلك القضية ، فتبينا بدمشق غير متحشحثين ، وتثبطنا تثبط المتمكنين ؛ فصدهم عن السعى فى صلاح حالهم التوانى وعللوا نفوسهم عن اليقين بالأمانى ؛ ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا ، أنهم ألقوا فى قلوب العساكر والعوام ، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام ، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفرات ، وأن عزمهم مصرٌ على ذلك لاسواه ؛ فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم ، ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم ، وقلنا لعل وعساهم ، فما لمع لهم بارق ، ولاذر شارق ، فقدمنا إلى أطراف حلب وتعجبنا من بطئهم غاية العجب ، فبلغنا رجوعهم بالعساكر ، وتحققنا نكوصهم عن الحرب ، وفكرنا أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة ، وجموعنا العظيمة القاهرة ، ربما أخرب البلاد مرورها وبإقامتهم فيها فسدت أمورها وعم الضرر العباد ، والخراب البلاد ، فعدنا بقيا عليها ، ونظرة لطف من الله إليها .

وهانحن الآن أيضا مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب ، وعازمون بعد الإنذار (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قد سيرنا حاملى هذا الفرمان الأمير الكبير ناصر الدين على خواجا ، والإمام العالم ملك القضاة كمال الدين موسى بن يونس ؛ وقد حمَّلناهما كلاما يشافهاهم به ، فليثقوا بما تقدمنا به إليهما ، فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما ، لنكون كما قال الله تعالى : (قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين) ؛ فتعدوا لنا الهدايا والتحف ، فما بعد الإنذار من عاذر ، وإن لم تتداركوا الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم ، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم .

فليمعن السلطان لرعيته النظر فى أمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم ، من ولاه الله أمرا من أمور هذه الأمة ، واحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره . وقد أعذر من أنذر وأنصف من حذر ، والسلام على من أتبع الهدى . ،

ولما اطلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على هذه الرسالة ، دعا رجال الدولة واستشارهم فى الأمر ، فاستدعوا ضياء الدين قاضى الموصل - وهو أحد سفراء غازان - وقالوا له : « أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين ، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين ، ما نتقاتل إلا لقيام الدين ، فان كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء ، فنحن نحلف لك بالله أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى » ؛ فحلف لهم « إنه لا يعلم عن غازان غير الرغبة فى الصلح وتأمين التجار والمسافرين » ثم زاد على ذلك بقوله : « والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم ... فان كان هذا الأمر خديعة ، فيظهر لكم ، وإن كان الأمر صحيحا ، فتكونون قريبين منهم ، فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم » . وكان لهذا الحديث أحسن الأثر فى نفوسهم ، فأيقنوا أن هذا السفير لم يحد عن طريق الحق وأنه بذل النصح لهم ، ومن ثم استقر رأيهم على إنفاذ كتاب لغازان يتضمن الرد على رسالته ، وقام بمهمة حمله إليه حسام الدين المجيرى والقاضى عماد الدين بن السكرى .

وقد فند الناصر محمد فى هذا الكتاب أقوال غازان ، وأثبت أن المغول هم الذين بدءوا بالعدوان ، كما ذكر له أنه لن يهاديه حتى يبدأ هو بارسال الهدايا إليه ، وعاب على غازان إذلاله المسلمين فى دمشق وما جاورها من البلاد و وتخريبه المساجد والآثار بما لا يتفق مع تعاليم الاسلام ، وختم الناصر كتابه لغازان مؤكدا له استعداده لمصادقته إذا جنح للسلم ، وأبعد الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم بطانة له ؛ وفيما يلى نص هذا الكتاب[1] :

(١) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج٩ ص١٢٢٦ ، ٢٣٠ ا.

« فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام ، ورعينا له حق القصد ، فتلقيناه منا بسلام ، وتأملناه تأمل المتفهم لدقائقه ، المستكشف عن حقائقه ، فألفيناه قد تضمن مؤاخذة بأمور ، هم بالمؤاخذة عليها أحرى معتذرا فى التعدى بما جعله ذنوبا لبعض طَالبَ بها الكلَّ ، والله تعالى يقول : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

أما حديث من أغار على ماردين من رجالة بلادنا المتطرفة ، وما نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة ، والآثام الشنيعة ، وقولهم إنهم أنفوا من تهجمهم ، وغاروا من تقحمهم ، واقتضت الحمية ركوبهم فى مقابلة ذلك ، فقد تلمحنا هذه الصورة التى أقاموها عذرا فى العدوان ، وجعلوها سببا إلى ما ارتكبوه من طغيان . والجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين لم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكف يدها الممتدة ، ولا يغير هممها المستعدة . وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والنفاق ، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق ؛ ولم يزل ملك ماردين ورعاياه منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم ، متولين كبر مكرهم ، والله تعالى يقول : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) .

وحيث جعلتم هذا ذنبا للحمية الجاهلية ، وحاملا على الانتصار الذى زعمتم أن همتكم به مَلِيَّه ؛ فقد كان هذا القصد الذى ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجب ذلك فعلها ، والاقتصار على أخذ الثار ممن ثار ، اتباعا لقوله تعالى : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها) لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان ، وتطئوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان ، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس الذى هو ثانى بيت الله الحرام ، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ وإن احتججتم بأن زمام تلك

= تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٨ — ١٠١ ،
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٣ — ٢٥٠ .

الغارة بيدنا وسبب تعديهم من سنتنا ، فقد أوضحنا الجواب عن ذلك وأن الصلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما إما ادعوه من سلوك سنن المرسلين ، واقتفاء آثار المتقدمين فى إنفاذ الرسل أولا ، فقد تلمحنا هذه الصورة وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة ؛ والجواب عن ذلك أن هؤلاء الرسل ما وصلوا إلا وقد دنت الخيام من الخيام ، وناضلت السهام عن السهام ، وشارف القوم القوم ، ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعض يوم ، وأشرعت الأسنة من الجانبين ، ورأى كل خصمه رأى العين . وما نحن ممن لاحت له رغبة راغب فتشاغل عنها ولهى ولا ممن يسالم فيقابل ذلك بجفوة النفار ، والله تعالى يقول : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . كيف والكتاب بعنوانه ، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب يقول : ما أضمر الإنسان شيئاً إلا ظهر فى صفحات وجهه وفلتات لسانه . ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعة فى أغمادها والأسنة مستكنة فى أعوادها ، والسهام غير مفوقة والأعنة غير مطلقة ، لسمعنا خطابهم وأعدنا جوابهم .

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم وأبدوه من غليظ كلمهم فى قولهم ، فصبرنا على تماديكم فى غيكم وإخلادكم إلى بغيكم ، فأى صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحة قبل إرسال رسل المصالحة ، وجاس خلال الديار قبل مازعمه من الأعذار والإنذار ؟ وإذا فكروا فى هذه الأسباب ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب وعلموا العذر فى تأخير الجواب ، (وما يتذكر إلا أولوا الألباب) .

وأما ما تبجحوا به مما اعتقدوه من نصرة ، وظنوه من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب فى كل كرة الكرة ، فلو تأملوا ماظنوه ربما لوجدوه هو الخسران المبين ، ولو أنعموا النظر فى ذلك لما كانوا به مفتخرين ، ولتحققوا أن الذى اتفق لهم كان غرماً لا غنما ، وتدبروا معنى قوله تعالى : (إنما نملى لهم

ليزدادوا إثماً) . ولم يخف عنهم ما نالته السيوف الاسلامية منهم ، وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التى لو كانت مجتمعة عند اللقاء ما ظهر خبر عنهم فإنا كنا فى مفتتح ملكنا ومبتدىء أمرنا ، حللنا بالشام للنظر فى أمور البلاد والعباد ، فلما تحققنا خبركم وقفونا أثركم ، بادرنا نقد أديم الأرض سيراً ، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً ، ونؤدى من الجهاد السنة والفرض ونعمل بقوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة وثوقاً بقوله تعالى: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التى كم وطئت موطئاً يغيظ الكفار ، فكتب لها به عمل صالح ، وسارت فى سبيل الله ، ففتح الله عليها أبواب المناجح ،وتعددت أيام نصرتها التى لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس . . .

وأما إقامتهم الحجة علينا ، ونسبتهم التفريط إلينا ، فى كوننا لم نسير إليهم رسولا عند حلولنا بدمشق ؛ فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نزد على أن اعتددنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان ، وبذلنا فى الإستعداد غاية الجهد والإمكان ، وأنفقنا جزيل الأموال فى جمع العساكر والجحافل ، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) .

ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد ، لأمر حال بينه وبين المراد ، فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رعبه عن حث الركاب ، وتثبتنا تثبت الراسيات (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) وبعثنا طائفة من العساكر لمقابلة من أقام بالبلاد ، فما لاح لها منهم بارق ولا ظهر ، وتقدمت فتخطفت من حمله على التأخر الغرر ووصلت إلى الفرات فما وقعت للقوم على أثر .

وأما قولهم أننا ألقينا فى قلوب العساكر والعوام أنهم إفيما بعد يتلقونا

على حلب أو الفرات ، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات ، وإلى حلب مرتقبين ؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم جزمنا ، وعلى لقائهم عزمنا ؛ وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب الطاعة على كل مسلم ، المفترض المبايعة المتابعة على كل منازع ومسلم ، طائعين لله ولرسوله فى أداء فرض الجهاد باذلين فى القيام بما أمرنا الله غاية الإجتهاد ، لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته ، ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه ، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله ؛ فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله فى النصر الرجاء والأمل ، ووصلت أوائلها إلى أطراف بلاد حماة وتلك النواحى ، فلم يقدم أحد منهم عليها ، ولا جسر أن يمد حتى ولا الطرف اليها ؛ فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد ، وإخلافه موعد اللقاء ، والله لا يخلف الميعاد . فعدنا لاستعداد جيوشنا التى لم تزل تندفع فى طاعة الله تعالى اندفاع السيل ، عاملين بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) .

وأما ما جعلوه عذرا فى الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها ، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أخرب البلاد مرورها وبإقامتهم فسدت أمورها ؛ فقد فهم هذا المقصود ، ومتى ألفت العباد والبلاد منهم هذا الإشفاق ؟ ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق ؟ وها آثارهم موجودة ، ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة ؛ وهل هذا اعتماد من رمق شخص الاسلام بإنسانه؟ كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، . وأسارى المسلمين عندهم فى أشد وثاق ، وفى يد الأرمن والتكفور منهم ما يخالف ما ادعوه من إشفاق ... وأما ما أرعدوا به وأبرقوا ، وأرسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا . وما أبدوه من الاهتمام بجمع العساكر ، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل فالله تعالى يقول :

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وأما قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة ، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب وأولاهم بألا يصدر إليهم عن ذلك جواب . ومن قصده الصلح والإصلاح ، كيف يقول هذا القول الذى عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أى جناح ؟ والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « نية المرء أبلغ من عمله » . وبأى طريق تُهْدر دماء المسلمين ، التى من تعرض إليها يكون الله له فى الدنيا والآخرة مطالباً وغريماً ، ومؤاخذاً بقوله تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيما) وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام ، بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد . . . .

وأما رسُلهم . . . فقد وصلوا إلينا ووفدوا علينا وأكرمنا وفادتهم . . . وسمعنا خطابهم ، وأعدنا جوابهم ، هذا مع كوننا لم يخف عنا انحطاط قدرهم ، ولا ضعف أمرهم . . . وما كان ينبغى أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله . . .

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف ، فلوْ قدّموا من هداياهم حسنة لعوّضناهم بأحسن منها ، ولو أتحفونا بتحفة لقابلناهم بأجلّ عوض عنها . وقد كان عمه الملك أحمد راسل ولدنا السلطان الشهيد وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد ، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب ، فأحسَن له الجواب ، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب .

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها . . . فنقول : إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها ، وإذا دخل فى الملة المحمدية ممتثلا ما أمر الله به مجتنباً ما عنه نهى ، وانضم فى سلك الإيمان . . . وتجنب التشبه بمن قال فى حقهم (قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان) . وطابق فعله قوله ورفض الكفار الذين لايحل له أن يتخذهم حوله ، وأرسل إلينا رسولا

من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا . . . . »

على أن هذه المراسلات لم تأت بثمرتها المرجوة ، فاستؤنفت الحرب من جديد بعد عام واحد ، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة حتى نزلوا على نهر الفرات ، ثم تقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له الكوم بالقرب من عرض سنة ٧٠٢ هـ حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين ، وانتهى الأمر بهزيمة المغول . وقد علق أبو الفدا[١] — وكان ممن حضروا هذه الموقعة — على ما ناله المماليك من نجاح فى صد المغول بقوله : « وكان هذا النصر عنوان النصر الثانى » .

ولم يكد يتم النصر للمماليك فى موقعة عرض حتى تأهب المغول للحرب ، فسار قطلوشاه فى مائة ألف من التتار والكرج ، والأرمن ؛ ولما وصلوا حماه ، اشتد الرعب فى قلوب الناس وأقبل أهالى حلب وحماه إلى دمشق خوفاً من المغول ، كما تأهب أهالى دمشق للفرار ، ولم يمنعهم عن تنفيذ غرضهم إلا ذلك النداء الذى نودى به فى المدينة وهو « من خرج حلّ ماله ودمه »[٢] .

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقد خرج بعساكره وتشاوروا فى الخروج لصد المغول أو انتظار قدوم السلطان ، ثم قر رأيهم على الرحيل منها حتى لا يفاجئهم المغول واضطر أهالى دمشق إلى الجلاء عنها ؛ ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى التقى نواب الشام بالسلطان فى ضواحى هذه المدينة ؛ ومن ثم اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية بمرج الصفر وأخذ السلطان والخليفة المستكفى بالله يحثان الجنود على القتال ، ودارت بينهم وبين جيش المغول بقيادة قطلوشاه عدة معارك انتهى الأمر فيها بأن أوقع المماليك الهزيمة بالمغول وفر قطلوشاه إلى الفرات مع فلول جيشه ؛ فغرق بعضهم ومات البعض الآخر فى الصحراء من شدة الجوع والعطش .

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٤٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٧

وكان لهذا الانتصار الذى ظفر به المماليك على المغول، رنة فرح وسرور عند أهالى دمشق، فخرجوا لاستقبال الناصر محمد وهم يضجون بالدعاء والتهليل والشكر لله سبحانه وتعالى؛ وسار السلطان فى طرق تعلوها الزينات حتى نزل بالقصر الأبلق، ثم خلع على نواب الشام، وشرع بعد ذلك فى العودة إلى مصر متوجا بالنصر ومحاطا بالفخار.

وقد أخذ الفرح من أهل مصر كل مأخذ؛ فأقيمت الزينات على المنازل والحوانيت، وفى الشوارع والميادين العامة ورفعت الأعلام، كما أقيمت أقواس النصر ابتهاجا بقدوم السلطان، ومنع العمال من مزاولة أعمالهم إلا إقامة الزينات وأقواس النصر التى بلغ عددها سبعين قوسا — وكانت تسمى إذ ذاك القلاع — ودفعت الأجور الباهظة للحجر المطلة على الطرق التى مر بها السلطان. وقد بلغت أجرة البيت الواحد من خمسين درهما إلى مائة، وفرشت الأرض بالبسط الحريرية من باب النصر إلى القلعة. ولما وصل السلطان باب النصر، ترجل جميع الأمراء، ومر السلطان بين الجموع الغفيرة التى استقبلته بالبشر والسرور وسط هذه الزينات يحوطه حراسه والنبلاء من رجال الدولة ويتبعه أسرى المغول. وكان يتقدم الفصائل المصرية ١٦٠٠ أسير من المغول مكبلين بالسلاسل والأغلال، ويتدلى من رقبة كل منهم رأس مغولى آخر، كما حملت ألف رأس من رءوس قتلاهم على الرماح تعلوها طبول الحرب المغولية الكبيرة بجلودها الممزقة.

وقد أورد القاضى علاء الدين على بن عبد الظاهر فى كتابه «الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر» الذى نقله النويرى[١] وصفا لقدوم السلطان إلى القاهرة عقب انتصاره على المغول فى موقعة مرج الصفر، يوضح لنا كيف احتفل المصريون باستقبال سلطانهم؛ ومما ورد فيه «وصل السلطان ديار مصر المحروسة، وقد زفت عروسا تجلى فى أبهى الحلل، وجمعت أنواع

(١) نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٢٣٧ ب

المحاسن ، فلا يقال لشيء منها كمل ، لو أن ذا كمل . وفضح الدجى إشراقها وبهر العيون جمالها ، فالى أقصى حدائق حسنها رنت أحداقها وسبت النفوس منازلها ، وكيف لا وهى المنازل التى لم نزل نشتاقها وشغلت القلوب أبياتها .. وحل — خلد الله ملكه — بظاهر القاهرة فكادت تسير لخدمته بأهلها وجدرانها ، غير أنه أثقلها الحلى فأخرها لتبدو إليه فى أوانها المراد وما أحسن الأشياء فى أوانها ، وهم نيلها أن يجرى فى طريقه لكنه أخره النقص والتقصير ، واستحي أن يقابله وهو فى دون غاية التمام أو يسير فى مواكب أمواجه فى عدد يسير . . . وكان عمود مقياسه قد آلى ألا يضع أصابعه فى اليم إلا باذن سلطانه . .

وركب السلطان سحر يوم الاثنين الثالث والعشرين من شوال سنة اثنتين وسبعمائة من ظاهر القاهرة فى موكب حف به الظفر ، وأضحى حديثا للأنام وذكرى للبشر . . . ودخل السلطان البلد وقد تزايدت بمقدمه سرورا وبشرا وأنشدته :

أنت غيث إذا وردت إلى الشا ... م ونيل إذا يممت مصرا
أطلع الشرق من جبينك شمسا ... ليس تخفى ومن محياك بدرا
كان أمر التتار يستصعب الحا ... ل فصيرت عسر ذلك يسرا

وفتحت له أبواب نصرها التى يفضى منها إلى نعمة ونعيم ، وشاهدت عيون أهلها ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، والرعايا قد أصبحوا كما أمسوا بالدعاء له مبتهلين ، والألسنة تتلو عليه وعلى أمرائه أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين . . . ولما سلك بين قصريها تحقق الناس أن أيامه زادت على أيام الخلفاء ، فإنها أنشأت قصرين وهذا أنشأ لها قصورا ما بها من قصور ، فمن بروج تمنت البدور لو كانت لها منازل ، ومن قلاع لو تحصن بها جان لما دارت عليه دوائر الدهر الغوائل ، ومن قباب علت وليس لها غير الهمم من عمد ، ومن أنواع

احتفال يعجز عن وصفها البديع الفطن . . . والأسارى قد جعلوا بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، يشاهدون مدينة ما ثلث إرمَ ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ... واستقلوا ما مروا به فى المدائن والأمصار ، وغدوا وعيونهم فى جنة وقلوبهم فى نار واستصغروا ملكهم المخذول وملكه ، ... وتحققوا أنه من أوفى هذا السعد لا يؤخر إن شاء الله إمساك كبيرهم وهلكه . .

ووصل مولانا السلطان تربة والده السلطان الشهيد — قدس الله روحه — وأمراؤه قد بذلوا فى محبته نفائس النفوس وجزيل الأموال وأخاير الذخائر ، وركبوا بالأمس للمفاضلة عن دولته فى سبيل الله وقد بلغت القلوب الحناجر ، وترجلوا اليوم فى خدمته تعظيما لشعائر سلطنته . وقص مولانا السلطان — خلد الله ملكه — عند قبره المبارك من غزوته أحسن القصص ، وأسهم له من بركة جهاده أوفر الحصص ؛ فلو استطاع — رحمه الله — أن ينطق لقال ، هذا الولد البار ، والملك الذى خلفنى وزاد فى نصرة الاسلام وكسر التتار ، .... وركب من التربة الشريفة والرعايا يدعون بدوام دولته التى أضحت قواعد الأمس بها متينة ، ويرتعون بالمدينة فى لهو ولعب وزينة ، وسار جواده بين حلى وحلل فاستوقف الأبصار مسلك حفت به غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ؛ وعاد إلى قلعته ظافرا عود الحلى إلى العاطل ، وغدت ربوعها الموحشة لبعده بقربه أواهل ، وطلعها فى أيمن طالع لا يحتاج معه إلى اختبار أو رصد ، وجلت شمس ملكه فى برجها وكيف لا وهو فى برج الأسد ، فالله تعالى يمتع الدنيا منه بملك حمى شاما ومصرا ، وأذاق التتار بعزائمه مصائب تترى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

أما فيما يتعلق بالمغول ، فانه لما وصل خبر هزيمتهم إلى همذان ، سقط فى أيديهم واضطربوا اضطرابا شديداً ، كما حنق غازان على ما حل بجنده

من النكبات وزاد غضبه حين وصل إليه كتاب من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يحقر فيه من شأنه ، ويطلب منه الجلاء عن العراق ، ويتوعده بأنه سيأتي إليه بجيوشه ليقصيه عن هذه البلاد ؛ وفيما يلى نص هذا الكتاب[1] :

« الحمد لله على ما جدد لنا من النعمة التامة ، وسمح به من الكرامة العامة ، حين أعاد البدر إلى كماله والسرور إلى أتم أحواله ، وبعد ، فليعلم الملك الجليل محمود ، جامع الجيوش وحاشد الجنود ، أنه تظاهر بدين الإسلام واشتهر ذلك بين الأنام وتظاهر بالباطل وللحق ستر ، ثم فعل ما قدره الله عز وجل وما حكم به القدر فحملنا ذلك على أنه من ربنا تقدير وأن ليس لأحد عما أراد الله نذير ، فما لبث الملك إلا أيسر مدة ، ثم أرسل رسله إلينا مجدة يطلب الصلح ويحض عليه ، ويذكر الإسلام ويندب اليه ، ويزعم أنه ليس يختار الفساد فى الأرض وأن الواجب علينا وعليه إصلاح ذات البين ، وأن ذلك فرض ، فعلمنا مقصوده فى مقاله ، ويستره منا بستر صلح يلوح لنا وجه البدر من خلاله ، فأكرمنا رسله إكراماً يليق بجميل فعالنا ، وسمعنا رسالتهم وجاوبناهم على مقتضى حالهم لا على حالنا وأعدناهم اليه ، وقلدناه ما كان مضمراً عليه ، فعاد رسوله يطلب منا رسولا يسمع كلامه ولم يخف عنا مقصده ولا مرامه . فأرسلنا إليه ماطلب . . . فما كان إلا عند وصول رسلنا اليه ، جهز عسكره وأظهر من الغدر ما كان مضمراً عليه ، وحرضهم بما عاد وباله عليهم وبما رأوه حاضراً لديهم ، ثم تعدوا وعدى بهم الفرات وجهزهم ورجع وما علم أن السلامة من ورائه فما كان إلا أن دخلوا البلاد وعملوا ما أمرهم به من الفساد ، وتفرقت جيوشهم فى الأوساط والأطراف وقطعوا أيدى الأشجار وأرجل الزرع من خلاف ، ونزلوا بالقرب من حلب وشنوا من الغارات وجدوا فى الطلب ؛ وجيوشنا

---

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ — ١٢١

الشامية له بالمرصاد ، وقد أخلصوا لله عز وجل وقدموا نية الجهاد ، ونحن تتقدم إليهم فى كل وقت وأوان أن يظهروا لهم الضعف والتأخير ، ليتوسطوا البلاد ويقع هناك التدبير فأعاد منهم طومانين إلى القريتين ، فتجهز من جيشنا إليهم ألفان ، فوجدوهم قد أخذوا غنائم التركمان ، فوافوهم بالقرب من عُرْض فكانوا كفرسَىْ رهان ، فما لبثوا الباغين إلا ساعة من النهار وعجل الله بأرواحهم إلى النار ، وبقيت أجسامهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض . . . وأخذ منهم أسارى ، أرمن وكرْج ونصارى ، ثم ساروا وهم طالبين الغوطة ولم يعلموا أن من حولها رماحاً مركوزة وجياداً مربوطة ... فلما عاينوا دمشق ظنوا أنهم يدخلون يأسرون . . . فعبروا عليها وطلعوا على جبل يعرف بالمانع ، وتأملوا جيوشنا ، فأخذهم الرعب فى قلوبهم بالمجامع ... فلم تغب الشمس حتى فرشنا بهم أديم الأرض والوعر والسهل ، والتجأ من بقى منهم إلى جبل ليعصمهم من القتل ، . . . ونادى لسان حالهم ، وقد قصرت آمالهم ، أعتقنا أيها الملك الرحيم واعف عنا فى هذا الشهر العظيم ، فإنا جميعا مسلمون . . . فأمرنا جيوشنا أن يفتحوا لهم بابا ليذهبوا . . . . ففروا فر الشاة من الأسد ، ولم يلتفت منهم والد على ولد ، فلو رأيت أيها الملك ذلك اليوم ، لبقيت زماناً مرعوباً فى النوم ، ولم تلق من أصحابك إلا قتيلا وأسيراً . . . .

فبادر أيها الملك إلى حمد الله تعالى الذى لم تر بعينيك الخطب الجسيم . . . ولقد نصحتك أيها الملك فما ارعويت . . . فمن أجل ذلك صار كل حى من جيشك ميت . . . . فبدل الميل بالإيمان ودع ما سول لك الشيطان . . . . وأنت تزعم أن الإسلام معك وبه تدين ، نقف نحن وأنت على الكتاب المبين ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، ونخرج نحن وأنت من بغداد والعراق ، ونعيدها إلى خليفة رسول الله بالاطلاق ، ونتبع نحن وأنت أوامره . . . ومن يفعل غير ذلك فعليه اللعنة إلى يوم الدين ، وإن سولت

لك نفسك خلاف ذلك ، فأنت لا محالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق والعجم ، وتبدل وجودك بالعدم ، فقد أوضحنا لك الحق فلا تميل ، وهديناك إلى أقدم السبيل ، ثم تتقدم بإرسال رسلنا المسيرة إليك فى أتم الكرامة وتسير معهم من يوصلهم إلى الشام فى أتم السلامة ، وترحل فيمن بقى من جيشك إلى خراسان ، ودع ماسول لك الشيطان ؛ فقد بلغنا أن خيلك ورَجلك تعبر الديار المصرية ، فقد صدقوا فى القول لكن غلطوا فى القضية . أما الخيل فقد عبرت مجنوبة ، وأما الرجال ففى رقابهم طبول وبأيديهم السناجق مقلوبة . فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعا وإما الخروج عن الروم والعراق جميعا ، وعن قريب نأتيك بجيوشنا تميل بجنبى الأرض وتزحف ، وتروى مايهولك ولو على قعود تزحف ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وقد اعتلت صحة غازان بسبب الهزيمة التى أوقعها المماليك بجنده واشتد الضيق به حين علم بالمؤامرة التى دبرت لخلعه وتولية ألفرنك Alafrank ابن جيخاتو بدله ، فمات كمدا فى ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره بعد أن ظل فى الحكم تسع سنوات [١] .

خلف غازان على العرش أولجايتو [٢] بن أرغون . وقد تحسنت العلاقات

---

(١) Browne, Literary History of Persia, Vol III pp. 42 — 43, Howorth, History of the Mongols, Vol. III. p. 485.

(٢) ذكر ابن بطوطة (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ١ ص ١٤٣) إن إسمه مختلف فيه ؛ فقيل خدا بنده : خدا (بضم الخاء معناها بالفارسية إسم الله ، وبنده معناها غلام أو عبد ؛ فيكون معنى إسمه عبد الله ؛ — وقيل خر بنده : خَـرْ (بفتح الخاء) معناها بالفارسية الحمار ، بنده معناها غلام ؛ فيكون معنى إسمه غلام الحمار .

وقال (Browne, Literary History of Persia p. 46.) إنه كاد يطلق عليه فى صباه إسم خَـرْبنده Khar-Banda ومعناه راعى الحمير أو البغال ، ثم اتخذ لنفسه اسم خدا بنده ومعناه عبد الله .

وقد نشأ أولجايتو على المسيحية دين أمه ، وتعمد باسم نيقولا ؛ لكنه مالبث أن اعتنق الاسلام بعد وفاتها ، تحقيقا لرغبة زوجته .

Howorh, History of the mongols, Vol. III. p. 535.

فى بداية عهده بين دولته وبين سلاطين المماليك فى مصر ؛ فأوفد إلى الناصر محمد السفراء تؤكد له حرصه على توثيق عرا الصداقة به ، وخاطب سلطان المماليك فى خطابه بالأخوة وسأل إخماد الفتن وطلب الصلح ، وقال فى آخر كلامه : عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه . ، كما بعث إليه هدية ، فلبى السلطان طلبه وجهز له هدية مع بعض الرسل[١] .

على أن أولجايتو مالبث أن أظهر عداءه للمماليك السنيين بعدأن اعتنق مذهب الشيعة[٢] وعمل على نشره فى الجهات الغربية من دولته ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أرسل السفراء إلى البابا كلمنت الخامس وإدوارد الثانى ملك انجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا يطلب منهم أن يساعدوه فى الاستيلاء على سورية ومصر ، لكنهم لم يعنوا بتحقيق رغبته[٣] .

وقد استأنف المغول فى عهد أولجايتو هجومهم على سورية ويرجع السبب فى ذلك إلى وقوفه على حالة هذه البلاد من كل من قراسنقر والأفرم اللذين لجآ إليه خشية أن ينكل بهما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وقد رحب أولجايتو بهذين الأميرين ورتب لهما الرواتب السنية ثم استقبل كلا منهما على انفراد ؛ فحسن له قراسنقر عبور الشام وهون عليه أمره ، أما الأفرم ، فإنه وإن كان قد حسن له أيضا الاستيلاء على بلاد الشام إلا أنه حذره من قوة السلطان وكثرة عساكره .

وقد كافأ أولجايتو هذين الأميرين على المعلومات التى أدليا بها إليه عن حالة دولة المماليك ، فمنح قراسنقر ولاية مراغة ، وأقطع همذان للأفرم[٤] .

ولما شرع المغول فى الهجوم على بلاد الشام سنة ٧١٢ هـ ، أرسل نائب

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٦ .

(٢) ذكر ابن الوردى فى تاريخه (ص ٢٦٤) أن أولجايتو ظل سنة سنيا ثم ترفض وبقى على هذه الحال إلى أن مات وقامت فتن فى بلاده بسبب ذلك .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 69.

(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١١٥ .

حلب إلى الناصر محمد يخبره بحقيقة الأمر ؛ فجهز السلطان جيوشه الجرارة وأشرف على خروجها بنفسه ، فكان يعرض كل يوم أميرين من مقدمى الألوف بمن معهم من الجند ، ثم رحل إلى بلاد الشام بعد أن عهد لسيف الدين أيتمش المحمدى المحافظة على القلعة . ولم يكد يعلم المغول بأمر هذه الجيوش حتى عادوا أدراجهم من مدينة الرحبة ؛ ومن ثم عول السلطان على الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن أمر نائبه الأمير سيف الدين أرغون ووزيره أمين الدين بجمع الاموال من دمشق(١) .

على أن المغول ما لبثوا أن اشتبكوا مع المماليك فى حرب سنة ٧١٥ هـ فى ماردين ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى أن نائب حلب ، كان قد عهد إلى الأمير شهاب الدين قرطاى بالذهاب إلى ماردين لاخضاع واليها الذى خالف أوامر السلطان الملك الناصر — وكان للمغول أموال سنوية يحصلونها من هذه الجهة — فصادف وجودهم وجود قرطاى ؛ ومن ثم رأى هذا الأمير أن يحاربهم ؛ فاشتبك معهم فى حرب ، انتهى الأمر فيها بقتل بعضهم وأسر فريق منهم ، وسيق الجميع إلى حلب . ولما علم بذلك السلطان سر سرورا عظيما وأرسل الخلع والهدايا لنائب حلب وقرطاى(٢) .

ولما توفى أولجايتو سنة ٧١٦ هـ ، خلفه ابنه « بوسعيد »(٣) وهو فى الثالثة عشرة من عمره . وقد آلت الوصاية عليه إلى الأمير جوبان الذى

---

(١) تاريخ سلاطين المماليك ص ١٥٩ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٤٧ .

(٣) يلاحظ أن المقريزى (السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٩٥) تارة يذكر إسم هذا الخان بلفظ الكنية «أبو سعيد» ، وطورا يورده بهذه الصيغة «بوسعيد» .

وقد أورد ابن حجر (الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٠١) تحقيقا لاسم هذا الخان نقلا عن الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ؛ وفيما يلى نصه : « الناس يقولون أبو سعيد بلفظ الكنية ، لكن الذى ظهر لى أنه علم ليس فى أوله ألف ، فانى رأيته كذلك فى المكاتبات التى كانت ترد منه إلى الناصر هكذا بوسعيد.»

أصبح أميراً للامراء ، بينما اشترك على شاه مع رشيد الدين فضل الله فى الوزارة .

وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لا يزال يحمل العداوة والبغضاء للمغول إلى حد كبير حتى إنه أرسل سنة ٧٢٠ هـ ثلاثين رجلا من طائفة الحشاشين فى سوريا إلى فارس لاغتيال قراسنقر حاكم مراغة من قبل المغول . وعلى الرغم من فشل هذه المؤامرة فانها أخافت المغول إلى حد كبير ؛ فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الاسماعيلية ، حضروا لقتل السلطان « بوسعيد » ، وجوبان ، والوزير على شاه ، وقراسنقر ، وأمراء المغول ؛ واحتجب « بوسعيد » بخيمته خوفا على نفسه ، كما أنكر جوبان على مجد الدين اسماعيل السلامى الذى كان يقوم بالسفارة للسلطان الملك الناصر هذه المؤامرة وهدده بالقتل ، وقال له : « ويلك ! أنت كل قليل تحضر إلينا هدية وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب مصر لتمكر بنا حتى تقتلنا الفداوية[1] ، والاسماعيلية[2] » .

---

(١) يقول القلقشندى (صبح الأعشى ج ١ ص ١١٩ — ١٢٠ ، ١٢٢) فى تعريف الفداوية ما نصه : « هم طائفة من الاسماعيلية المنتسبين الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين السّبط بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فرقة من الشيعة معتقدهم معتقد غيرهم من سائر الشيعة أن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم انتقلت بالنص الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم الى ابنه الحسن ، ثم الى أخيه الحسين ، ثم تنقلت فى بنى الحسين الى جعفر الصادق ، ثم هم يدعون انتقال الأمانة من جعفر الصادق الى ابنه إسماعيل ثم تنقلت فى بنيه » .

« وسموا الفداوية لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه ، ويسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية » .

أما عن موقف الفداوية إزاء سلاطين مصر ؛ فيروى لنا القلقشندى عن ابن فضل الله العمرى صاحب كتاب مسالك الأبصار أنهم كانوا « يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهرا لهم ، ولذلك يتولونهم ويرون اتلاف نفوسهم فى طاعته لما ينتقل اليه من النعيم الأكبر بزعمهم » ويزيد على ذلك فيقول : « ولصاحب مصر بعشايتهم مزية يخافه بها (عدوه) لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالى أن يقتل بعده ، ومن بعثه الى عدو له يجبن عن قتله، قتله أهله إذا عاد إليهم ، وان هرب تبعوه وقتلوه » .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٠٩ .

على أن الفريقين سرعان ما جنحا للصلح ؛ فرأى بوسعيد أنه من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك ؛ ومن ثم أنفذ المجد السلامى إلى مصر ليمهد السبيل لعقد الصلح ؛ ولم يمض على قدوم هذا السفير زمن طويل حتى وصلت رسل الملك بوسعيد بصحبة نصير الدين قاضى القضاة بتوريز ومعهم كتاب بشأن الصلح ، كان من شرطه :

١ — ألا تدخل الاسماعيلية بلاد المغول .

٢ — لا يرد أى فرد قدم من مصر إلى بلاد المغول .

٣ — من يفد إلى مصر من المغول ، لا يرد إلى بلده إلا برضائه .

٤ — ألا يعهد سلطان مصر إلى العرب أو التركمان بالإغارة على بلاد المغول .

٥ — أن يكون الطريق بين دولة المغول فى فارس ودولة المماليك خاليا من الموانع التى تعوق سير التجارة بين الدولتين .

٦ — أن يسير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز رافعا علم سلطان مصر مع علم بوسعيد .

٧ — ألا يسعى سلطان مصر فى القبض على الأمير قراسنقر حاكم مراغة .

وقد جمع السلطان الملك الناصر محمد الأمراء وشاورهم فى هذا الصلح ؛ فاتفق الرأى على إمضائه ؛ وجهزت الهدايا لبوسعيد ومن بينها خلعة أطلس وقباء تترى[1] .

وكان من أثر هذا الصلح أن حل الوئام بين المغول والمماليك محل الخصام وقدم رسول بوسعيد يطلب من الناصر محمد تجهيز « السنجق السلطانى » ليسير مع المحمل إلى بلاد الحجاز ؛ فأجيب إلى طلبه وكتب لصاحب مكة بإكرام حاج العراق ، كما عمل السلطان على منع العرب من التعرض لهؤلاء الحجاج

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

وصار يدعى لبوسعيد بعد الدعاء لسطان مصر على منابر مكة (١) .

وكان لترحيب الناصر محمد وموافقته على مسير المحمل الذى عنى بوسعيد بتجميله بالحرير المرصع باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر أحسن الاثر ؛ فاصبح الحجاج آمنين على أنفسهم من شر اعتداء الأعراب عليهم أثناء الطريق . ويتبين لنا ذلك مما حدث سنة ٧٢١ هـ ؛ فقد تصدى لحجاج العراق ألف فارس من عرب البحرين ثم توسط بعض الناس بينهم ليتركوهم وشأنهم فى مقابل ثلاثة آلاف دينار ، فقبلوا ذلك ولما قيل لهم إنهم جاءوا من العراق بأمر الملك الناصر صاحب مصر وأنه أرسل كتاباً بالسماح لهم بالمسير إلى الحجاز أعادوا المال ، وقالوا : « لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شىء » وسمحوا لهم بالسير إلى بلاد الحجاز . ولما علم بذلك الناصر محمد أنعم على هؤلاء العربان بالعطايا الجزيلة (٢) .

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم التى سادت بين دولة المغول فى فارس ودولة المماليك فى مصر أن أرسل بوسعيد سنة ٧٢٧ هـ سفارة إلى الناصر محمد بصحبة محمد بيه بن جمق ومعهم رسالة تتضمن خطبة ابنة السلطان للأمير دمشق خواجا ابن الأمير جوبان نائب الملك بوسعيد . وقد وافق السلطان على هذه المصاهرة ، لكنه اشترط لتنفيذها حضور ابن جوبان إلى القاهرة وأنعم على محمد بيه بن جمق بإمرة طبلخاناه ، كما أكرم ضيافة الرسل أحسن إكرام وأعادهم إلى بلاد العراق بهدية جليلة (٣) .

ولم تكن الحالة مستقرة فى دولة المغول ؛ فقد انصرف بوسعيد إلى اللهو واستأثر الأمير جوبان بالنفوذ ؛ فأناب عنه ابنه دمشق خواجا بالأردو (٤)

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٧٨ .

المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٤) الأردو : لفظ مغولى معناه المعسكر (ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ١ ص ١١٦) .

وعين ابنه الثانى دمرداش حاكما على آسيا الصغرى .

وقد أخذ الأمير جوبان يضيق على بو سعيد حتى لم يبق له من الملك إلا الاسم ، وبلغ من تضييقه عليه أنه احتاج فى أحد الأعياد إلى بعض المال فلم يجده ، فأعطاه إياه أحد التجار (١) .

ولما بلغ بو سعيد الحادية والعشرين من عمره ، أثار ازدياد نفوذ الأمير جوبان حسده وعول على التخلص منه . وقد حاول بو سعيد القبض عليه حين ذهب مع ابنه حسين إلى الحدود الشرقية لصد الغارات التى قام بها مغول بلاد ماوراء النهر على خراسان ؛ لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا وقبض على دمشق خواجا وقتله بسبب المؤامرة التى دبرها لاغتياله .

ولما علم جوبان بما يضمره بوسعيد من الشر نحوه ، جمع زهاء سبعين ألف مقاتل ويمم شطر الغرب ؛ فوصل مشهد ثم سار إلى سمنان Simnán حيث أرسل الشيخ علاء الدين ليصلح بينه وبين بو سعيد ؛ لكن هذه المحاولة ذهبت أدراج الرياح وتقدم جوبان نحو الغرب حتى أصبح على مسيرة يوم واحد من بو سعيد .

وكانت كفة النصر أول الأمر فى جانب جوبان لولا خيانة أحد قواده وتسلله إلى بو سعيد هو وثلاثون ألفا ، كما انفض أشياعه من حوله حتى لم يبق معه سوى سبعة عشر رجلا ، فعول على الالتجاء إلى غياث الدين كود فى هراة (٢) ؛ لكن هذا الأمير غدر به وقتله وبعث بجثمانه إلى بو سعيد سنة ٧٢٨ هـ ، فأمر بدفنه بمقبرته التى بناها بالبقيع فى المدينة المنورة (٣) .

أما فيما يتعلق بوقف الأمير دمرداش بن جوبان نائب الملك بو سعيد بآسيا الصعرى ، فانه لما اتصل به خبر مقتل أخيه دمشق خواجا ووقف على

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ ١ ص ١٤٤ .

(٢) من أمهات مدن خراسان . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) ابن بطوطة : جـ ١ ص ١٤٤—١٤٥ .

ما آل إليه أمر أبيه خشى أن يغدر به بوسعيد ؛ ومن ثم عول على الالتجاء إلى الناصر محمد سلطان المماليك فى مصر سنة ٧٢٨ ﻫ (١٣٢٨ م) . وكان الأمير دمرداش قد استبد بالأمور فى بلاد آسيا الصغرى ، وصار يضيق على أتباع الناصر محمد الذين يفدون إلى بلاده ، وفضلا عن ذلك فانه منع التجار وغيرهم من إرسال المماليك إلى مصر .

وقد رأى الناصر محمد أن يلجأ إلى سياسة المخادعة لعله يستطيع الحد من تعنت هذا الأمير . فأخذ يترضاه ويهاديه . وكان لهذه السياسة أثرها البالغ فتبادل مع السلطان الهدايا وارتدى الخلع التى أرسلها إليه الناصر محمد ، كما أنفذ إليه كتاباً ، يعلن فيه دخوله فى طاعته ويستأذنه فى القدوم عليه بعسا كره ليكون نائبا عنه بآسيا الصغرى [1] ؛ فرد عليه السلطان بكتاب رحب فيه بقدومه . ومالبث الأمير دمرداش أن عول على الرحيل إلى مصر بعد أن أوضح لأمرائه أن مما حمله على مغادرة ولايته مسير عساكر مصر إليها ورغبة الناصر محمد فى تعيينه نائباً عنه [2] .

وقد أرسل السلطان إلى نوابه ببلاد الشام يطلب منهم أن يحسنوا استقبال الأمير دمرداش ؛ فتلقاه بدمشق نائب السلطنة الأمير سيف الدين تنكز بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ووفر له سبل الراحة حتى رحل إلى القاهرة حيث حظى بمقابلة السلطان الذى أنعم عليه بالخلع المزركشة وخصص لاقامته جناحا بالقلعة ، كما قرر له ولأتباعه الرواتب السنية ، وصار يركب فى موكب السلطان مرتدياً الأقبية الإسلامية [3] .

ولم يمض على قدوم دمرداش إلى القاهرة زمن طويل حتى طلب من الناصر أن يرسل إلى بلاد آسيا الصغرى فريقا من جيشه ، فأمهله السلطان

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٨٥ ،
المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٨٥ .

قليلا وكتب إلى بدر الدين محمود ملك دولة بنى قرمان [١] يطلب منه أن ينزل على القلعة التى يقيم بها أولاد دمرداش ويرسلهم مكرمين إلى مصر [٢]. فبعث إليه ذلك الملك يعرفه أنهم آثروا البقاء فى بلادهم وقالوا له : « لاحاجة لنا فى مصر » ، وأثار بدر الدين فى خطابه غضب السلطان على دمرداش ؛ فأوضح له أن دمرداش هو الذى أمر أبناءه بعدم مغادرة بلادهم وأنه ماقدم إلى مصر إلا طمعا فى ملكها . ولما وصل هذا الكتاب إلى السلطان استدعى دمرداش لمقابلته وأخبره بما ورد فى كتاب بدر الدين ثم واجهه بنجم الدين اسحق سفير هذا الملك فتحاقا بحضرة الأمراء ومالبث السلطان أن وقف على مايضمره دمرداش من الشر نحوه ؛ فقبض عليه وعلى من قدم معه من كبار رجال ولايته [٣].

وهناك أسباب أخرى حملت الناصر محمد على اعتقال دمرداش ، منها إسرافه فى توزيع أغنامه التى وردت إليه من بلاد آسيا الصغرى على بعض الأمراء ، وإثارته الأحقاد بين الأمراء والخاصكية [٤].

ولم يكد يعلم بو سعيد ايلخان فارس بقدوم دمرداش بن جوبان إلى مصر حتى أرسل سفارة إلى السلطان تحمل كتابا يتضمن رغبته فى إنفاذ دمرداش إليه ، على أن يرسل اليه فى مقابل ذلك الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى . فمال السلطان إلى تحقيق هذه الرغبة أول الأمر ، لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك وعول على قتله حتى لا تشفع له أخته بغداد خاتون والوزير

(١) قامت دولة بنى قرمان بجهات أرمناك وقسطمونية بجنوبى آسيا الصغرى فى أواسط القرن السابع الهجرى . وقد أسسها قرمان بن نورا صوفى المتوفى سنة ٦٢٠هـ (١٢٦١م).
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٦٥ ،
Enc. Isl, Art, Karaman Oghlu,
Lane — Poole, Muh. Dynasties pp. 184—185.
الدكتور زيادة : حاشية رقم ٥ كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٣٠ ، جـ ٢ ص ١٨٥.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٢٩٥ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ورقة ٨٦.

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٢٩٧ .

غياث الدين بن رشيد الدين عند بو سعيد ؛ فأمر بشنقه يوم الخميس ٤ شوال سنة ٧٢٨ هـ (٢٢ أغسطس سنة ١٣٢٨ م) ثم حنط رأسه وأرسل إلى «بوسعيد» (١) .

وقد ظل الصفاء سائداً بين دولتى المماليك والمغول حتى توفى بوسعيد سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥م) فى قراباغ Qara-Bagh قرب أران حين كان يتأهب لقتال أزبك رئيس القبيلة الذهبية بسبب محاولته الإغارة على بلاده (٢) .

وقد ذكر ابن بطوطة (٣) أن بغداد خاتون حقدت على «بوسعيد» ودست له السم لأنه أحب دلشاد خاتون Dilshad Khatun ابنة دمشق خواجا حبا شديداً وهجرها . ولما علم الأمراء بذلك عولوا على التخلص منها فقتلها أحدهم وهى فى الحمام حيث ظلت جثتها أياما .

ولم يترك بوسعيد أولاداً، فاعتلى العرش من بعده Arapagaun من سلالة Arikbuka أخى هولاكو ، بمساعدة الوزير غياث الدين محمد ، ولقب بمعز الدنيا فى الدين . وقد عمد هذا الخان على أثر توليته الحكم إلى تقوية مركزه بزواجه من Satibeg أرملة جوبان وأخت بوسعيد ليضمن بذلك ولاء بيت هولاكو له ؛ ثم سار لمحاربة أزبك رئيس القبيلة الذهبية وأوقع به الهزيمة (٤) .

على أن الفتن والاضطرابات مالبثت أن قامت فى دولة المغول بفارس ، فخرج الأمير على پادشاه Ali Padishah على Arapagaun ، وانضم إلى دلشاد خاتون أرملة بوسعيد ، كما دعا الأمراء والعرب إلى انتخاب خان جديد ؛ فوقع الاختيار على موسى من سلالة هولاكو ، ثم اضطر Arapagaun إلى الفرار سنة ١٣٣٦ م حين سار على پادشاه لمحاربته (٥) .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ورقة ٨٦ .
Browne, Literary History ot Persia, Vol III p. 56.

(٢) Browne, Literary History of Persia Vol. III. p. 57.

(٣) تحفة النظار فى غرائب الأمصار جـ ١ ص ١٤٥ .

(٤) Howorth, History of the Mongols, Vol III. pp. 634—635.

(٥) Howorth, History of the Mongols, vol III, p. 637.

ولم تستقر الأمور فى دولة المغول بتولية الخان موسى ، بل تصدعت أركان هذه الدولة فى عهده ؛ فاستقل الأمراء بولاية الأقاليم ؛ نخص بالذكر منهم الشيخ حسن الجلايرى الذى كان يلى حكم الروم بآسيا الصغرى ، وحاجى توغاى Haji Toghai حاكم أرمينيه وديار بكر منذ سنة ٧٣٢ هـ . وكان هذا الأخير يعادى على پادشاه ؛ فأرسل إلى الشيخ حسن الجلايرى يطلب منه إعداد قواته ، فسار الشيخ حسن قاصداً تبريز لمحاربة على پادشاه على رأس جيش من التركمان والجرجان وأوقع به الهزيمة وقتله سنة ١٣٣٦ م [١] ، ثم دخل بغداد واستولى عليها [٢] .

وقد بلغ من اضطراب الأمور فى دولة المغول بفارس أن أصبح بها ثلاث سلاطين : موسى خان ، ومحمد شاه الذى أقامه الشيخ حسن الجلايرى واتخذ تبريز مقراً لحكمه ، وتوغاى تيمور Tughai Timur الذى استدعاه الأمراء من مازندران بعد تولية محمد شاه وولوه سلطانا بخراسان وصار يدعى له فى الخطبة وينقش اسمه على السكة [٣] .

على أن توغاى تيمور ما لبث أن سار قاصداً تبريز ، وعند وصوله إلى حدود أذربيجان انضم إليه موسى خان ، ثم تابعا سيرهما حتى التقيا بالشيخ حسن الجلايرى ومحمد شاه وجيشه بمراغه فى يونية سنة ١٣٣٧ م ؛ فدارت رحى الحرب بين الفريقين ، وانتهى أمرها بفرار توغاى وهزيمة موسى وأسره ثم قتله على يد الشيخ حسن فى يولية سنة ١٣٣٧ م [٤] .

وكانت هذه الفتن والقلاقل التى أعقبت موت بوسعيد ، سببا فى اتجاه مطامع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نحو بلاد الفرس [٥] . فلما

---

(١) Howorth, History of the Mongols, Vol. III. pp. 637—638

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الثانى ص ٢٤١ .

(٣) Howorth, op. Cit, Vol. III, p. 638.

(٤) Howorth, op. Cit, Vol. III. p. 639.

(٥) Muir, The Momeluke or Slave Dynasty of Egypt p. 70.

قدمت عليه فى أوائل سنة ١٣٣٧ م بعثات من الشيخ حسن الجلايرى والخان محمد ،تطلب مساعدته ، أرسل السلطان بعض قواته إلى حدود دولة المغول .

كذلك عقد الناصر محمد حلفاً مع علاء الدين أرتنا حاكم آسيا الصغرى المغولى الذى استقل بإمارة سيواس وماتبعها من البلاد سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥م) وكان مهدداً من ناحية بالشيخ حسن الجلايرى ، ومن ناحية أخرى بالأمير قراجا بن أبى دلقادر Karaja Ibn Abi Dulkadr[١]. وقد كتب الأمير علاء الدين إلى الناصر محمد يقول : « أريد أن أكون نائبك بممالك الروم » ؛ فأجابه بالموافقة ، وأرسل اليه الخلع السنية ؛ وصارت ترد اليه الكتب باسم « نائب السلطنة الشريفة بالبلاد الرومية » ، كما أصبح اسم الناصر يذكر على منابر تلك البلاد[٢] .

على أن السلطان الناصر مالبث أن أعرض عن تحالفه مع علاء الدين أرتنا ومال إلى جانب كل من الشيخ حسن الجلايرى وقراجا Karaja الذى استولى على قلعة طرندة[٣] Darenda الخاضعة لحكومة أرتنا ، وسأل حاكم حلب أن يبعث اليها حاكماً مصرياً وحامية إسلامية[٤] ، وأقام فيها الدعوة للناصر ؛ ولم تزل هذه القلعة بأيدى سلاطين مصر إلى أن توفى الظاهر برقوق[٥] .

ولما زالت مخاوف أرتنا من جانب الشيخ حسن الجلايرى أمر بحذف اسم الناصر من الخطبة فى بلاده ، وعدم نقش اسمه على السكة ؛ لكنه سرعان ما عدل عن ذلك وجدد العهد الذى أخذه على نفسه حين أغارت قوات من سورية متحالفة مع التركمان بقيادة قراجا بن أبى دلقادر ، على إقليمه[٦] .

---

(١) Howorth, The History of the Mongols Vol. III. p. 640.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٣٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٦٣ .

(٣) بلدة على مسافة ثلاث مراحل من ملطية بأطراف آسيا الصغرى. ياقوت : معجم البلدان .

(٤) Howorth, op. cit, Vol. III. p. 640.

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الثانى ص ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٦) Howorth, op. cit, Vol. III. p, 640 .

ولم يزل علاء الدين أرتنا منذ ذلك الوقت ، يدين بالطاعة لدولة المماليك وتتردد رسله إلى الديار المصرية حتى توفى فى أوائل المحرم سنة ٧٥٣ هـ ، فخلفه بعض أبنائه . وظلت سلالته تتداول إمارة سيواس حتى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث استبد بالسلطة برهان الدين أحمد قاضى هذه الإمارة دون أحد أعقاب بنى أرتنا الأطفال الذى آل اليه الملك سنة ٧٨٠[١] هـ .

وقد ظلت الأمور غير مستقرة فى دولة المغول بفارس لتولية أكثر من سلطان واحد على البلاد وطموح بعض الشخصيات المغولية إلى الاستئثار بالنفوذ، الأمر الذى أدى إلى قيام المنازعات بينهم ويتجلى لنا ذلك فى الحركة التى قام بها الشيخ حسن بن دمرداش[٢] الذى عرف بالصغير تمييزاً له عن الشيخ حسن الجلايرى الملقب بالكبير ، فقد أدى به حرصه على أن يكون له نصيب من السلطة فى دولة المغول إلى إحضاره رجلا تركيا يسمى Karajar وزعمه أنه والده وادعائه أنه هرب من سجون القاهرة وظل مشتتا عدة سنين فى دول بعيدة[٣] ؛ ولعله كان يرمى من وراء ذلك الإدعاء إلى كسب كثير من الأنصار حوله .

ولما وصل إلى الناصر نبأ ثورة حسن الصغير ، وظهور والده دمرداش خشى أن يكون هؤلاء الرجال الذين عهد إليهم بقتله قد خدعوه ، وأنه إذا ما استعاد مركزه يصبح عدوا لدوداً له ؛ ومن ثم أرسل أحمد الشهابى إلى Haji Toghai أمير ديار بكر ليعقد معه حلفا ، يزداد قوة بزواج ابنه بإحدى بنات السلطان . فاستقبل توغاى سفير الناصر بالترحاب ، وبعث إليه يخبره بأنه لم يثق بما زعمه ذلك المدعى ، وأنه تحالف مع حسن الكبير ضده .

على أن الناصر ما لبث أن أعاد الكرة على الأمير توغاى ، فجدد ماطلبه

---

(٢) ابن خلدون : ج ٥ ص ٥٦٠ — ٥٦١ .

(٢) كان دمرداش بن جوبان حاكما على آسيا الصغرى فى عهد بوسعيد ثم فر الى مصر وأمر الناصر بقتله سنة ٧٢٨ هـ .

(٣) Howorth, History of the Mongols, Vol. III, p. 641.

فى سفارته الأولى ؛ فاجاب توغاى بأن هذا الوقت ليس مناسبا للتفكير فى الزواج ، ورجاه أن يرسل بضعة آلاف من رجاله إلى حلب لتعاونه عند الضرورة وتكون عضدا له(١) .

وقد احتدم النزاع بين حسن الكبير ، وحسن الصغير ؛ ودارت بين جيشيهما فى يولية سنة ١٣٣٨ م عدة معارك ، اضطر أثناءها حسن الكبير إلى الفرار ؛ وظل الخان محمد يحارب بشجاعة مع قوات خراسان حتى وقع أسيرا فى يد الشيخ حسن الصغير ، الذى قتله(٢) .

وقد رأى حسن الصغير بعد هذا النصر الذى ظفر به ، أن ينضم إلى جانب الأميرة Satibeg - التى رفضت الانحياز إلى حسن الكبير - ثم عاد معها إلى تبريز . واتفق رأى الأمراء على أن لهذه الأميرة الحق فى العرش مادام لم يبق هناك ذكر من سلالة هولاكو على قيد الحياة ؛ ومن ثم ارتقت Satibeg عرش المغول بفارس سنة ٧٢٩ هـ . وصار يذكر اسمها فى الخطبة وينقش على السكة ، وما لبثت هذه الأميرة أن سارت بصحبة حسن الصغير على رأس الجيش الذى التف حولها ، إلى مدينة ساطانية . ولما سمع بذلك حسن الكبير تقدم ليواجه منافسه ، ثم دارت المفاوضات بينهما ، وحل الوئام بين المتحاربين محل الخصام واعترف حسن الكبير بأحقية Satibeg فى عرش المغول(٣) ؛ وبذلك قضى بالفشل على آمال الناصر وأطماعه فى بلاد الفرس(٤) .

ولم تبد محاولة من جانب خلفاء الناصر للتوسع فى بسط نفوذهم على دولة المغول فى فارس لانصرافهم الى توطيد سلطتهم ، والقضاء على الفتن التى يثيرها الأمراء طمعا فى الاستئثار بالحكم .

على أن حادثا سياسيا وقع ببغداد حمل الأشرف شعبان سلطان مصر

---

(١) Howorth. History of the Mongols, Vol. III. pp. 641—942.

(٢) Howorth, Op. CP.t, Vol III, p. 642.

(٣) Howorth, Op. Cit, Vol. III. pp. 642—643.

(٤) Muir, The Mameluke Or Slave Dynasty of Egypt, p. 70.

على الطموح إلى مد رقعة دولته على حساب المغول ؛ ذلك أن حاكم هذه المدينة التتارى خواجا مرجان تمرد على الخان أويس سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦م) وخطب ببغداد للسلطان الأشرف ، كما بعث رسله إلى القاهرة ومعهم كتاب يتضمن أنه خلع أويس وأقام الخطبة وضرب السكة باسم الأشرف شعبان، وأخذ له البيعة ببغداد ؛ فاستقبل السلطان رسله استقبالا حافلا وزودهم بالهدايا النفيسة ، وجهز له « أعلاما سلطانية وخليفتيه[١] » كما بعث إليه تقليدا بنيابة بغداد[٢] .

على أن ما كان يطمح إليه السلطان الأشرف شعبان من توسيع نطاق مصر ، أسفر عن الخيبة التامة ، إذ هزم حاكم بغداد المتمرد وعادت بغداد إلى دولة المغول [٣] .

(ب) مغول القفجاق

لم تكن العلاقة بين دولة المماليك فى مصر ومغول القفجاق [٤] كما كانت بينها وبين مغول فارس ، بل استمرت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين منذ عهد بركة خان (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) الذى اعتنق الاسلام ودخل فى حلف مع السلطان الملك الظاهر بيبرس، كما اتفق خلفه منكوتمر مع هذا السلطان على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه[٥] .

---

(١) يلاحظ أن كلمة « خليفتية » من التعبيرات السائدة فى ذلك العهد ؛ والصواب « خلفية » بحذف الياء والتاء أيضا ، لأن النسبة الى فعيلة فعلى بحذف الياء والتاء كما نقول فى النسبة إلى صحيفة ومدينة صحفى ومدنى فى المذكر ، وصحفية ومدنية فى المؤنث .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٩ ا — ٤٩ ب .

(٣) Muir, The Mameluke Or Slave Dynasty of Egypt, b. 98.

(٤) كانوا يسكنون حوض نهر الفولجا ؛ ويطلق عليهم أيضاً اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى . وقد اتخذ باطو بن جوجى ابن جنكزخان بعد أن استقر له الأمر فى مملكة القفجاق عاصمة لها سماها (Sarai) (Enc. Isl. arts : Batu Khan,Kipcak) .

(٥) كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٠ — ١١٣ .

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم بين دولتى المماليك ومغول القفجاق أن أنفذ طقطاى ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٤ هـ تحمل هدية وكتاباً يعرض فيه استعداده لمساعدته فى محاربة غازان؛ فأرسل إليه سلطان المماليك رداً ، ذكر فيه أن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أولجايتو خدابنده أذعن للصلح(١) .

على أن طقطاى ما لبث أن أعاد الكرة بعد سنتين ؛ فأرسل إلى مصر سفيره نامون بهدية سنية وكتاب يعلن فيه رغبته فى إرسال جيش يصحب الجيش المصرى إلى الفرات للاستيلاء على بلاد غازان على أن يكون لسلطان المماليك وملك مغول القفجاق ما يفتحه جيش كل منهما . ولما وصل هذا السفير إلى القاهرة ، احتفل الناصر محمد باستقباله وأنفذ معه هدية للملك طقطاى ورداً يتضمن أنه عقد الصلح مع أولجايتو خدابنده ايلخان المغول بفارس ، ولا يليق نقضه ، وأنه إن حدث ما يستوجب ذلك عمل على تلبية طلبه(٢) .

وقد ظل الصفاء سائداً بين هاتين الدولتين حتى آلت زعامة القبيلة الذهبية بعد وفاة طقطاى إلى أزبك (١٣١٣ - ١٣٤٠ م) الذى حذا حذو بركة خان فى نشر الإسلام حتى أصبح ثابت الأركان فى عهده .

وعلى الرغم من تحمس أزبك للدين الإسلامى وتفانيه فى الإخلاص له ؛ فإنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين ؛ فقد منحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية ، وذهب فى تسامحه معهم إلى أبعد من هذا ؛ فسمح لهم بالتبشير لدينهم ونشره فى بلاده(٣) .

وكان لاعتناق أزبك خان الإسلام أثر كبير فى استمرار العلاقات الودية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٧ .

(٢) ابن أبى الفضائل : النهج السديد جـ ٢ ص ١١٧ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأولى ص ٢٧ .

(٣) Sir Thomas Arnold. The Preaching of Islam pp. 240—241.

بينه وبين دولة المماليك فى مصر ؛ فتبادل كل من السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون وأزبك خان المراسلات والهدايا ، كما اقترنت العلاقة بينهما بمصاهرة سلطان المماليك بيت أزبك خان ؛ ذلك أن الناصر محمد أنفذ الأمير علاء الدين أيدغدى الخوارزمى سنة ٧١٦ هـ إلى أزبك خان ومعه رسالة يطلب فيها ربط أواصر الصداقة بينهما عن طريق المصاهرة . ولما تحدث هذا السفير مع أمراء أزبك خان فى مسألة زواج الناصر محمد بإحدى بنات ملوك البيت الجنكزخانى ، نفروا منه أول الأمر وقالوا : « هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جنكزخان وإلى هذا الوقت ، وفى مقابلة ماذا تجهز ابنة ملك من الذرية الجنكزخانية إلى الديار المصرية ؟ » ، ورفضوا الموافقة على طلب الزواج ؛ لكنهم ما لبثوا أن اجتمعوا بعد أن وصلت إليهم الهدايا التى بعثها السلطان إليهم وعدلوا عن رأيهم الأول ، وعملوا على تذليل صعاب مسألة زواج الناصر محمد وقالوا : « ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته إلى ما طلب ، إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين ، سنة كلام ، وسنة خطبة ، وسنة مهاداة ، وسنة زواج » ، واشترطوا لإتمام الزواج أن يقدم السلطان مليون دينار ، ومليون فرس ، وألف عدة كاملة للحرب ، وأن يحضر بعض الأمراء ونسائهم لمصاحبة الأميرة فى سفرها إلى مصر ، وغير ذلك من الشروط التى يتعذر إجابتها . ولما وقف السلطان على هذه الشروط عدل عن الخطبة[1] .

وعلى الرغم من فشل مشروع زواج الناصر محمد بإحدى بنات بيت أزبك خان ، فإن الرسل ظلت تتبادل بينهما حاملة رسائل المودة والصداقة ، دون أن تتعرض لمسألة المصاهرة ، واستمر الحال على ذلك إلى أن توجه الأمير سيف الدين أطوجى سفيرا من قبل الناصر محمد إلى أزبك خان حاملا الهدايا والتحف وخلعة سلطانية مزركشة ؛ فتحدث معه أزبك خان فى مسألة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٣٧ .

زواج الناصر محمد وقال له : « قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكزخانى » ، فقال له الأمير : « إن السلطان لم يرسلنى فى هذا الأمر » . ولما تحدث معه بشأن الصداق ، اعتذر الأمير عن التحدث فى هذا الموضوع لعدم وجود مال معه ؛ ثم طلب أزبك من التجار أن يقرضوا هذا الأمير بعض الأموال . فاقترض منهم سبعة وعشرين ألف دينار ، ثم جهزت الخاتون دلنبية[1] مع جماعة من الأمراء والخواتين وصحبهم قاضى مدينة صراى ؛ فركبوا جميعاً البحر فى رمضان سنة ٧١٩هـ ، قاصدين مصر ؛ فمروا فى طريقهم بالقسطنطينية ، حيث بالغ أمبراطورها فى إكرامهم ، ثم تابعوا سفرهم إلى الإسكندرية ؛ فوصلوا إليها فى ربيع الأول سنة ٧٢٠هـ ، حيث كان فى انتظارها الأمير أقبغا عبد الواحد وبعض الحجاب وثمانية عشر حراقة . فركبت الخاتون فى الحراقة السلطانية الكبرى وركبت حاشيتها فى الحراريق الأخرى ؛ واستقر ركابها عند ساحل مصر حيث حملت إلى القلعة فى عجلة موشاة بالذهب والطنافس[2] .

وقد تغالى الناصر محمد فى إكرام الوفد الذى قدم مع خطيبته ، ودعاهم لمقابلته . ولما مثل كبير رسل الملك أزبك بين يديه سلمه رسالة هذا الملك وقال له : « ... قد سيرنا لك من بيت كبير ، فإن أعجبتك خذها بحيث لا تخلى عندك أكبر منها ، وإن لم تعجبك ، فاعمل بقوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فقال له السلطان : « نحن ما نريد الحسن ، وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخى ، ونكون نحن وإياه شيئاً واحداً » .

ولم تمض أيام قلائل على وصول وفد الملك أزبك ، حتى تولى عقد الزواج قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة على صداق قدره ثلاثون ألف دينار ؛ وكتب علاء الدين على بن الأثير كاتب السر هذا العقد بخطه[3] .

(١) يقال لها أيضا طولونية .
(٢) النويرى ج ٣٠ ورقة ١٣٧ — ١٣٨ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

وكان من أثر هذه المصاهرة أن زادت الصلات توثقا بين دولة المماليك فى مصر ، ودولة مغول القفجاق ، وعادت الحال بين هاتين الدولتين إلى ماكانت عليه أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس الذى حالف بركه خان وتزوج بابنته . وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك فى مصر ، برباط المصاهرة .

وقداستمرت عرا الصداقة مستحكمة بين هاتين الدولتين فى عهد جانى بك ابن أزبك خان ، فتبودلت المراسلات بينه وبين السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٥٦ هـ [١].

ولم يكن للانحلال الذى أصاب دولة مغول القفجاق بعد وفاة بردى بك [٢] ابن جانى بك أثر فى تغيير مجرى العلاقات بينها وبين دولة المماليك فى مصر ، بل ظل الصفاء سائدا بينهما ؛ فأرسل السلطان الملك الأشرف شعبان إلى « أرض خان » الذى انتزع الملك من أحفاد أزبك ، وفدا مزودا بهدية من الأقمشة المنسوجة بالاسكندرية وبعض الطرف ، كما بعث إليه برسالة يتباهى فيها بعظمة ملكه وتوارث الحكم فى أسرته ، ويعتذر عن تأخره فى الكتابة إليه بانشغاله بمحاربة الفرنجة الذين أغاروا على الاسكندرية ؛ ومما ورد فى هذه الرسالة [٣] : « . . . . . . الحمد لله الذى وهبنا ملكا دانت له ملوك الأقطار ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٩٥ .

(٢) كانت دولة مغول القفجاق قد تطرق إليها الوهن بعد وفاة بردى بك ، فتنازع الأمراء السلطة واستقلوا بولاية الأقاليم ؛ فاستقر « أرض خان » بصراى (Sarai) عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، والأمير « ماماى » بالقرم سنة ٧٧٦ هـ ؛ ثم طمح طقتمش ابن بردى بك إلى عرش آبائه ؛ فسار لمحاربة أرض خان وأوقع به الهزيمة . ولما توفى هذا الخان فى منتصف سنة ٧٧٦ هـ ، سهل على طقتمش الاستيلاء على أعماله بجبال خوارزم كما تمكن من ضم صراى الى حوزته ، وما زال يوالى انتصاراته حتى استعاد ملك آبائه من أيدى الأمراء المتغلبين .

(ابن خلدون : جـ ٥ ص ٥٣٧ — ٥٣٩) .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٩٦ — ٢٩٨

وازدانت الأسرة والتيجان بما له من عظمة وفخار ، ... نحمده على أن جعل مملكتنا الشريفة هى محل الإمامة العباسية ، فلاجحود ولا إنكار .. ونشكره على أن أورثنا ملك أسلافنا الشهداء ، فأقر العيون وسر الأسرار ، وجعل السلطنة المعظمة فى بيتنا المكرم تنتقل تنقل البدور فى بروجها . . .

وكان لنا مدة مديدة ، وقد تأخرت رسلنا عن (حضرتك) ولم تصدر من جهتنا الشريفة . . . ولا وردت رسل من (جهتك) ؛ ولم يشغلنا عن ذلك إلا موافقة الفرنج المخذولين أعداء الدين ، ومقارعتهم فى سائر السواحل بشدة البأس والتمكين . . .

وقد وجهنا إلى المقام العالى أعلى الله شأنه صحبة رسلنا المذكورين من الأقشة الإسكندرى (هكذا فى الأصل) وغيرها على سبيل الهدية والمواهب السنية . . . »

* * *

وصفوة القول أن علاقة مغول القبيلة الذهبية بالمماليك كانت مبنية على أساس متين نظراً للصلات الوثيقة التى تربط ملوك القفجاق بسلاطين مصر ؛ فإلى جانب الوحدة الدينية ، كان هناك المنفعة السياسية المتبادلة وهى العداوة المتأصلة لبيت هولاكو ؛ على حين أن علاقة ايلخانات فارس بالمماليك لم تكن موطدة توطيدا تاماً حتى بعد اجتماعهم فى ظل الإسلام وتبادل المراسلات الودية بينهم ؛ ويمكننا أن نستدل على صحة هذا الرأى من موقف تكودار أحمد إزاء دولة المماليك فلم يكن خطابه المتضمن عبارات الود والصداقة الذى بعثه إلى قلاوون صادرا عن نية خالصة ، لأن انشغاله بمحاربة أحد منافسيه على العرش حال دون شنه الغارات والحروب على تلك الدولة ؛ وكذلك كان شأن غازان محمود فإنه لما خلا له الجو فى دولته قام بنفس الدور الذى قام به أجداده الوثنيون ؛ فبدأ بالعدوان فى موقعة مرج الصفر كما بدأ هولاكو من

قبل بتهديد المماليك إن لم يذعنوا له ، وانتهى الأمر بهزيمة أتباعه من المغول فى موقعة عين جالوت [١] .

ولعل السبب فى تلك العداوة راجع إلى أن دولة المغول دأبت منذ عهد جنكزخان على التوسع ومد رقعة بلادها . وقد رأت دولة المماليك فى استمرار هذه الحركة ما يهدد كيانها وخاصة أنها كانت تعنى بأن يكون لها مركز ممتاز بين الدول المجاورة لها .

---

(١) بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان . انظر كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره للمؤلف ص ٤٨ — ٥٠

الفصل الرابع

علاقة مصر بأرمينية الصغرى

بدأت العلاقات تظهر لأول مرة بين المماليك والأرمن فى عهد الظاهر بيبرس الذى حاربهم سنة ٦٤٤ هـ (١٢٦٦ م) وأوقع بملكهم الهزيمة، كما تمكنت جيوشه من دخول سيس[١]، وغنمت من بلاد أرمينية مغانم كثيرة سنة ٦٧٣ هـ [٢].

وقد واصل المماليك الإغارة على بلاد أرمينية فى عهد السلطان الملك المنصور قلاوون؛ فوصل جنده إلى مدينة أياس[٣] سنة ٦٨٢ هـ، وحاربوا الأرمن عند باب اسكندرونه؛ وبعد أن أوقعوا بهم الهزيمة عادوا محملين بالغنائم[٤].

وكان الأرمن يؤدون إتاوة معينة لسلاطين المماليك بمصر؛ غير أنه يظهر لنا أنهم عمدوا إلى قطعها فى عهد الأشرف خليل؛ فأرسل إلى ملكهم كتاباً بعد فتح عكا، أشاد فيه بعظم مجهود جيوش المماليك الذين حاصروا تلك المدينة، كما دعاه إلى إرسال القطيعة المقررة والحضور لمقابلته؛ وفيما يلى نص هذا الكتاب[٥]: « ليعلم الملك تكفور الأرمن، وفقه الله فى سره وجهره،

---

(١) وهى عاصمة أرمينية الصغرى، وموقعها بين أنطاكية وطرسوس. ياقوت معجم البلدان.

(٢) مفضل بن أبى الفضائل: جـ ١ ص ١٥٢.
كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٤ — ١١٥.

(٣) أياس: عاصمة بلاد ما وراء نهر جيحان، (وتقع فى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى على ساحل البحر الأبيض) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٣٣، جـ ٨ ص ٣٠، Le Strange, Palestine Under Moslems, p. 405.

(٤) المقريزى: السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧١٦.

(٥) تاريخ سلاطين المماليك ص ٨.

وجعله ممن يلتقى المصيبة فى أهل ملته إذا عجز أن يلتقيها بصدره . أما بعد ، فإنا فتحنا عكا التى هى على دين الصليب ، فى هذا الأمد القريب ؛ فصار فتوحها حقاً بعد أن كان فتوحها يقيناً شكا . فلو رأيت خندقها العميق مردوما ، وكل برج منيع مهدوما ، وفرسانها فى خنادقها جاثية ، قد أصبحوا بسيوفنا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية . ولمـــا أحاط بها ركابنا المنصور ، أحاط بها كما يحيط بها السور ، أظهروا الجلاد فى القتال ، ورموا بالمجانيق والنبال ، وحسبوا أن بأسها يصونهم ، وأنهم ما نعتهم حصونهم ، فما نفعهم الحديد ، ولا كثرة العدد والعديد ، لما قومنا لهم كل سنان ، وجاءهم الموت من كل مكان ، أشرفنا عليه من الأسوار ، وأحطنا بهم كما يحيط اليد السوار ، فولوا من بين أيدينامنهزمين ، وأصبحوا على ما فعلوا نادمين ، فكل منهم يرى طريحا أو أسيرا لما دمرناهم وديارهم تدميرا . وأما الديوية فمامنعهم طارقة ولا جنوية ، وأما الاسبتار فأفناهم سيفنا البتار ، وأما الزنادقة البنادقة فألقوا أنفسهم فى البحر لما رأوا حملاتنا الصادقة . وأنت أيها الملك إذا لم تعتبر بعكا ، لأنكيناك على أقصى وجودك وتندم ندامة أهل عكا ، حيث لا ينفع الندم ؛ فتحمل القطيعتين الأولى والثانية ، وتحضر بنفسك إلى أبوابنا العالية . وإن أطعت المخالفة لإبليس ليطيلن حزنك على بلاد سيس ، فكل منكم يقول ما بقى بعد عكا إلا أنا . فانج بنفسك قبل أن يقع الويل والعنا ، واعتمد ما رسمنالك والسلام .».

كذلك أمر السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩٢ هـ ، بانقاذ حملة لاستعادة بهسنا من الأرمن ؛ غير أن رسل ملك أرمينية سرعان ما قدموا إلى دمشق يطلبون العفو من السلطان ؛ فتم الاتفاق معهم على أن ينزل الأرمن للماليك عن بهسنا ومرعش وتل حمدون ؛ وأكد ملك أرمينية حرصه على طاعة السلطان بإرساله الأتاوة إليه[1] .

على أن الأرمن ما لبثوا أن حاولوا استعادة نفوذهم على بعض البلاد

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٨٤ .

التى نزلوا عنها للماليك مما حمل سلطان مصر الملك المنصور حسام الدين لاجين على تجهيز حملة لغزو بلاد أرمينية . وكانت الأحوال ملائمة فى ذلك الوقت بما كان قائما فى تلك البلاد من الخلاف على وراثة العرش ، وفضلا عن ذلك فإن غازان إيلخان المغول فى فارس وحليف أرمينية كان مشغولا بمحاربة أعدائه فى الشرق(١) .

وقد هاجمت حملة المماليك مدينة سيس ، ثم استأنفت سيرها إلى تل حمدون فوجدتها خالية من الأرمن ، وبذلك تيسر لها الاستيلاء عليها . واضطر الأرمن أمام قوة المماليك إلى تسليم بعض قلاعهم(٢) .

وقد حمل الأرمن ملكهم سمباد Sempad تبعة تلك الانهزامات التى حلت بهم ، واستدعوا أخاه قسطنطين Constantine ليولوه ملكا عليهم ؛ فسار إلى سيس وخلع سمباد من العرش وحل محله سنة ١٢٩٨ م ؛ وما لبث سمباد بعد ذلك أن فر إلى القسطنطينية .

وقد أظهر قسطنطين للمصريين دخوله فى طاعة السلطان واتفق معهم على أن تكون لهم الأراضى الواقعة جنوبى نهر جيحان(٣) ؛ وبذلك دخل فى حوزتهم كثير من البلاد والقلاع نخص بالذكر منها : حميص وتل حمدون ومرعش(٤) . وظلت هذه البلاد فى يد المماليك حتى قدم غازان بقوات المغول إلى بلاد شام سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) فحاول الأرمن استعادتها إليهم ، وما لبث المماليك أن اضطروا إلى النزوح عنها بعد أن عجزوا عن الاحتفاظ بها(٥) .

---

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Fgypt p. 50

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٦ — ٣٧ ، المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٣٨ — ٨٤٠

(٣) يخرج هذا النهر من آسيا الصغرى عند زبطره Zabatarah وتقع عليه المصيصة ؛ ويصب فى بحر الروم على مسافة قريبة منها . ياقوت : معجم البلدان
Le Strange, Palestine Under Moslems p.62

(٤) Howorth, Historyof The Mongols. vol III, p. 431

(٥) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٦ و ٤٥

ولما وصل إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نبأ خروج ملك أرمينية على طاعته سنة ٧٠١ هـ وتحالفه مع غازان ، أمر بإنفاذ جيش لمحاربته ؛ فخرج الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى على رأس حملة ؛ وسار إلى حماة حيث انضم اليه نائبها كتبغا مع فريق من الجند ؛ وبذلك تعاونت القوتان على محاربة الأرمن . فلما نزل جنودهما بلاد سيس عاثوا فيها تخريباً ونهباً ، ثم عادوا مظفرين بعد . أن مكثوا فى هذه البلاد بضعة أيام (١) .

لم يقلع الأرمن عن مناوأة المماليك ، وسرعان ما انضمت جيوشهم إلى المغول فى حملتهم على بلاد الشام سنة ٧٠٢ هـ التى تغلب عليها المصريون . فلما هدأ بال السلطان الملك الناصر من ناحية المغول ، وجه إلى الأرمن فى أواخر سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤ م) جيشاً من مصر والشام تحت رئاسة ثلاثة من أكفاء القواد : بدر الدين بكتاش الفخرى ، وعلم الدين سنجر الصوابى ، وشمس الدين سنقر شاه المنصورى ؛ فدخلوا اسيس وخربوا مزارعها وأسروا كثيراً من أهلها ، ثم حاصروا تل حمدون وتمكنوا من فتح قلعتها صلحاً ، وبذلك عادت هذه البلاد تدين بالطاعة للسلطان الملك الناصر (٢) .

ولما تأخر هيتوم Haithon ملك أرمينية عن دفع الإتاوة ، بعث إليه نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) جيشاً تحت قيادة الأمير سيف الدين قشتمر ، ففرض عليه ملك أرمينية مبلغاً من المال فى مقابل رجوعه عن بلاده ، فأبى وواصلت جنوده زحفها ، وأخذت فى إحراق بعض القرى حتى صدتهم جيوش المغول والأرمن وأوقعت بهم الهزيمة (٣) .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أحوال البشر ج ٤ ص ٤٢ — ٤٧ ، تاريخ سلاطين المماليك ص ١٢٨ — ١٢٩ ،

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ، المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٤٩ .

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٤٢٠

Howorth, History of the Mongols, Vol III p. 556

ولما علم الناصر محمد بتلك الهزيمة التى لحقت بجنوده فى بلاد أرمينية ، جهز جيشاً تحت قيادة بكتاش الفخرى لإضعاف شوكة الأرمن وبسط سيادته على دولتهم ، فخشى ملك أرمينية عاقبة هجوم هذا الجيش على بلاده ، وكتب إلى نائب حلب يعرفه أن المغول وحدهم يتحملون تبعة محاربة جنوده ، وأرسل إليه هدايا ثمينة ، كما وعده بأنه سيؤدى الإتاوة بانتظام ؛ فكان ذلك سببا كافيا لحمل الناصر محمد على أن يبعث فى طلب الجيوش المصرية من بلاد أرمينية [1] .

وعلى الرغم من هذه الحملات التى وجهها الناصر محمد إلى أرمينية الصغرى ، فإن نفوذ المصريين لم يتوطد فيها ، فقد اضطروا إلى الجلاء عن كثير من البلاد والقلاع التى ضموها إلى حوزتهم فى عهد الملك المنصور لاجين ، وأصبح مظهر سيادتهم على هذه الدولة محصوراً فى الإتاوة السنوية التى يدفعها ملك أرمينية لسلطان مصر .

ولم يكن الناصر محمد بالسلطان الذى يقنع بهذه الإتاوة ، بل كانت سياسته ترمى إلى تأمين حدود بلاد الشام الشمالية ، والوقوف فى وجه الأرمن الذين تحالفوا مع المغول ضده ؛ ومن ثم طلب من أوشين Oshin ملك أرمينية النزول عن البلاد والقلاع التى فتحها المصريون فى عهد المنصور لاجين . ولما لم يجبه هذا الملك إلى طلبه ، أرسل حملة إلى بلاده تحت قيادة الأمير شهاب الدين قرطاى حاكم إمارة طرابلس سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠م) . وقد تقدم جنود هذه الحملة فى سيرهم حتى وصلوا نهر جيحان ، ثم عبروه وتابعوا زحفهم على سيس، فشددوا الحصار عليها ، وخربوها مع غيرها من البلاد التى مروا بها ، وعادوا بعد ذلك إلى بلاد الشام محملين بالغنائم . وكان ملك سيس إذ ذاك مريضاً ، فتضاعف مرضه حين وصل اليه نبأ دخول القوات المصرية بلاده ، وما لبث أن توفى وخلفه ابنه ليو الخامس Leo V سنة ١٣٢٠ م – وله من العمر عشر سنوات –

(١) النويرى نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٤ ، المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٧ .

فقام Bailiff oshin بالوصاية عليه(١) .

وقد أرسل ليو ووصيه على أثر إعتلائه العرش إلى البابوية يطلب منها أن تمد له يد المساعدة . فأرسل اليه البابا حنا الثانى والعشرون يعرفه بانشغال ملوك أوربا فى الحروب الدائرة بينهم ؛ لكنه مع ذلك وعده بأن يمده ببعض القوات .

ولما علم الناصر محمد بما يقوم به ليو لتحريض ملوك أوربا ضده ، عول على الانتقام منه ؛ فأوعز إلى دمرداش حاكم بلاد آسيا الصغرى بمهاجمة أرمينية . فزحف على سيس وخربها ، كما عاث فيها فساداً أحد أمراء الترك . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تقدمت اليها القوات المصرية واستولت على عدة مدن وأحرقت أطنة ، وغنمت منها كثيراً من الغنائم .

ولما وقف البابا على هذه الأحداث التى حلت بأرمينية ، دعا رعاياه المسيحيين إلى مساعدة الأرمينيين بالمال والرجال ، وأرسل إلى ليو مبلغاً من المال ، يستعين به على إعداد قواته . ولم يكن هذا كل ماقام به البابا لمعاونة ملك أرمينية بل بعث إلى بوسعيد ايلخان المغول بفارس كتاباً فى ١٣ يوليه سنة ١٣٢٢م يذكره فيه بمحالفة أسلافه لملوك أرمينية وانضمامهم إلى المسيحيين ورجاه أن يرسل إليه نجدة ؛ فجهز إليه عشرين ألف رجل (٢) .

ومع أن الدعوة التى قامت بها البابوية لمساعدة ملك أرمينية ، بالوقوف فى وجه المماليك فإن كبار رجال الأرمن أظهروا لرسول الناصر محمد — الذى قدم إلى بلادهم لأخذ الإتاوة — استعدادهم للاتفاق مع السلطان ؛ فقالوا له: « إذا أراد السلطان أن يقاسمنا على ما تتحصل عليه من بلادنا ، وأن يفرض علينا جزية سنوية مقدارها ديناران على كل شخص بما فى ذلك ملكنا ، أجبناه إلى طلبه ، وإن أراد أن يسلم إلى نوابه القلاع والبلاد التى تمتد من نهر

(١) أبو الفدا : ج ٤ ص ٧٨ ، ٨٨

Howorth, History of the Mongols. vol III p. 602.

(٢) Howorth, History of The Mongols. vol III pp. 603 — 604 .

جيحان إلى المملكة الحلبية حققنا له رغبته ، على أن يضع عنا فى مقابل استيلائه على هذه القلاع ثلث المال المقرر وهو أربعمائة ألف درهم .

على أن الجنود المصرية والشامية سرعان مازحفت على بلاد أرمينية سنة ٧٢٢ هـ تحت قيادة نائب حلب ، قبل أن يطلع السلطان على المقترحات التى أدلى بها الأرمن لسفيره . ولما وصلوا أياس ، وجدوا أن أهلها قد أخلوا المدينة ، فدخلوها دون مقاومة ، ثم تقدموا إلى القلعة التى احتمى بها أهل سيس ، فحاصروها واستولوا عليها عنوة ؛ وما لبثوا أن عادوا إلى بلاد الشام ومصر محملين بالغنائم [١] .

ولم يمض عام واحد على إغارة جيوش السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على بلاد أرمينية حتى أنفذ ليو الخامس ملك سيس ، قسطنطين Constantine بطرك الأرمن سفيراً إلى مصر ومعه الإتاوة وهدية من الجواهر الثمينة . ولما مثل هذا الرسول بين يدى السلطان ، اعتذر له عما حدث من ملك أرمينية ، واستأذنه فى تجديد بناء مدينة أياس ، على أن يرسل اليه هذا الملك مائة ألف درهم كل سنة ؛ فأجاب بالموافقة . وعقدت هدنة بين المصريين والأرمن لمدة خمسة عشر عاماً حين وصلت قوات المغول إلى أرمينية [٢] .

ولما رأى ليو الخامس ملك أرمينية أن وصيه Oshin الذى يعرف بصاحب كرك [٣] Lord of Kurk استأثر بالنفوذ دونه ، عول على التخلص منه ؛ فقتله وبعث برأسه إلى سلطان المماليك بمصر . وقد سر الناصر محمد من

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ورقة ١٢ — ١٤ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٢٣٧ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٤ ص ٩١ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٢٤٦

Howorth, History of the Mongols, vol III p. 604 .

D' Ohsson, Histoire Des Mongols, vol IV pp. 664—565.

(٣) قلعة صغيرة تقع فى أطراف مدينة سيس من جهة الغرب والشمال م

حرص ليو الخامس على إظهار ولائه نحوه ، وأرسل اليه خلعة وسيفاً وفرساً(١) .

على أن سياسة حسن التفاهم بين المماليك والأرمن لم تدم طويلا ؛ فقد أخذ ليو الخامس ملك أرمينية ينحرف عن ولائه لمصر . ويرجع السبب فى اتجاهه هذه السياسة إلى ما كان يأمله من مساعدة الحملة الصليبية التى شرع فيليب السادس ملك فرنسا فى إنفاذها ؛ غير أن مشروع تلك الحملة ما لبث أن تلاشى عند موت البابا حنا الثانى والعشرين (٢) .

ولما وصل إلى الناصر محمد أن الأرمن قاموا ببعض غارات على الحدود السورية ، سير إليهم عدة جيوش من القاهرة ودمشق وطرابلس وحماه ، وعهد إلى علاء الدين الطنبغا نائب حلب بقيادتها سنة ٧٣٧ هـ ؛ فأوغلت هذه الجيوش فى بلاد أرمينية وظلت تحاصر بلدة أياس حتى قدم رسول الأرمن من دمشق ومعه كتاب من نائب الشام يطلب فيه من قائد جيوش المماليك الكف عن محاربتهم ، على أن يتسلم البلاد والقلاع الممتدة إلى نهر جيحان ؛ فأوقف نائب حلب الحرب وتسلم هذه البلاد من الأرمن(٣) .

وعلى الرغم مما أصاب أهل أرمينية من الذل والهوان ، فإن دولتهم ظلت قائمة ، كما عجز المماليك فى عهد السلطان الملك الناصر محمد عن توطيد نفوذهم فى أراضى هذه الدولة ؛ فظلوا يهاجمون بلادهم ويشنون عليهم الغارات سنة بعد أخرى حتى تمكن الأمير أشقتمر الماردينى — نائب حلب — من قبل السلطان الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٦هـ من الاستيلاء على سيس وسائر قلاعها بعد أن ظل يحاصرها مدة ثلاثة شهور ، ومن ثم زالت دولة الأرمن(٤) .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٩٩

Howorth, History of the Mongols Vol III p. 604 :

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 71.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ١١٩

(٤) ابن خلدون : جـ ٥ ص ٤٣٠ ، والنجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢٢٤ (طبعة جامعة كاليفورنيا) .

الفصل الخامس

سياسة مصر إزاء الصليبيين

كان الصليبيون يرجون تحويل المغول إلى المسيحية لإيجاد جبهة متحدة من آسيا وأوربا تستطيع الإطباق على دولة المماليك فى مصر والشام ، وبذلك يتسنى لهم الاحتفاظ بالأراضى المقدسة ؛ لكن هذا المشروع ما لبث أن تضاءل واختنق ، فانصرف خانات المغول فى فارس إلى موالاة الزحف والإغارة على بلاد الشام واعتنقوا الإسلام . ولم ينتصف القرن الرابع عشر الميلادى حتى عم هذا الدين أواسط آسيا .

وقد رأت دولة المماليك إزاء الخطر الذى يهددها من ناحيتى الصليبيين والمغول أن تعمل على الفل من شوكتهم والقضاء عليهم ؛ فبذل سلاطين مصر قصارى جهدهم — كما رأينا — فى دفع خطر المغول حتى ردوهم على أعقابهم . وكانوا فى نفس الوقت الذى شغلوا فيه بمحاربة المغول يعملون على التخلص من الصليبيين ؛ فوجه الظاهر بيبرس الجيوش إلى بلاد الشام لإجلائهم عنها ، لكنه توفى قبل أن يتم له ذلك ؛ فظلوا مقيمين فى بعض جهات سواحل الشام وخاصة طرابلس وعكا . فلما ولى قلاوون سلطنة مصر ، عول على مهادنة الصليبيين حتى لا يفاجأ بخروجهم عليه وهو يحارب المغول ؛ فجدد الهدنة التى عقدها بيبرس مع الفرسان الاسبتارية بحصن المرقب ، كما عقد معاهدة فى ٣ مايو سنة ١٢٨١ م مع الفرسان الاسبتارية بعكا ، تقررت بمقتضاها الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات[١] . وأبرم فى ١٦ يولية سنة ١٢٨١ م معاهدة أخرى مع

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٤ ا

بوهمند السابع أمير طرابلس(١) ؛ كان من بين شروطها(٢) :

١ – تعقد هدنة بين بلاد السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الصالح على ، وبين بلاد صاحب طرابلس لمدة عشر سنين .

٢ – يقيم نواب السلطان وصاحب طرابلس بمدينة اللاذقية للإشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة .

٣ – على صاحب طرابلس ألا يبنى خارج مدينته ولا فى البلاد التى وقعت الهدنة حصناً أو قلعة ، وكذلك يتعهد السلطان بألا ينشىء قلعة تجاور البلاد التى وقعت هذه الهدنة .

٤ – لا تنقضى هذه الهدنة بوفاة أحد الطرفين المتعاقدين أو بانتقال الحكم إلى غيره .

كذلك عقد السلطان مع صاحب عكا(٣) هدنة فى ٣ يونية سنة ١٢٨٣ م ، تعهد فيها الطرفان بعدة التزامات ، سنكتفى بإيراد أهمها فيما يأتى(٤) :

١ – تعقد هدنة بين بلاد السلطان الملك المنصور سيف الدين أبى الفتح قلاوون الملكى الصالحى وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين على ، وبين حكام مملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام .

٢ – يكون جميع رعايا السلطان وتجار بلاده آمنين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم أثناء ترددهم على مدينة عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى الهدنة .

٣ – لا يتعرض الفرنجة – الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية

---

(١) Staney Lane-Poole. A History of Egypt in the Middle ages pp. 278—279;
Stevenson. The Crusaders in The East p. 347 .

(٢) بيبرس الدودار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٤ ب — ١٢٦ ا
النويرى : نهاية الأرب ج٢٩ ص ٢٧٨ ا — ٢٧٨ ب

(٣) كانت عكا وصيدا وعثليث من بقايا مملكة بيت المقدس ، وملكها فى تلك السنة Charles of Anjou . وقد تولى نائبه ببلاد الشام أودو بوالشبان Odo Poilechien مفاوضة السلطان فى الهدنة . King. The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 284.

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١٤ ص ٨٨ ا — ٩٣ ب

الداخلة فى الهدنة — بأى سوء لأراضى السلطان وولده، ولا لرعاياهما على اختلاف أجناسهم ؛ وكذلك تكون جميع بلاد عكا وما عين فى هذه الهدنة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان وولده، ومن عساكره ورعاياه.

٤ — لا يجدد الفرنجة فى عكا وعثليث وصيداً حصناً أو سوراً.

٥ — إذا هرب أحد من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة فى هذه الهدنة ورغب فى اعتناق النصرانية يرد جميع مامعه من الأموال وإن كان لا يرغب فى اعتناق النصرانية يعاد إلى السلطان بجميع مامعه بعد أن يعطى الأمان، وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة بقصد الدخول فى الإسلام وأسلم بإرادته يرد جميع مامعه من الأموال، وإن كان لا يميل إلى اعتناق الإسلام يرد إلى حكام عكا بعد أن يعطى الأمان.

٦ — إذا وجد — بعكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة — مع أحد تجار المسلمين شىء من الممنوعات مثل الأسلحة، ترد إلى الشخص الذى باعها له ويعاد اليه ثمنها.

وكذلك إذا سافر أحد تجار الفرنجة من عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى الهدنة إلى البلاد الإسلامية ووجد معه شىء من الممنوعات ترد إلى صاحبه الذى باعها له ويعاد اليه ثمنها.

٧ — إذا أصيبت إحدى مراكب تجار بلاد السلطان وولده بعطب فى موانى عكا والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة، يكون كل من فيها آمناً على نفسه وأمواله وأمتعته ؛ وإذا عثر على أصحاب هذه المراكب، تسلم اليهم مراكبهم وأموالهم.

أما إذا تعذر العثور عليهم، فيحتفظ بأموالهم وتسلم لنواب السلطان ؛ وكذلك الحال فيما يتعلق بمراكب الفرنجة الذاهبة إلى بلاد السلطان، يحتفظ بما يجدونه بها ويسلم لحاكم مملكة عكا إذا عد صاحبها من المفقودين.

٨ — إذا توفى أحد تجار بلاد السلطان بعكا وصيدا وعثليث والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة يسلم ماله لنواب السلطان ؛ وكذلك الحال إذا توفى أحد تجار عكا وصيدا وعثليث ببلاد السلطان، يرسل ماله لحاكم عكا

٩ — إذا أقدم أحد ملوك الفرنجة أو التتار على المسير لمهاجمة بلاد السلطان، يلزم نائب المملكة بعكا أن يخبر السلطان بحركته قبل وصوله إلى البلاد الإسلامية الداخلة فى الهدنة بمدة شهرين.

١٠ — يبادر فلاحو البلاد الإسلامية المقيمون ببلاد الفرنجة التى اشتركت فى هذه الهدنة بالعودة إلى بلادهم ؛ وكذلك الحال فيما يتعلق بفلاحى بلاد الفرنجة لا يسمح لهم بالإقامة فى بلاد المسلمين.

١١ — يكون الحجاج المسيحيون الذين يفدون من عكا والبلاد الساحلية لزيارة كنيسة الناصرة آمنين فى ذهابهم وقدومهم إلى حدود البلاد الداخلة فى هذه الهدنة، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان بسوء.

١٢ — يتعهد السلطان بحماية البلاد التى عقد معها هذه الهدنة، من اعتداء جنوده والمتلصصين والمفسدين، كما يلزم حاكم عكا بدرء أخطار المفسدين الداخلين تحت حكمه، عن بلاد المسلمين.

وقد تعهد قلاوون، بأن يعمل على تنفيذ نصوص هذه الهدنة ؛ وفيما يلى نص يمينه [١].

« والله والله والله، وبالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله. والله العظيم الطالب الغالب، الضار النافع، المدرك المهلك، عالم ما بدا وما خفا، عالم السر والعلانية، الرحمن الرحيم. وحق القرآن ومن أنزله، ومن أنزل عليه وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وما يقال فيه من سورة سورة وآية آية، وحق شهر رمضان، إننى أفى بحفظ هذه الهدنة المباركة التى استقرت بينى وبين مملكة عكا والمقدمين بها، على عكا وعثليث وصيدا وبلادها، التى تضمنتها هذه الهدنة، التى مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١٤ ص ٩٣ ب — ٩٤ أ

ساعات ، أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة ، من أولها إلى آخرها ، وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المشروحة فيها ، وأجرى الأمور على أحكامها إلى انقضاء مدتها ، ولا أتأول فيها ولا فى شىء منها ، ولا أستفتى فيها طلبا لنقضها ما دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليث ، وهم كافل المملكة بعكا ، ومقدم بيت الديوية ومقدم بيت الاسبتار ، ونائب مقدم بيت الاسبتار ... ، ومن يتولى بعدهم فى كفالة مملكة أو مقدم بيت عنهم ، بهذه المملكة المذكورة ، وافين باليمين التى يحلفون بها لى ولولدى الملك الصالح ولأولادى ، على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن ، عاملين بها وبشروطها المشروحة فيها إلى انقضاء مدتها ، ملتزمين بأحكامها . وإن نكثت فى هذه اليمين فيلزمنى الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المشرفة ، حافيا ، حاسرا ، ثلاثين حجة ، ويلزمنى صوم الدهر كله ، إلا الأيام المنهى عنها . . . والله على مانقول وكيل . »

كذلك تعهد أودو بوالشيان — نائب الملك شارل بالبلاد الشامية — بأن يلتزم الوفاء بشروط الهدنة إذا ظل السلطان الملك المنصور قلاوون حريصا على تنفيذها ، وفيما يلى يمينه التى حلف بها فى هذه الهدنة :

والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح ، وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب ، وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، المكنى بها عن الأب والابن وروح القدس إله واحد ، وحق اللاهوت المكرم الحال فى الناسوت المعظم ، وحق الانجيل المطهر وما فيه ، وحق الأناجيل الأربعة التى نقلها متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وحق التلاميذ الاثنى عشر ، والاثنين وسبعين ، والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة ، وحق الصوت الذى نزل على نهر الأردن فزجره ، وحق الله منزل الانجيل على عيسى بن مريم ... ، وحق الست مارية أم النور . . . ، وحق الصوم الكبير ، وحق دينى ومعبودى وما أعتقده من

النصرانية ، وما تلقنته من الآباء والأقساء المعمودية ، إننى من وقتى هذا وساعتى هذه ، قد أخلصت نيتى ، وأصفيت طويتى فى الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما ، بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة التى انعقد عليها الصلح ، على مملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها الداخلة فى هذه الهدنة المسماة فيها ، التى مدتها عشر سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يوم الخميس ثالث حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعةوتسعين للإسكندر بن فيلبس اليونانى ، وأعمل بجميع شروطها شرطا شرطا ، وألتزم الوفاء بكل فصل فى هذه الهدنة المذكورة إلى انقضاء مدتها .

« وإنى واللهوالله والله وحق المسيح وحق الصليب وحق دينى ، لا أتعرض إلى بلاد السلطان وولده ، ولا إلى من حوته وتحويه من سائر الناس أجمعين ، ولا إلى من يتردد منها إلى البلاد الداخلة فى هذه الهدنة ، بأذية ولا ضرر ، فى نفس ولا فى مال . وإنى والله وحق دينى ومعبودى أسلك فى المعاهدة والمهادنة والمصافاة والمصادقة ، وحفظ الرعية الإسلامية والمترددين من البلاد السلطانية ، والصادرين منها وإليها ، طريق المعاهدين المتصادقين ، كف الأذية والعدوان عن النفوس والأموال وألتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة إلى انقضائها ، ما دام الملك المنصور وافيا باليمين التى حلت بها على على الهدنة ولا أنقض هذه اليمين ولا شيئا منها ، ولا أستثنى فيها ولا فى شىء منها طلبا لنقضها ؛ ومتى خالفتها أو نقضتها فأكون بريئا من دينى واعتقادى ومعبودى ، وأكون مخالفا للكنيسة ، ويكون على الحج إلى القدس الشريف ثلاثين حجة ، حافيا حاسرا ، ويكون على فك ألف أسير مسلم من أسر الفرنج وإطلاقهم ، وأكون بريئاً من اللاهوت الحال فى الناسوت . . . »

ولما زالت مخاوف السلطان قلاوون من ناحية المغول ، عول على إخضاع المدن الصليبية ؛ فهاجم فجأة حصن الإسبتارية بالمرقب سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) رغم المعاهدة التى عقدها معهم لمدة عشر سنين [١] ؛ وذلك بسبب اعتراضهم

Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Midde ages P. 281 (١)

قافلة من التجار المسلمين . وظل هذا الحصن محاصراً ثمانية وثلاثين يوما حتى رحب الفريقان بعقد معاهدة التسليم ؛ فالاسبتارية رأت أن موقفها أصبح من المتعذر الدفاع عنه ، أما السلطان فرغب فى المحافظة على أسوار الحصن من خراب مطبق ؛ وانتهى الأمر بإجلاء الحامية إلى طرابلس تحت حراسة جند السلطان ، وسمح لهم بنقل ما يستطيعون حمله من أموالهم (١) .

وكان لاستيلاء السلطان قلاوون على حصن المرقب أثره فى المدن الصليبية الأخرى ، فاضطر أمير طرابلس أن يسلم له مرقية ، كما اشترى Margaret of Tyre الصلح لمدة عشر سنوات بنزوله عن نصف دخل صور السنوى ، وتعهده بعدم تجديد تحصيناتها (٢) .

ولم تمض ثلاث سنوات على استيلاء السلطان قلاوون على حصن المرقب حتى ورد إليه كتاب من نائبه ببلاد الشام ينبئه فيه بأن الفرنجة بطرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين رغم تعهدهم بألا يتعرضوا للتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر . فأعد قلاوون العدة سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩م) للإستيلاء على هذه المدينة (٣) ، وحفزه على السير فى تحقيق تلك الغاية ماحدث بينه وبين بارثلميو Bartholomew صاحب جبيل من خلاف ؛ ذلك أن بارثلميو كان قد عرض على قلاوون أن يعاونه على امتلاك طرابلس ، على أن تكون مناصفة بينهما ؛ فلما استقر له الأمر فيها ، شرع فى التسويف والمغالطة لاعتقاده أن الفرنجة لا توافق على تنفيذ ما تعهد به للسلطان . لذلك لم ير قلاوون بدا من محاربته قبل استفحال نفوذه (٤) ؛ فسار إلى طرابلس على رأس قوات من الفرسان والمشاة ، وبعد أن دار قتال عنيف بين الفريقين ، تمكن المسلمون من إحداث ثغرة فى الأسوار ، واحتشدت جنودهم داخل

---

(١) Stevenson, The Crusaders in The East p. 349

(٢) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle ages p. 281

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الثالث ص ٧٤٦

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٠ — ٣٢١

المدينة، وما لبثت طرابلس أن سقطت فى ٢٩ ابريل سنة ١٢٨٩ م بعد حصار دام تسعة وثلاثين يوماً، ثم تلا ذلك وقوع معركة كبيرة قتل فيها سبعة آلاف من أهالى طرابلس، وأقلع فريق كبير منهم بالسفن إلى قبرص، ولجأ الفريق السيء الحظ من سكان هذه المدينة إلى جزيرة St Nicholas [١] حيث ماتوا جوعا [٢].

ولما تم للسلطان قلاوون الاستيلاء على طرابلس، أبقى للأميرة Lucia أخت الأمير المتوفى بوهمند السابع وصاحبة طرابلس من بعده [٣] قريتين من قراها، كما أقر بارثليو على بلدة جبيل على سبيل الإقطاع، وأخذ منه معظم أموالها [٤].

كان من أثر سقوط طرابلس أن أصبحت المدن اللاتينية ببلاد الشام تحت رحمة السلطان قلاوون، وصار أملها الوحيد أن تلبى أوربا نداء البابا فى العمل لمصلحتهم. غير أن هذا الأمل ذهب سدى؛ فقد تنصل ملك فرنسا من كل مسؤولية، كما أن ملكا أرجونة وصقلية وقعا معاهدة سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) تلزمهم بمساعدة السلطان قلاوون ضد أى حرب صليبية وضد اللاتين بسورية إذا نقضوا الهدنة التى أبرموها مع هذا السلطان، أما ادوارد الأول ملك انجلترا فكان عازما على القيام بحرب صليبية أخرى، لكن

(١) ذكر أبو الفدا (المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢٣) أن جنود المسلمين عبروا البحر وراء الفارين إلى تلك الجزيرة التى تقع بالقرب من طرابلس، وقتلوا جميع من فيها من الرجال وسبوا النساء والأطفال، كما عاثوا فى الأرض فسادا. وقد شاهد بنفسه مبلغ ما حدث بها عن التخريب والقتل؛ ووصفه بقوله: «وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها فى مركب فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيهـا من نتن القتلى».

(٢) King, The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 288

(٣) Stevenson, The Crusaders in The East, p.349

(٤) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج ١٥ ص ٢٦١

هذا، وقد ذكر (Stevenson, The Crusaders in the East P .350) أن بارثليو حاكم جبيل تعهد للسلطان بدفع جزية سنوية.

الجدال الكبير بين الشرق والغرب انتهى قبل الوقت المحدد لقيام هذه الحرب.

وقد حملت المجهودات التى بذلها البابا نيقولا الرابع فى سبيل نصرة اللاتين بسورية مئات من الحجاج، بل ألفاً أو ألفين على العبور إلى عكا فى صيف سنة ١٢٩٠ م. وقد عجل حضورهم النكبة التى حلت بالصليبيين؛ ذلك أن بعضهم انتهك حرمة المسلمين الذين كانوا يعيشون فى أمان بالقرب من عكا بمقتضى المعاهدة المبرمة بين السلطان واللاتين (١)، وقتلوا جماعة من تجارهم (٢) (شعبان سنة ٦٨٩ هـ، أغسطس سنة ١٢٩٠ م)؛ فاتخذ قلاوون من ذلك ذريعة لإعلان الحرب على هذه المدينة التى أصبحت فى عهده ملجأ للصليبيين الذين وقعت مدنهم فى أيدى المسلمين. ولما أظهر أمراء المماليك تخوفهم من مهاجمتها لمنعة حصونها، دعا السلطان القضاة وأخبرهم باعتداء الفرنجة على التجار المسلمين بالقرب من عكا، فأفتوه بأن ما لحق التجار من الإهانات هو مبرر كاف لإعلان الجهاد على الصليبيين (٣)، ثم شرع فى إعداد المعدات لحصار عكا، لكنه ما لبث أن توفى (ذو القعدة سنة ٦٨٩ هـ، نوفمبر سنة ١٢٩٠ م).

ولم يكن لوفاة قلاوون أى أثر فى تبدل موقف مصر إزاء الصليبيين، فقد عول ابنه الأشرف خليل على إتمام مشروعه، ولم يقبل من اللاتين ما اعتذروا به وأخذ فى الاستعداد للحرب بنشاط (٤)، كما أصر على إخراج الصليبيين كافة من سورية. فأرسل إلى ولاته ببلاد الشام يطلب منهم تجهيز وسائل النقل لحمل الذخائر وعدد الحرب إلى أسوار عكا (٥). ونودى فى الجامع الأموى بدمشق بالاستعداد لغزو عكا، فشرع الأهالى فى جر المجانيق،

---

(١) Stevenson, The Crusaders in the East, pp.351—352

(٢) مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ج ٢ ص ٣٨٦

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 39.

(٤) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٦٢

Stevenson, The Crusaders in the East p, 352.

(٥) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 44

وأعد الأمير حسام الدين لاجين نائب الشام جيشه ، ثم غادر دمشق قاصدا عكا ، كما زحف كل من الملك المظفر صاحب حماه برجاله وسيف الدين بلبان الطباخي نائب طرابلس والحصون الساحلية بعساكره(١) . وأذن السلطان لبيبرس الداوادار نائب الكرك بالمسير إلى عكا لمحاربة الصليبيين ؛ وفيما يلي نص ماقاله هذا النائب عن اشتراكه فى تلك الغزوة (٢) : وكنت حينئذ بالكرك فلما بلغنى أمر هذه الغزاة ، ووردت على مراسيم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات تاقت نفسى إلى الجهاد ، وحنت إليه حنو الأرض الظامئة إلى صوب العهاد ، فطالعت السلطان بذلك ، وسألته أن أصير إلى هناك لأساهم فى ثواب الغزو وأشارك ، فأذن لى فى الحضور ، وسمح بالدستور ، فكنت كمن فاز أمله بنجاح وانجلى ليله بصباحه . فجهزت من الزردخانات المانعة والآلات النافعة ، والرجال المجتهدين ، والرماة والحجارين ، والغزاة والنجارين . وتوجهت ملاقيا السلطان ، فوافيته وقد وصل إلى غزة ، فلقيت منه إكراما وبشرا وابتساما وسرت فى ركابه إلى عكا .. » .

ولما عزم الأشرف خليل بن قلاوون على التوجه إلى عكا ، أقام احتفالا دينيا بالقبة المنصورية ، دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان(٣) ، ومالبث أن سار على رأس جنده إلى بلاد الشام .

وكان جيش السلطان الذى احتشد أمام عكا فى ربيع سنة ١٢٩١ م مهيبا بسبب كفاية مدفعيته وما لديه من آلات الحصار التى بلغ عددها اثنين وتسعين منجنيقا (٤) .

---

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ج ٢ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦٣ — ٧٦٤ .

(٢) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١١٦٩ — ١٦٩ ب .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧٦٤ ،

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 285.

(٤) Stevenson, The Crusaders in the East p. 352

أما عن الحالة فى داخل أسوار عكا ، فقد اجتمع بها ممثلون لملوك أوربا وبيت المقدس والهيئات الدينية . وكان لكل من هؤلاء حكومة منفصلة عن الأخرى حتى أصبح بها سبعة عشر دولة مستقلة . وليس غريبا أن تصير تلك المدينة فى ظروف كهذه الملجأ الذى تتخذ جميع مساوىء المسيحية طريقها إليه ؛ فقد أهملت بها فروض الدين والقانون والفضيلة حتى أصبحت فى أواخر أيامها مضغة فى أفواه المسيحيين لانغماس أهلها فى الترف والرذيلة(١) .

وقد بذلت حامية عكا كثيرا من الجهد فى سبيل الدفاع عنها ، وشدت أزرها النجدة التى أرسلتها جزيرة قبرس(٢) . غير أن استعدادها لم يكن تاما ؛ فلما بدأ المسلمون هجومهم الأخير فى ١٨ مايو سنة ١٢٩١م ، أحدثت آلات حصارهم ثغرة فى الأسوار ، ثم اتخذ الجند طريقهم إلى المدينة ، فهرب كثير من أهلها إلى الأبراج وقصور الأشراف والهيكليين ، كما أقلع عدد كبير منهم بالسفن التى كانت راسية فى المرفأ إلى قبرس . وكان من بينهم هنرى الثانى صاحب هذه الجزيرة ، وقد تبعه رئيس الاسبتارية وفريق آخر من اللاجئين ؛ غير أنه بقى بالمدينة ٦٠،٠٠٠ مسيحيا ، كان مصيرهم بين السبى والقتل . أما الهيكليون ومن لاذ بهم ، فقد انتهت حياتهم أشرف نهاية ، ذلك أنهم ظلوا يقاومون حتى قوض حصنهم وهلكوا فى خرائبه(٣) .

وبذلك سقطت عكا بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوما ، ثم أحرقت المدينة ودمرت ، بعد أن لبثت فى أيدى الصليبيين مائة عام كاملة (٤) .

وكان السلطان الملك الأشرف خليل حين مهاجمته عكا ، قد أنفذ فريقا من جنده تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر الصوابى لحفظ الطرق والتضييق

---

(١) Archer and Kingsford, The Crusades p. 414

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.44

(٣) Archer and Kingsford, The Crusades p. 418.

(٤) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 44.
Stevenson, The Crusaders in the East p. 354.

على صور ؛ فقام هذا الأمير بمهمته وحال دون دخول المراكب المحملة بالمنهزمين من عكا ، ميناء صور ؛ وأخذ يشدد الحصار على هذه المدينة حتى اضطر أهلها إلى طلب الأمان ؛ فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلم المدينة . وقد شجعت هذه السهولة التى تم بها فتح صور الأشرف خليل على أخذ مابقى من المدن الصليبية ؛ فندب الأمير علم الدين سنجر الشجاعى نائب الشام لفتح صيدا[١] ولما ظهر أسطول المسلمين على بعد منها أخلى اللاتين المدينة، ومالبث أن سلمت بيروت وعثليث وأنطرطوس[٢] . وقد علق أبو الفدا[٣] على تسليم هذه المدن بقوله : « واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولاتعب ... وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام ، وكان أمرا لايطمع فيه ولايرام .. »

ولما عاد السلطان إلى القاهرة بعد قضائه على الصليبيين بعكا ، زينت له أحسن زينة واحتفل باستقباله احتفالا باهرا ؛ فدخلها وبين يديه عدد عظيم من أسرى الفرنجة ، مقيدين فى الأصفاد وفى أثرهم الفاتحون يحملون الأعلام المسيحية منكسة ورءوس أعدائهم على أسنة رماحهم[٤] .

ولم يقض سقوط عكا فى يد المماليك على فكرة الحروب الصليبية ، بل ظلت عالقة بأذهان الناس ؛ فأخذ الهيكليون الذين كانوا لايزالون مستحوذين على جزيرة أرواد[٥] يغيرون من حين لآخر على ساحل طرابلس مما حمل السلطان الناصر على إرسال حملة لمحاربتهم سنة ١٣٠٢ م ، كما أبحر إليها الأمير سيف الدين استدمر الكرجى نائب السلطنة بطرابلس على رأس فريق من

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨ ، ١٠ .

(٢) Stevenson, The Crusaders in the East p. 355

(٣) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢٥ .

(٤) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 44—45.

(٥) تقع فى الجهة الشمالية من طرابلس الشام على بعد خمسين كيلو مترا ، وفى الجنوب الغربى من أنطرطوس على بعد ثلاث كيلو مترات .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ حاشية رقم ١ ص ١١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٦ .

الجند . وما لبث المماليك أن تمكنوا من الاستيلاء على تلك الجزيرة ، وقتل من أهلها ما يقرب من ألف نسمة ، ووقع فى الأسر ما يناهز نصف هذا العدد ، كما غنم الجند جميع ما عثروا عليه بالجزيرة ؛ وبذلك قضى على البقية التعسة من جنود الحرب الصليبية العظمى[١] .

ولم يكن الفرسان الاسبتارية الذين استقروا برودس[٢] أقل حماسا من إخوانهم الهيكليين فى العمل على استعادة الأراضى المقدسة ؛ فأخذوا يعملون على مناوءة المسلمين ، وانضموا فيما بعد إلى حملة بطرس الأول Pierre I ملك قبرس التى هاجمت الإسكندرية فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى .

على أن فكرة القيام بحرب صليبية لم تخرج عن أنها بقيت حية فى أوائل القرن الرابع عشر لأن البابوية لم تكن من القوة بحيث تستطيع تعهدها وخاصة بعد نقل الكرسى البابوى إلى أفنيون سنة ١٣٠٥ م .

ولما أصبح القيام بالحرب الصليبية حجة مقبولة يستطيع أن يتذرع بها الملوك لأخذ الأموال من الكنيسة ، جاهر فيليب الرابع[٣] ملك فرنسا بعدائه للمسلمين فى سبيل الحرب المقدسة . وقد اتخذ هذه السياسة بشكل جدى كثير من الشخصيات من مختلف طبقات مجتمع العصور الوسطى ؛ فوضعوا مشروعات صليبية معينة ، ورفعت إلى البابا وملك فرنسا والمجلس الدينى المنعقد

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٤ .
أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٤٧ .
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p, 57.

(٢) كان الفرسان الاسبتارية بعد خروجهم من عكا مع بقية الصليبيين سنة ١٢٩١ م قد اتخذوا جزيرة قبرس ملجأ لهم ؛ وبعد أن حاولوا عبثا المفاوضة مع القسطنطينية لنقل حقوق ملكية الجزيرة إليهم ، هاجموا جزيرة رودس بتحريض فيليب الجميل والبابا واستولوا عليها سنة ١٣١٠ م .
Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire pp. 43 – 44.

(٣) كان فيليب الرابع قد اعتقد بعد نقله الكرسى البابوى الى أفنيون أن البابوات أصبحوا فى قبضة يده وفى الامكان فرض ضرائب باهظة عليهم لملء خزائنه .
Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 48.

فى ڤينا (١٣١١ — ١٣١٢ م) المشروعات العظمى لإنعاش فكرة الحروب الصليبية . وقد تقدم بهذه المشروعات رجال قضوا زمنا طويلا بالشرق وغيرهم ممن لم يذهبوا وراء البحار [١] .

ولما كانت مصر مركز العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر ، والقرن الخامس عشر ، أخذ ملوك أوربا وبابواتها وأصحاب الرأى فيها يدعون إلى توجيه الحملات الصليبية ضد دولة المماليك .

ولم يكن رجال مصر غافلين عما يدبره لهم الصليبيون ؛ فحين وصل اليهم سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) أن ملك قبرص هنرى الثانى لوسجنان Henry II Lusignan (١٢٨٥ — ١٣٢٤ م) اتفق مع بعض ملوك الفرنجة على بناء ستين قطعة حربية لغزو دمياط ، دعا السلطان بيبرس الجاشنكير الأمراء وشاورهم فى هذا الأمر ؛ فاتفقوا على بناء جسر يمتد من القاهرة إلى دمياط خشية نزول الفرنجة وقت فيضان النيل ، وعهد إلى الأمير جمال الدين أقوش الرومى الحسامى بالإشراف على هذا العمل ، وطلب من الأمراء والولاة أن يخرج كل منهم برجاله ليساهموا فى بناء هذا الجسر ؛ وبذلك تيسر للأمير أقوش إنجازه فى أقل من شهر . وكان يبتدىء من قليوب وينتهى عند دمياط ويسير عليه الراكب يومين . ولما عاد هذا الأمير إلى القاهرة بعد فراغه من إعداد الجسر ، خلع عليه السلطان وشكره على همته . ثم استقر الرأى بعد ذلك على بناء جسر آخر بطريق الاسكندرية وندب للإشراف عليه الأمير سيف الدين الجرمكى [١] .

ويتبين لنا من اهتمام سلطان مصر باتخاذ الحيطة لدرء خطر الصليبيين عنها سنة ١٣٠٨ م أن أخبار المشروعات الصليبية كانت تصل إلى القاهرة كأنها حملات توشك أن تهاجم البلاد مع أن شيئا من تلك المشاريع لم يكن فى حيز التنفيذ حوالى ذلك الوقت .

---

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. p. 48.

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ٤٨ — ٤٩ .

وكان هنرى الثانى ملك قبرس من بين الشخصيات الكبيرة التى أخذت تدعو بعد وقعة عكا الحاسمة إلى معاودة الحرب ضد سلاطين المماليك لإعادة الدولة الصليبية إلى مكانها القديم ؛ وتحقيقا لهذا الغرض ، أرسل سفيرين ليرفعا آراءه فى الحرب الصليبية إلى البابا كلمنت الخامس Clement V ، والمجلس الدينى المنعقد فى ڤينا ؛ وكان من بين ما تضمنته أنه لاضعاف القوة الحربية للسلطان والمسلمين لابد من أن يكون الحصار البحرى ضد مصر وسورية والولايات الإسلامية أداة نافذة المفعول ؛ فتجهز عدد من الزوارق الكبيرة لأسر المسيحيين الخونة الذين ينقلون المماليك الجدد لتقوية الجيش المصرى ، والشرط الجوهرى لنجاح هذا الأسطول فى مهمته استقلاله عن حكومات البندقية وپيزا وجنوة وجميع القوات البحرية الإيطالية الأخرى ، لأن ولاءهم لقضية المسيحية ضد الاسلام ، كان ينظر اليه الملك هنرى الثانى بعين الريبة ، وإذا ما روعيت هذه التقييدات ، فإن القوة البحرية المصرية تمحى وتنفد مصادرها (١) .

وقد ظلت فكرة مهاجمة دولة المماليك بمصر سائدة فى أوربا إلى أن تكفل بتنفيذها بطرس الأول Pierre I ملك قبرس سنة ١٣٦٥ م ، ذلك الرجل الذى كان من حيث الأخلاق والثقافة أصلح الملوك اللاتين المعاصرين لقيادة الحرب المقدسة (٢) .

ولم تخف على بطرس الأول الدعايات التى قامت بأوربا فى القرن الرابع عشر الميلادى لإثارة حماس المسيحيين للإستيلاء على الاسكندرية تلك المدينة التى كانت حقيقة ملكة البحر الأبيض . وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن الملك المسيحى الذى يضع يده على مينائها يستطيع بمساعدة أسطول صغير إعتراض كل المواصلات بين مصر والعالم الخارجى ، وبمعاونة جيش مدرب

---

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 58

(٢) Atiya, Op. Cit p. 319

يجتاح كل الاستحكامات الداخلية ثم يتقدم إلى القاهرة حيث يتيسر له القضاء على عاصمة الامبراطورية التى استحوذت على الأراضى المقدسة .

وكان لهذه الاعتبارات أثرها فى تطلع بطرس الأول إلى الاستيلاء على الاسكندرية ؛ فشرع فى تجهيز حملة صليبية للإغارة عليها سنة ١٣٥٦ م ، وكتب اليه البابا إربان الخامس فى ١٩ يوليه من هذه السنة كتابا بارك فيه حملته .

وقد لبى أهالى جنوة والبندقية دعوة بطرس الأول ؛ فأمدوه بالرجال والسفن الحربية وأبحر أسطوله إلى رودس حيث استقبل بمظاهر الفرح والسرور وانضم إليه بجانب النقالات التى حصل عليها من تلك الجزيرة أربع سفن جهزها Raymond Berenger رئيس طائفة الاسبتارية ، ومائة من الفرسان بقيادة أمير ال هيئة الإسبتارية Ferlino d'airasca .[1]

وقد حرص بطرس الأول على كتمان الجهة التى سيقصدها الأسطول لعدم إطمئنانه إلى إخلاص الجمهوريات الإيطالية له وخشيته من أن تذيع سر حملته وتحذر سلطان مصر منها ؛ فأصدر الأوامر للقواد فى ٤ أكتوبر سنه ١٣٦٥ م بأن يتبعوا فى سيرهم ساحل آسيا الصغرى إلى جزيرة Crambusa . ولما رسا الأسطول بتلك الجزيرة أذيع غرض الحملة ، ثم أبحر إلى الإسكندرية فوصلها بعد خمسة أيام[2] (٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م) .

ولم يواجه الصليبيون فى هجومهم على الإسكندرية مقاومة جدية ، بل كان سبيل فتحها ممهدا لهم للأسباب الآتية :

أولا : غياب والى الإسكندرية صلاح الدين خليل بن عرام ببلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وقيام الأمير جنغرا بالعمل مكانه . وقد عرف هذا الأمير بالضعف والتردد ، كما أنه لم يكن بالحاكم المجرب الذى يستطيع أن ينظم وسائل الدفاع عن المدينة .

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages pp. 341—343

(٢) Atiya, Op, Cit pp. 345—348

ثانيا : ضعف حامية الإسكندرية وعدم اهتمام السلطة المركزية فى القاهرة بتقويتها .

ثالثا : فيضان النيل وماتنتج عنه من غمر الدلتا بالمياه ، فأصبح من المتعذر إمداد حامية الإسكندرية بنجدة من القاهرة على وجه السرعة .

رابعا : اضطراب الحالة الداخلية بمصر ، فلم يكن على رأس الحكومة سلطان قوى يستطيع أن يقود حملة لصد هجوم الصليبيين[١] ، بل استأثر بالنفوذ الأمير يلبغا دون السلطان الملك الأشرف شعبان الذى كان لايتجاوز الثانية عشرة من عمره[٢] .

لما رسا أسطول ملك قبرص وحلفائه من الفرنجة ، فى مياه الإسكندرية ، خرج الأمير جنغرا حاكم المدينة ورجاله لصدهم ، فرماهم الصليبيون من المراكب بالسهام . وظل القتال دائرا بين الفريقين حتى هزم المسلمون واستشهد عدد كبير منهم ، ومضى الأمير جنغرا مع بعض أهالى الإسكندرية إلى دمنهور بعد أن نقل ما كان فى بيت المال من الذهب والفضة ، كما قاد معه خمسين تاجرا من تجار الفرنجة . ومالبث أن اخترق ملك قبرس المدينة راكبا ، وأطلق الفرنجة يد السلب والنهب فيها وانضم إليهم النصارى الذين كانوا يقيمون بالثغر ودلوهم على دور الأغنياء ، فأخذوا مافيها وظلوا أربعة أيام يعيثون فى المدينة فسادا ثم خرجوا بالأسرى والغنائم إلى مراكبهم[٣] .

وقد خربت الإسكندرية ونهبت فى خلال فترة الاحتلال الصليبى بدرجة يصعب إدراكها ، فأحرقت الفنادق والمدارس والقصور والمساجد ، وكثير من الأحياء حتى أصبح منظر المدينة مروعا . وحمل الصليبيون معهم كثيرا من أهالى الاسكندرية الذين نجوا من تلك المعركة . وكان يبلغ عددهم خمسة آلاف ، وقعوا جميعا أسرى فى أيديهم . وهؤلاء كانوا لايشملون فقط

---

(١) Atiya, The Crusade in The Later Middle Ages pp. 351-352

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٤٧ — ٤٧ ب .

الرجال المسلمين ، بل بينهم نساء ، ويهود ، ومسيحيون شرقيون[١] .

وقد علق المقريزى[٢] على ماحل بالإسكندرية من جراء حملة بطرس الأول ملك قبرس بقوله : « فكانت هذه الواقعة من أشنع مامر بالإسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها وقلت أموالهم وزالت نعمهم . »

وتتجلى لنا الإساءة التى ألحقها الفرنجة بالإسكندرية فيما يرويه ابن إياس[٣] عن الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة التلمسانى الذى قال فى رثائها بعد أن دخلها الفرنجة المحرم سنة ٧٦٧ هـ (أكتوبر سنة ١٣٦٥ م)

ألا فى سبيل الله ماحل بالثغر ... على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتاها من الإفرنج سبعون مركبا ... وضاقت بها العربان فى البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسودا ... بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر
أتوا نحوها هجما على حين غفلة ... وباعهم فى الحرب يقصر عن فتر
فكم من فقير عاش فيها من الغنى ... وكم من غنى مات فيها من الفقر
نثرت دموعى يوم فرط نظامهم ... فياليت شعرى من يبلغهم نثرى

ولما سقطت الإسكندرية فى يد الفرنجة عقد بطرس الأول ملك قبرس اجتماعا ، دعا إليه جميع أعوانه للتشاور فى الموقف الجديد ، وكان من رأى هذا الملك ألا يجلوا الصليبيون عن المدينة ، بل يدافعون عما فتحوه ; أما أغلبية أتباعه ، فكانوا يرون رأيا مخالفا لرأيه وقد نادى به Vicomte de Turenne فقال إنه من المتعذر أن يظل الأسطول حيث هو ويقوم بمهمة الدفاع نظرا لقلة عدد الحامية المسيحية ، بينما أبواب المدينة مفتحة للعدو الذى يستطيع بوفرة عدده أن يوقع الصليبيين فى شرك[٤] .

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages pp. 365—367.

(٢) السلوك جـ ٣ ص ٤٧ ب .

(٣) تاريخ مصر جـ ١ ص ٢١٥ .

(٤) Atiya, The Crusade in The Later Middle Ages p. 364

ولما وصل إلى القاهرة نبأ قدوم الفرنجة بأسطولهم إلى الإسكندرية ، ظن الأمير يلبغا أن وراء أخبار هذه الحملة مؤامرة يراد بها القضاء على نفوذه ، فأسرع إلى داره ولم يجب طلب الأمير جنقرا حتى ثبت لديه من تدفق اللاجئين من الاسكندرية أن الفرنجة اقتحموا المدينة . ونودى فى القاهرة بالتأهب لقتال الفرنجة، فخرج الناس أفواجا ، وسار السلطان الأشرف شعبان برفقة الأتابك يلبغا والعساكر الاسلامية ؛ فلما وصلوا إلى الطرانة ، أنفذ السلطان جيشاً تحت قيادة الأمير قطلوبغا المنصورى والأمير كوندك والأمير خليل بن قوصون لإنجاد أهالى الاسكندرية . وبينما كانوا يجدون فى سيرهم جاءت الأخبار بأن الصليبيين جلوا عن المدينة حين سمعوا بقدوم السلطان ؛ فسر الناس بذلك[١] ، وأرسل السلطان مرسوما إلى الأمراء الذين تقدموه فى السير إلى الإسكندرية بأن يقيموا بتلك المدينة للإشراف على إصلاح ما تهدم منها وإقرار الطمأنينة فى نفوس الأهالى[٢] .

وقد صب الأمير يلبغا غضبه على المسيحيين ، انتقاما لما أحدثه الصليبيون بالإسكندرية ؛ ففرض عليهم مبالغ فادحة[٣] ليفدى بما يجمعه منهم الأسرى[٤] .

كذلك وجه يلبغا عنايته إلى إنشاء أسطول حربى لغزو بلاد الفرنجة ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) ابن اياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ٢١٥ .

(٣) ذكر ابن كثير (البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣١٥) أنه صدر مرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بالشام ، بالقبض على النصارى ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لإصلاح ما خرب من الاسكندرية ولإعداد أسطول لغزو الفرنجة ؛ ثم أبدى عدم موافقته على تلك السياسة بقوله : « ولم تكن هذه الحركة شرعية ، ولا يجوز اعتمادها شرعا ، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة ... فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده فى النصارى ، فقال ان بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعا ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا ، ومتى كانوا باقين على الذمة ، يؤدون الينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار وأحكام الله قائمة لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد — الفرد — فوق ما يبذلونه من الجزية » .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٧ ب .
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 99.

فبعث فى طلب البحارة وعمال السفن ، كما كتب إلى نواب الشام بإخراج جميع النجارين لقطع الأخشاب ونشرها من جبل شغلان بالقرب من أنطاكية ، وأن يعملوا على نقلها الى مصر [١] .

على أن الفرنجة [٢] ما لبثوا أن بعثوا برسلهم الى الإسكندرية . وقد طلب هؤلاء الرسل عند وصولهم إلى مرفأ المدينة رهائن حتى ينزلوا من مراكبهم ويؤدوا رسالتهم ، فأرسل اليهم رجال الدولة بعض المسجونين بخزانة شمائل [٣] بعد أن ألبسوهم ثيابا فاخرة ؛ ولكى يدخلوا هذه الحيلة على الفرنجة ، شيعوا خلفهم نساء وأطفالا يصيحون ويبكون كأنهم أهلوهم . فتسلم الفرنجة الرهائن ، ونزلت رسلهم من المراكب ، وقدموا إلى قلعة الجبل ، ثم بعث بهم إلى الجيزة حيث كان يقيم السلطان ؛ غير أنهم لم يحظوا بلقائه ، وجلس الأمير يلبغا لاستقبالهم يحيط به الأمراء والحجاب ؛ فلما دخل عليه الرسل ، هالهم مجلسه وظنوا أنه السلطان ، فقبلوا الأرض بين يديه ، ثم سلموا إليه كتاب ملكهم وقدموا هديته؛ فوزعها الأمير يلبغا على من حوله من الأمراء ، واختار لنفسه طستا وإبريقا من ذهب وصندوقا لم يعرف مافيه . .

وقد تضمنت رسالتهم أنهم فى طاعة السلطان وأنهم مساعدوه على ملك قبرس حتى يرد الأسرى الذين أخذوا من الإسكندرية ، كما سألوا تجديد الصلح وأن يمكن تجارهم من القدوم إلى هذه المدينة ، وأن يفتح كنيسة القيامة بالقدس — وكانت قد أغلقت بعد أن هاجم ملك قبرس الإسكندرية

على أن يلبغا سرعان مارفض هذه الطلبات التى تقدم بها رسل الفرنجة وقال لهم إنه لابد من غزو قبرس وتخريبها ، ثم بعث بهم إلى القاهرة حيث نزلوا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ١٩٥ .

(٢) كان البنادقة قد أنفذوا هؤلاء الرسل الى سلطان مصر .

Atiya. The crusade in ths Later Middle Ages p. 370.

(٣) كانت هذه الخزانة بجوار باب زويلة على يسار الداخل منه وسميت بذلك نسبة الى الأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . وكان يسجن بها مرتكبو الجرائم الكبيرة (المقريزى . خطط ج ٢ ص ١٨٨) .

بدار الضيافة . فلما عاد السلطان من الجيزة حظوا بمقابلته وأدوا له رسالتهم، فلم يجبهم إلى ماطلبوه ، وأعيدوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة[١] .

كذلك قدم إلى مصر ، رسل ملك جنوة ومعهم ستون أسيرا ، من أهل الإسكندرية ، وهدية للسلطان وأخرى للأمير يلبغا . وقد ذكر الرسل أن هؤلاء الأسرى كانوا من نصيب ملك جنوة ، وأن ملكهم لم يعلم بواقعة الإسكندرية إلا بعد وقوعها ، وأنه سيظل وفيا لعهد الصلح ، ومتى تمكن من ملك قبرس ، قبض عليه وقتله[٢] . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أعاد ملك جنوة الكرة ، فبعث برسله إلى السلطان لتسأله أن يمكن تجارهم من القدوم إلى الإسكندرية ، فأجاب طلبهم[٣] .

ولما كان سلطان مصر قد رأى ألا يتفاهم مع أى شعب مسيحى مادام فى حالة حرب مع قبرس، وأن الصلح يجب أولا أن يعقد مع ملك هذه الجزيرة؛ لذلك عول رسل البنادقة بعد تركهم الإسكندرية على الإبحار إلى قبرس ليقنعوا ملكها بطرس الأول بالدخول فى مفاوضات مع السلطان ؛ ومن ثم بدأ تبادل السفراء بين مصر وقبرس للوصول إلى حل ودى ولتناسى الأحقاد القديمة . فبعث بطرس الأول رسله مزودين بالهدايا . ولما مثلوا بين يدى السلطان طلب منهم كشرط أساسى لتحقيق غرضهم أن يعيدوا إليه الأسرى الذين أخذهم ملك قبرس من الإسكندرية . فلما وقف ذلك الملك على رغبة سلطان مصر ، سارع إلى تلبيتها ؛ فأمر بإحضار من بقى لديه من الأسرى ، ثم أرسلهم إلى مصر على زورق خاص أعده لهم[٤] .

وقد استمرت المفاوضات بين مصر وقبرس أكثر من أربع سنوات ؛ وكان يعترضها من حين لآخر غارات القبرسيين على سواحل سورية ومصر .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٥١ أ — ٥١ ب .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٥٢ ب .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٥٨ أ

(٤) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages pp. 371—372

ولما رفض السلطان ما عرض عليه من شروط لحسم النزاع بين مصر وقبرس واصل بطرس الأول ملك هذه الجزيرة إغاراته على ساحل بلاد الشام [١]؛ فجهز فى أوائل سنة ٧٦٨ هـ (نوفمبر سنة ١٣٦٦ م) أسطولا لهذا الغرض؛ لكن عاصفة شديدة قذفت ببعض سفنه، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى خمس عشرة سفينة، أطلق رجالها يد النهب فى المدينة، ثم عادوا إلى قبرس [٢].

وعلى الرغم من هذه الغارة التى قام بها ملك قبرس على طرابلس، فإن محاولة توطيد السلام بين مصر وقبرس مالبثت أن تجددت، فقدمت من أجل ذلك سفارة إلى القاهرة فى يونية سنة ١٣٦٧م برآسة Jacques de Norès؛ لكنها أخفقت فى مهمتها؛ ومن ثم أبحر إلى طرابلس فى سبتمبر من هذه السنة أسطول بلغ عدد قطعه مائة وخمسين بما فى ذلك الزوارق والنقالات. وكانت تضم هذه الحملة البحرية عناصر مختلفة من أهالى قبرس وجنوة والبندقية وكريت ورودس ومن الفرنسيين والهنغاريين [٣]، كما رافقها ملك قبرس، وصاحب جزيرة رودس، ورئيس الفرسان الإسبتارية [٤].

ولما رسا أسطول الفرنجة فى مياه طرابلس، كان نائبها إذ ذاك غائباً، فأخذت حاميتها تقاتلهم، لكنها عجزت أول الأمر عن صدهم، فاقتحموا المدينة وأطلقوا يدهم فى أسواقها [٥]. على أن حامية طرابلس ما لبثت أن جمعت شتاتها، واشتدت فى قتال الفرنجة حتى اضطرتهم إلى الجلاء بأسطولهم عن ساحل تلك المدينة [٦].

---

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Agas p. 372

(٢) النويرى : الالمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية جـ ٣ ورقة ٢٧
Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 372

(٣) Atiya, Op. Cit p. 373
النويرى : الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية جـ ٣ ورقة ٢٧، ٢٨، ٣٠

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٠ ب

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢١٢ — ٢١٣ (طبعة كاليفورنيا)

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٠ ب

وقد روى محمد بن قاسم النويرى المالكى الإسكندرى فى كتابه « الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية »[١]، أن صاحب قبرس أنفذ قبل خروجه منهزماً من طرابلس قارباً من مراكبه ، به رسالة معلقة فوق رمح – إلى الأمير جرجى[٢] – الذى كان إذ ذاك معسكرا مع الجيوش الإسلامية على ساحل تلك المدينة . وقد أتى بعض المسلمين بهذه الرسالة من القارب وسلموها الأمير جرجى ؛ وفيما يلى نصها :

« أما بعد ، فإن مراسيمنا الشريفة برزت بعدم إحراق طرابلس ، ولو اقتضت مراسيمنا الشريفة ذلك لفعلناه ، ولكن البلاد بلادنا والقدس قدسنا فإن مكنتمونا من بلادنا فنحن وإياكم على العهد والصلح ، وإن لم تمكنونا فبيننا وبينكم السيف ومع ذلك يعطى الله النصر لمن يشاء من عباده » .

وقد بعث الأمير جرجى إلى صاحب قبرس ردا على رسالته ، جاء فيه :

« أما قولكم برزت مراسيمنا الشريفة ، فهذا الكلام لا يصدر إلا عن سلطان ذى رأى ، وأما أنت فلص من لصوص النصارى ولست بسلطان ؛ فلو كنت سلطانا لأقمت بالإسكندرية وناضلت عنها حين ظفرت بها ، بل هربت بسرعة والهروب من شأن اللصوص ؛ وأما قولك البلاد بلادنا فالأمر غير ذلك لأن البلاد بلاد الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ؛ وأما قولك القدس قدسنا ، فحاشا لله أن يكون القدس لك لأنك رجس نجس ، والقدس طاهر مطهر ، وما ينبغى للرجس النجس الكافر المشرك أن يكون مجاورا للطاهر المطهر ، وأما قولك السيف بيننا وبينكم ، فتفقد عسكرك كم خرج منه من قتيل وجريح ورهين ، ولم يكن بطرابلس مقاتل لك غيرى ، وأنا أقل مماليك السلطان ، فانزل وقاتلنى بما معك ومعى » .

---

(١) جـ ٣ ورقة ٤٣

(٢) هو الأمير جرجى الإدريسى الذى كان يلى حلب فى عهد السلطان الأشرف شعبان ثم خلعه عن هذه الولاية سنة ٧٦٨ هـ لعجزه عن حسم النزاع بينها وبين التركمان ، وولى عوضا عنه الأمير منكلى بغا الشمسى ؛ وأسند السلطان نيابة طرابلس الى الأمير جرجى بعد عزل منجك اليوسفى عنها .
(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ١٩٩ طبعة كاليفورنيا) .

ولم تثبط تلك الهزيمة التى حلت بملك قبرس عند طرابلس عزيمته عن مواصلة الحرب ضد دولة المماليك . فلما اجتمعت له مراكبه ، أبحر بها إلى Tortosa حيث أطلق أتباعه من الفرنجة يدهم فى سلبها وأحرقوا قطع الأخشاب المعدة لبناء أسطول السلطان ، ثم عرجوا على اللاذقية ؛ لكن الرياح الشديدة وقوة تحصينات مرفأ المدينة حالا دون نزولهم بها[١] ، كما أنه بسبب الريح العاصف الذى هب فى ذلك الوقت ، غرقت ثلاث من سفنهم ، واستولى المسلمون على أربع مراكب دفعتها الرياح إلى طرابلس ؛ وكان بها كثير من المعدات الحربية والمؤن التى غنمها الفرنجة من طرابلس[٢] .

ولما حلت الهزيمة بصاحب قبرس باللاذقية ، عول على الاستيلاء على مدينة آياس — وكانت إذ ذاك تدين بالطاعة لسلطان المماليك — فأبحر إليها بأسطوله سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م) . ولما وصل إلى المسلمين من أهلها نبأ قدومه اجتمعوا بنصارى الأرمن المقيمين معهم بهذه المدينة ، وشاوروهم فيما يعملون لتلافى خطره ؛ فأشاروا عليهم بأن يتحالفوا معهم على محاربته ؛ وأن يبعثوا إلى المراكز القريبة منهم لترسل إليهم النجدات ، ثم طلب المسلمون من الأرمن أن يتقدموهم فى مقابلة صاحب قبرس وأتباعه ويحتالوا عليه بالمكايد والحيل حتى تصل إليهم النجدات[٤] فلما رسا أسطول صاحب قبرس بميناء آياس ، تقدم نائب ملك أرمينية بمن معه من النصارى الأرمن وركبوا القوارب حتى وصلوا إليه ، ثم قالوا له : « أيها الملك المظفر ، نسألك حقن دمائنا لنستريح من غضب السيد المسيح ، واسمع كلامنا ففيه لنا ولك النجاح والرشد والصلاح . فقال لهم : « وما تريدون وبأى شىء تقولون ؟ » قالوا :

---

(١) النويرى : الالمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية جـ ٣ ورقة ٥٦
Atiya. The Crusade in the Later Middle Ages p. 373

(٢) النويرى : الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية . . جـ ٣ ورقة ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٦٠ ب .

(٤) النويرى : الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية جـ ٣ ورقة ٥٩ ، ٦٠ .

« اهبط أيها الملك من المراكب فأنت وحق المسيح الظافر والغالب، وتسلم البلاد، واطرد عنا هؤلاء المسلمين الذين تركونا ببلدنا ذليلين بما نسمع لهم من التسبيح على منابر مساجدهم.. ». فقال الملك: « إنى أعذركم بما يفعله المسلمون بكم، لكن أريد أن أسمع كلام المسلمين الذين عندكم لئلا يكون كلامكم حيلة ومكيدة منكم. ». فقالوا: « وكيف نواجهك بالحيل؟ اعلم بيقين أن المسلمين منك الآن خائفون ». فقال: « احضروا لى أميرهم لأسمع كلامه وأعلم خطابه ونظامه ». فبعث الأرمن فى طلب أمير المسلمين. فركب قارباً وأتى اليه فى زى الفقراء، ثم قبل الأرض بين يدى الملك وأظهر المودة والمحبة، وقال: « إن والدك السلطان ريوك[1] — نيح الله روحه — كان فى أيام دولته يهادى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، وهو الآخر يهاديه لما كان بينهما من المودة والصحبة. وكان من هدية الملك الناصر مراكب القمح. فلما سمع ملك قبرس بمراكب القمح ابتسم، وقال: « ما مراكب القمح؟ قال الأمير: هى التى أرسلها (السلطان) لما وقع الغلاء بجزيرة قبرس، إعانة للملك ولأهل جزيرته[2]. فقال الملك: صدقت، أخبرنى بذلك والدى، أنها أتت له

---

(١) كان ملك قبرس فى ذلك الحين Henri II Lusignan (١٢٨٥ — ١٣٢٤ م).

(٢) كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أصدر أوامره عندما وقع الغلاء بالشام أن يرسل اليها بعض المراكب محملة بالقمح لتباع بها؛ غير أن ريحا هبت، دفعتها الى قبرس، فخشى ربانها ومن معه من البحارة أن يقعوا أسرى فى يد نصارى هذه الجزيرة وتصادر مراكبهم. فلما استدعى الربان لمقابلة الملك قال: « أتيت من مصر من عند الناصر الى مولانا الملك، وأنه يسلم عليك — وقد بلغه أن ببلدك الغلاء — فأرسل لك القمح ترتفق به الى أن يمن الله تعالى على عباده بالرخاء ». فسر ملك قبرس بتلك الهدية التى كان فى أشد الاحتياج اليها، وجهز للسلطان هدية عوضا عن القمح. ولما علم الناصر أن مراكب القمح عادت الى ساحل دمياط، وفيها هدية صاحب قبرس، دهش لذلك، وبعث فى طلب الربان. فلما مثل بين يديه حدث السلطان بما وقع له فأعجب السلطان بحيلته التى احتال بها حتى أنقذ نفسه وبحارته من الأسر، ونجى مراكبه من المصادرة (النويرى: الالمام فيما جرت به الأحكام المقضية، جـ ٣ ورقة ٦١).

موسوقة بالقمح من عنده قبل أن أخاق (١) ، ثم شاور ملك قبرس أمير المسلمين فيما يفعله بآياس . فقال الأمير : « إن هذا البلد كان فيما مضى لأبيك وجدك وصار نصفه الآن لصاحب مصر ، والنصف الآخر لملك أرمينية ، وأنت أولى به منهما لأنك وارث آبائك وأجدادك » . فطمع ملك قبرس فى آياس وأنزل جنده ومعداته بها ؛ غير أن قواته مالبثت أن أطلقت يدها فى نهبها ؛ فأقبلت جيوش المسلمين ومن تبعها من العربان والتركمان فى الليل واندفعت على صاحب قبرس وجنوده كالسيل ؛ فلم ينج من الفرنجة إلا من ولى هارباً إلى المراكب ؛ وبذلك فشلت حملة ملك قبرس فى الاستيلاء على آياس وعاد إلى جزيرته منهزماً مع الذين نجوا من جنده (٢) .

وقد ظلت العلاقات متوترة بين مصر وقبرس إلى أن ذهب بطرس الأول Pierre I ضحية المؤامرة التى دبرها نبلاؤه . لكن وفاته لم يكن لها أى أثر فى إحداث أى تغيير على سياسة القبرسيين إزاء السلطان . فى خلال السنة الأولى من حكم خلفه بطرس الثانى Pierre II (١٣٦٩ — ١٣٨٢ م) استمرت الغارات المخربة فى طريقها ، فأبحرت فى يونية سنة ١٣٦٩ م قافلة من أربع سفن إلى ساحل سورية وأوقعت التخريب بموانى صيدا وتورتوزا واللاذقية ؛ وبعد أن مونت هذه السفن من أرمينية فى الشهر التالى ، أبحرت إلى الإسكندرية . ولما رست فى مياه تلك المدينة ، بعث الفرنجة إلى حاكمها يسألونه فيما إذا كان السلطان يود الاتفاق أم لا . ولما أجيب عليهم بالنفى ، اتجهوا بسفنهم إلى رشيد ، حيث حاولوا النزول إلى البر ، لكن الرياح الشديدة حالت دون تحقيق رغبتهم ، فأبحروا منها إلى صيدا وبيروت حيث اشتبكوا فى معركة عند المدينة الأولى ، ثم عادوا إلى قبرس (٣) .

---

(١) النويرى : الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية ج ٣ ورقة ٦٠ — ٦١ .

(٢) النويرى : الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية ج ٣ ورقة ٦١ — ٦٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 374.

وقد رأى سلطان مصر بعد أن افتقرت دولته وقلت إيراداتها من جراء تعطيل تجارتها مع الصليبيين ، وما حل بها من الوباء والمجاعة أن يخفض من كبريائه . فقبل الدخول فى مفاوضات الصلح مع قبرس [١] ، كما رحب برسل الفرنجة وخلع عليهم حين قدموا إلى القاهرة سنة ٧٧٢ هـ (١٣٧٠ م) لطلب الصلح ، وأوفد معهم بعض سفرائه ليحلفوا ملكهم على الوفاء بشروط الصلح. وما لبث الفرنجة بعد ذلك أن بعثوا إلى السلطان بالأسرى الذين كانوا ببلادهم [٢]. وتم عقد الصلح بين مصر وقبرس (اكتوبر سنة ١٣٧٠ م) ، وأعيد فتح كنيسة القيامة للحجاج المسيحيين ، كما استعاد المسيحيون فى مصر والشام حريتهم [٣] .

(١) Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 375.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٧١ ا ، ٧١ ب .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 99.
Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. p. 376.

الفصل السادس

العلاقات السياسية بين مصر والدول الأوربية

(١) الدولة البيزنطية

بدأت دولة المماليك فى مصر تعنى بإنماء العلاقات بينها وبين الدولة البيزنطية فى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس الذى تحالف مع ميخائيل باليولوجس — امبراطور هذه الدوله — ليستعين به على الصليبيين ، وليفسح المجال للتجارة المصرية حتى يصير التجار آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هذا إلى وقوفه فى وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم بالشام [١] .

ولما ولى قلاوون سلطنة مصر ، حرص على إحكام أواصر المسالمة مع الملوك المعاصرين له ؛ فأرسل إلى منكوتمر سلطان مغول القفجاق يخبره بارتقائه العرش ، ويجدد معه علاقات المودة ، ويحرضه على قتال أعدائه ؛ كما بعث إلى امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثامن رسالة مع بطرك الأقباط حنا السابع والأمير ناصر الدين بن الحسنى الجزرى ، يعلمه فيها بتوليته السلطنة فى مصر ، ويمد إليه يد الصداقة والحلف ؛ فأرسل اليه الامبراطور كتاباً ، يطلب فيه مودته ، ويظهر استعداده لتسهيل سبل السفر على رسله التى تمر ببلاده ويسأله أن يبعث إليه يميناً يتمسك بها ؛ فأرسل إليه قلاوون نسخة يمينه ، كما سير اليه رسلا لتحليفه [٢] .

ولما ولى Andronicus II عرش الدولة البيزنطية ، سار على سياسة أبيه ميخائيل الثامن فى التماس ود سلطان مصر ؛ فأرسل إلى الملك المنصور قلاوون هدية تشتمل على حمل من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ؛ فحازت

---

(١) كتاب الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٣ ب — ١٢٤ أ

قبوله وغمر الرسل بعطاياه [١] .

كذلك أوفد الأمبراطور Andronicus II سفارة برفقة رسل ملك الـكرج David II. إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ م ومعهم هدية ورسالة تتضمن سؤال السلطان أن يعيد كنيسة المصلبة ببيت المقدس إلى أصحابها [٢] .

على أنه يظهر أن الناصر محمد لم يستجب إلى ماطلبه هؤلاء السفراء بدليل وصول رسل الأمبراطور البيزنطى وملك الـكرج بعد ذلك بخمس سنين ، ترجو السلطان مرة ثانية أن يعيد تلك الـكنيسة — وكان الشيخ خضر قد انتزعها فى عهد الظاهر بيبرس وحولها إلى مسجد — كما سأل الأمبراطور سلطان مصر أن يسير أهل الذمة بالديار المصرية طبقاً لما جرت به عادتهم وأن يأذن بفتح كنائسهم ،فسمح الناصر محمد بإعادة كنيسة المصلبة إلى المسيحيين بعد أن أفتى العلماء بعدم جواز اغتصابها ، كما وافق أيضا على ما طلبه منه الإمبراطور فيما يتعلق بمعاملة أهل الذمة ، وأمر بفتح كنيسة للملكية ، وأخرى لليعاقبة ، وكنيس لليهود بمصر [٣] .

ولم يمض عامان على وصول هذه السفارة حتى قدمت رسل إمبراطور الدولة البيزنطية بهدية للسلطان الناصر محملة على اثنين وأربعين جملا ؛ ومن بين محتوياتها أقمشة من الجوخ والأطلس ، وغير ذلك من طرائف تلك البلاد [٤] .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٨٥ ب .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٢٨ .

هذا ، وقد ذكر المقريزى (السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٧) أن الرسالة التى حملها سفراء الأمبراطور البيزنطى وملك الـكرج كان مضمونها أن يأذن السلطان بفتح كنيسة المصلبة ، وليس إعادتها إلى أصحابها ، وأن الـكرج سيكونون فى طاعته وعونا له متى احتاج إليهم .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٦ .

ابن أبى الفضائل : النهج السديد جـ ٣ ص ١٩٥ .

(٤) ابن أبى الفضائل : النهج السديد جـ ٣ ص ٢٢٩ .

وكان رسل الإمبراطور Andronicus II يفدون من حين لآخر إلى القاهرة مزودين بهداياه ومؤيدين حرصه على توثيق عرا الصداقة بين البلدين، كما ترددت بعثاته على مصر فى سنتى ١٣١٧، ١٣٢٦ م للتفاوض فى عقد تحالف مع الناصر محمد ضد التركمان الذين كانت قوتهم آخذة فى الازدياد فى آسيا الصغرى مما يهدد الإمبراطورية الرومانية الشرقية[١].

وقد بلغ من حرص الإمبراطور Andronicus II على مسالمة مصر أنه لم يرفض فقط معاونة الحرب الصليبية[٢] التى وضع خطتها Marino Sanudo بل كان أيضاً لا يوافق على قطع علاقاته الودية مع سلطان مصر[٣].

ولما تقلد Andronicus III عرش الدولة البيزنطية (١٣٢٨ — ١٣٤١ م) حذا حذو سلفه فى المحافظة على العلاقات الودية بين دولته ومصر؛ فلم يبد من جانبه ما يشعر بانحرافه عنها، كما أنه من ناحية أخرى شغل بالقضاء على الفتن الداخلية ومحاربة العثمانيين الذين كانوا إذ ذاك يعملون على توسيع دولتهم فى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين حتى تمكنوا سنة ١٣٣٨ م من الإستيلاء على Nicomedia، والأراضى البيزنطية الواقعة فى الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى[٤].

كذلك ظل الصفاء سائداً بين مصر والدولة البيزنطية فى عهد John V (١٣٤١ — ١٣٩١ م)، فقدم رسوله بصحبة بطرك الملكانية إلى القاهرة سنة ٧٧٠ هـ[٥] (١٣٦٩ م)؛ ومع أن المراجع لم تشر إلى سبب قدوم هذا

---

(١) Stanley Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 310.

(٢) كان ماريnو سانودو من بين الذين تقدموا بمشاريع للحرب الصليبية بعد سقوط عكا. وقد رأى أنه لضمان نجاحها لا بد من إضعاف مصر اقتصاديا؛ وإذا ما تم ذلك أصبح من السهل الإغارة على أراضى المماليك.

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages p. 120.

(٣) Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire p. 49.

(٤) Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire pp 66—69, 312

(٥) المقريزى: السلوك ج ٣ ص ١٦٦.

البحث ، فإنا نرى أنه يحتمل أن يكون الإمبراطور البيزنطى قد أنفذ هذه السفارة لتلتمس من سلطان مصر الأشرف شعبان أن يعيد للنصارى حريتهم - وكان الأمير يلبغا الناصرى قد أمر بتتبعهم والقبض على جميع من بديار مصر وبلاد الشام من الفرنجة انتقاماً لمـا ارتكبه الصليبيون فى غارتهم على الإسكندرية[1] سنة ١٣٦٥ م .

وقد عنى John V إمبراطور الدولة البيزنطية بتنمية العلاقات السياسية والتجارية مع مصر ، فقدمت رسله سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٦ م) مزودة بالهدايا ، وطلبت من السلطان أن يكون للبيزنطيين قنصل بالإسكندرية أسوة بالبنادقة فأجيب طلبهم[2] .

(ب) قشتالة وأرجونة

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين مصر وبعض الإمارات المسيحية بإسبانيا ، فأرسل ألفونس صاحب قشتالة Alfonso of castile سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) رسولين إلى السلطان الملك المنصور قلاوون ومعهما هدية من الخيل والبغـال ؛ فأحسن السلطان ضيافتهما وأجزل لهما فى العطايا[3] . ولم تقتصر العلاقة بين قلاوون وألفونس صاحب قشتالة على تبادل الرسل ، بل أبرمت بينهما معاهدة دفاعية سنة ١٢٨١ م[4] .

وكانت إمارة أرجونة أيضاً من بين إمارات إسبانيا المسيحية التى ارتبطت بعلاقات الود مع مصر ؛ فعقد ملكها وملك صقلية اللذان كانا أخوين معاهدة سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) تعهدا فيها بمساعدة السلطان قلاوون ضد أى حرب صليبية ، وضد اللاتين بسورية إذا نقضوا الهدنة التى أبرموها مع هذا السلطان[5] .

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٤٧ ب .
(٢) ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأبناء العمر ج ١ ورقة ٢٢٣ .
(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٢٩ ا .
(٤) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 38.
(٥) Stevenson, The Crusaders in the East p. 351.

وكان من أثر علو مكانة دولة المماليك فى عصر الناصر محمد بن قلاوون بين ممالك الشرق الإسلامى ، وسيادتها على الأماكن المقدسة فى فلسطين التى يحج إليها المسيحيون أن حرص Jaime II ملك أرجونة على توطيد العلاقات السياسية والاقتصادية بينه وبين سلطنة المماليك ابتغاء رعاية شئون المسيحيين فى الشرق ، وتنمية موارد بلاده بفتح أسواق تجارية لها فى مصر ؛ وقد تبودلت بينه وبين السلطان الناصر خطابات فى ذلك الصدد .

وكانت أولى السفارات بين مصر وأرجونة سنة ١٣٠٠ م حيث بعث Jaime II رسالة إلى الناصر محمد ، يسأله فيها أن يكون التجار المترددين بين دولتيهما آمنين على أنفسهم ، وأن يسهل لحجاج أرجونة زيارة بيت المقدس.

ولما وصل هذا الكتاب إلى الناصر محمد ، أنفذ إلى ملك أرجونة رداً فى ١٣ شوال سنة ٦٩٩ﻫ (٦ ابريل سنة ١٣٠٠م) أشار فيه إلى غارات التتار على أراضى المماليك فى آسيا وما أحرزه من نصر عليهم ، كما تضمن أيضا موافقته على تردد تجاره إلى بلاده وترحيبه بزيارة رعاياه لبيت المقدس ، وفيما يلى بعض ما ورد فى هذا الكتاب[1] الذى يعتبر بداية حسنة لتبادل العلاقات السياسية بين مصر وأرجونة :

« وعلمنا من مضمون كتابه ومشافهته ما قصده فى معنى التجار والمترددين من بلاده بالبضائع وما سأله من أن يكونوا يترددون من بلاده إلى بلادنا ، ومن بلادنا إلى بلاده آمنين مطمأنين وأجبناه إلى ما قصده فى ذلك . .

« . . . فى معنى من يختار الحضور من بلاده لزيارة بيت المقدس الشريف وما سأله من تمكينهم من ذلك ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين ، فقد علمنا بذلك ، وأجبناه إلى قصده من هذا الأمر . »

« وإنا قد أجبناه سؤاله إلى ما طلبه فى الصحبة والمودة ، فنحيط علمه بذلك ونواصل بكتبه وأخباره . . . »

---

(١) Atiya, Egypt and Aragon pp, 17—19.

وكان من أثر ما نزل بطوائف المسيحيين من عنت وإرهاق ، وما ترتب على ذلك من إغلاق كنائسهم أن أرسل Jaime II سفارته الثانية ، إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٣م مزودة بهدايا جليلة القدر له ولأمرائه ، ورسالة تتضمن إعادة فتح الكنائس المسيحية ، وإرجاع تجار برشلونة الذين قبض عليهم بالإسكندرية (١) ، كما طلب منه أيضا إطلاق سراح أسير مسيحى كان ممن أسر بجزيرة أرواد ، فأجاب السلطان ملتمسه وبعث إليه برد مع الأمير فخر الدين عثمان(٢) تضمن سياسته إزاء المسيحيين ، وإعادته فتح بعض كنائسهم ؛ وفيما يلى نص هذا الكتاب(٣) :

فأما ما ذكره بسبب الكنائس بالديار المصرية ، وأنه بلغه أنه أغلقت أبوابها ، ومنع النصارى من الصلاة فيها ، وما ذكره فى هذا الفصل وما يتعلق

---

(١) Atiya, Egypt and Aragon. p. 20.

(٢) ذكر المقريزى (السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٥٠—٩٥١) أنه حينما كان وفد ملك أرجونة عائدا إلى الاسكندرية ليبحر منها ، رأى السلطان أن يأخذ فدية الأسير الذى أطلقه ، وأرسل يسترجعه ، فاعيد إليه . ولما ركب الرسل وابتعدوا عن الاسكندرية أنزلوا الأمير فخر الدين عثمان فى قارب وأمروه بالعودة بعد أن أخذوا أمواله .

كذلك روى النويرى (نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠) رواية لا تختلف كثيرا عما أورده المقريزى عن سفارة الأمير فخر الدين ، فقال : « لما عزم الأمير فخر الدين ورسول ملك أرجونة على الإقلاع من الاسكندرية تفاوضا مفاوضة أدت إلى أن طرح هذا الرسول الأمير فخر الدين الى القارب الذى أبحر من الميناء لتوديعهم ولم يعطه شيئا مما كان معه ، واقلع من فوره ، وعاد فخر الدين إلى السلطان سنة ٧٠٤ هـ » .

على أن خطاب السفارة الأرجونية الثالثة يزيل كل شك حول وصول فخر الدين إلى برشلونة فى السفارة الثانية ؛ فقد افتتح باشارة إلى ظهور الأمير فخر الدين فى هذه المدينة (Atiya, Egypt and Aragon. p. 26.).

وبناء على ذلك فإن ما أورده كل من النويرى والمقريزى عن إقلاع سفير أرجونة من الإسكندرية سنة ٧٠٣ هـ دون أن يستصحب معه الأمير فخر الدين إلى برشلونة غير صحيح ومما يؤيد هذا القول ما ذكره ميور ، فقال فى كتابه (The MameluKe or Slave Dynasty of Egypt p. 60) ، إن الأسبان رفضوا طلب السلطان الخاص بفدية الأسير وأخذوا معهم الرسل الذين جاءوا من القاهرة .

(٣) Atiya, Egypt and Aragon pp. 21—22,

به ، وكذلك حديث الأسرى الذى قصد قبول شفاعته فى الإفراج عنهم وإطلاقهم ، فقد أحطنا علما بجميع ما ذكره فى هذه الأمور . . وسيرنا الآن رسولنا الأمير فخر الدين عثمان الناصرى ، فيشافه الإعتماد على ذلك . . . ولأجل منزلته ومودته الأكيدة عندنا ، أجبنا سؤاله فى أمر الكنائس ورسمنا بفتح كنيستين بمدينة القاهرة المحروسة ، مع أن أمر الكنائس الرجوع فيه إلى الشرع الشريف ؛ ومقتضى الشرع الشريف ألا يبقى منها شيء مفتوحا إلا ما هو من العهد العمرى ؛ وكلما تجدد بعد العهد العمرى يقتضى شرعنا وديننا ألا يفتح ؛ واتفق أنه تجددت بعدالعهدالعمرى كنائس كثيرة . والملك يعلم أنكم كما يجب عليكم الوقوف عند شرعكم وأحكام دينكم ، كذلك نحن أيضا يجب علينا أن نقف عند شرعنا وأحكام ديننا . . . وقد سيرنا له الهدية . . . »

ولما رأى Jaime II أن سفارته الثانية قد نجحت فى تحقيق أغراضه ، عول على إنفاذ سفارة ثالثة ، فزود سفير بعثته السابقة Dusay بكتاب للسلطان الناصر (سبتمبر سنه ١٣٠٥م) ، تضمن التماسه حماية المسيحيين المقيمين بأراضى دولته وتسليم بعض الأسرى المسيحيين ، والعناية بأمر الحجاج الذين يحملون رسالة ملكية ، والسماح لهم بحق حرية دخول القبر المقدس ، وأن يمنح رعاياه جوازا يبيح لهم التجول بأراضى السلطان دون أن يدفعوا رسوما(١) .

ولما وصل هذا الخطاب إلى الناصر ، أولى التماسات ملك أرجونة عنايته . وقد ظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى أنفذها إليه فى شعبان سنة ٧٠٥هـ (فبراير سنة ١٣٠٦ م) ؛ وتتلخص الموضوعات التى تضمنتها فيما يلى(٢) .

١ — التكفل بتأمين الحجاج المسيحيين .

٢ — تأمين تجار ورعايا أرجونة المقيمين بالإسكندرية .

٣ — إطلاق سراح الأسرى المسيحيين بالقاهرة .

Atiya, Egypt and Aragon p. 26. (١)

Atiya, Op. Cit pp. 27 - 28. (٢)

كذلك بعث الناصر محمد إلى ملك أرجونة برسالة صغيرة تتضمن قائمة بالعطايا التى منحها له ؛ وإليك ما جاء فيها(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« المعنى : من الخزانة العالية المولوية السلطانية الملكية الناصرية ، خلد الله ملك مالكها ، مسيراً إلى الملك الريدراغون صاحب برجلونة ، صحبة المجلس السامى الأمير فخر الدين عثمان الأفرى فى العشر الأول من شعبان سنة خمس وسبعمائة . . »

تعبية قماش عشرون قطعة ، تفصيل ذلك :

« تفاصيل كنجى بظهر نقش ومُصْمَت إثنان .

« عمل الدار مصمت ثلاث قطع : أحمر اثنان ، أصفر واحد .

« عمل الدار ملون ثلاث (قطع) .

« تفاصيل مقترحة حريرى مظهرة أربع (قطع) .

« مقطع بياض بظهر .

« تفاصيل بندق مظهرة ثلاث (قطع) .

« سُوسيَّة حريرى شَرُب مخدومه .

« سوسية حريرى محمر مصوره .

« فوطه حريرى مخوخة .

« قسى حلق لليد عشرة .

« قِسِىّ بندق بأوتارها خمسة .

« دهن بلسم ضمن فقاعة زجاج ، مائة وعشرين مثقالا .

« عود بخور ، زنة ، للفم .

« الحمد لله وصلاته على سيدنا محمد . . »

* * *

(١) Atiya, Egypt and Aragon, pp. 28–30.

على أن العلاقات السياسية ما لبثت أن توترت بين مصر وأرجونة بسبب الإهانة التي ألحقها Dusay سفير Jaime II ملك أرجونة بالأمير فخر الدين رسول السلطان الملك الناصر سنة ٧٠٥ هـ [١]، وما تبع ذلك من القبض على جميع رعايا أرجونة بالإسكندرية ومصادرة أموالهم. وقد قوبل هذا العمل فى برشلونة باستياء عظيم؛ غير أنه من المشكوك فيه أن يكون لتوقع Jaime II الشر من الناصر أى مبرر؛ فالسلطان نفسه لم يكن غير راغب فى مواصلة التفاهم مع أرجونة بل على العكس من ذلك، قد برهن على حسن نواياه بإجابته ملتمسات Jaime II فى أول فرصة عاد فيها الوئام بين الدولتين سيرته الأولى [٢].

وقد قطعت العلاقات السياسية بين مصر وأرجونة بعد ذلك الحادث الذى أساء فيه سفير أرجونة إلى الأمير فخر الدين عثمان، مدة ثمان سنوات ثم استأنف ملك أرجونة هذه العلاقات سنة ١٣١٤ م؛ فأرسل مع سفيريه Arnaldo de Bastida، Guillèn de casnal خطابا اعتذر فيه عن حادثة الأمير فخر الدين. كما سأله أن يمنح الحرية للمسيحيين فى أراضى دولته، ويعطى حجاج الأراضى المقدسة جوازاً للسفر بأمان، ويسلم الأسرى المسيحيين.

ولما وصل أعضاء هذه السفارة إلى القاهرة، أولاهم الناصر إحترامه وأنفذ إلى ملك أرجونة رداً؛ يفهم من مضمونه موافقة السلطان على منح الحرية لرعاياه المسيحيين، وأن يكون للحجاج اللاتين حرية دخول الأراضى

---

(١) أورد المقريزى (السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٩٥٠ — ٩٥١، هذا الحادث تحت سنة ٧٠٣ هـ، لكن ثبت — كما بينا — أن الأمير فخر الدين سافر إلى برشلونة بصحبة سفير ملك أرجونة فى هذه السنة؛ وعلى ذلك فمن المرجح أن توتر العلاقات بين الدولتين قد ظهر فى أواخر سنة ٧٠٥ هـ، بدليل رحيل Dusay السفير الأرجونى فى هذه السنة إلى صقلية ليحتمى بملكها فردريك الثانى، وتأخره عن العودة إلى برشلونة خوفا من غضب Jaim eII وعقابه.

Atiya, Egypt and Aragon, pp, 23, 33.

(٢) Atiya, Egypt and Aragon, p, 34.

المقدسة (١) ؛ وفيما يلى نص هذا الكتاب (٢) :

« محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون »

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل المكرم الخطير الباسل الضرغام الزائر ؛ جام (٣) العالم فى ملته ، العادل فى مملكته ، عز الأمة المسيحية ، نصرة دين النصرانية ، فخر الملة العيسوية ، عمدة بنى المعمودية ، صاحب أرغونة وبلنسية وجزيرة سردينية وكرسقه ، وقومص برجلونة ، ومقدم البحر ، وأمير علم كنيسة رومية — ولا زالت مودته ثابتة فى القلوب ، ومحبته مقربة من اعتنائنا كل مطلوب ، ومصافاته مستدنية له من جميل ودادنا كل مفترح ومن جليل وفائنا كل مرغوب — صدرت هذه المكاتبة مبتهجة بوده ، معلمة بقربه من الخواطر على بعده ، شاهدة بما هو مستقر فى الضمائر من الوثوق بمحافظته وعهده ، مهدية اليه من السلام ما يعذب فى الاستماع الإرتواء من ورده ، وموضحة لعلمه ورود كتابه على يد رسله الفارس المحتشم كليام مرتنت ندال ، وأرناط سابستيده ؛ وقابلنا كتابه بالتكريم الدال على الوداد ، والقبول الشاهد باجتماع القلوب على البعاد ، والابتهاج المخبر بماله فى الضمائر التى هى كل يوم فى ازدياد ؛ وأحضرنا رسله بين أيدينا ، وعاملناهم من الإكرام بما تحققوا به رفعة مكانته لدينا ، وقابلناهم من الإحسان والقبول بما علموا به ابتهاجنا بكل ما يرد من جهته إلينا ؛ وضاعفنا إكرامهم واحترامهم ، ووجدوا من إحساننا كل ما حقق سؤلهم ومرامهم ؛ وأنهوا إلينا ما حملهم الملك من المشافهة التى وجدت منا حسن القبول والإقبال ، وأحطنا علماً بمضمونها — فأما ماذكره من محبته لنا وتقربه إلى خواطرنا ، وإيثاره العمل بما تقتضيه آراؤنا الشريفة ، فقد علمنا جميع ما ذكره من ذلك وأقبلنا على إخلاص محبته

---

(١) Atiya, Egypt and Arsgon, pp. 35—36.

(٢) Atiya, op.Cit pp, 36—38.

(٣) جام : هو Jaime II ملك أرجونة .

وشكرنا هذا القصد الجميل والنية الصالحة ، وتحققنا بذلك حسن مودته وعمله على التقرب من خواطرنا وإن كان بعيداً عنا ، وصار له بذلك المكانة الجيدة والمحل الذى يسره ، فيستمر على ما وصفه من موالاته وإخلاصه فى المحبة لأيامنا الشريفة ، ويواصل بكتبه وأخباره ، وما لعله يعرض له من المقاصد والمطالب — وأما ما ذكره فى مشافهته التى تحملها رسله عنه من أمر الأسرى الذى قصد إطلاقهم بمقتضى الورقة التى أحضروها صحبتهم فقد علمنا ذلك ؛ والذى نعلمه به أن هؤلاء الذين حصل طلبهم من المفسدين وممن كانوا يوافقون على الأذية فى البلاد ، وإنما لأجل خاطر كلام حضرة الملك وإرساله بسببهم وسؤاله فى معناهم ، أطلقنا الموجود منهم فى هذا الوقت ، وهم الأكابر المعتبرين منهم الأعيان وهم إفرير كليام وإفرير دلماط ورفقتهم ستة نفر ، مع علم الملك محيط بأن هؤلاء مافيهم من أخذ من بلاد الملك ولا من حصل التعرض إليه فى جهته ، وإنما حضروا إلى نجدة أعداء البلاد الإسلامية المحروسة فاستأسرتهم الجيوش والعساكر المنصورة مع من أسروا ؛ ومع ذلك لأجل الملك ومكانته من خواطرنا وما نؤثره من إجابة قصده ، أطلقنا له هؤلاء الجماعة الذين سيرناهم إليه — وأما ماجهزه مع رسله من الهدية المباركة المسيرة بذلك ، فقد وصل ذلك صحبة رسله ، وعرض بين أيدينا ، وقابلناه بالقبول وحسن موقعه من إقبالنا — وقد سيرنا لحضرة الملك من أبوابنا الشريفة على سبيل البركة ماتضمنته المسيرة (...)[1] مثالنا هذا من الخزائن العالية لما للملك — أبقاه الله — فى خواطرنا من علو المكانة والمنزلة فيحيط علمه بذلك — والله تعالى يسلك به أجمل المسالك إن شاء الله تعالى ، كتب يوم عيد النحر المبارك سنة أربع عشرة وسبعمائة حسب المرسوم الشريف —

« الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه ، حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(١) كلمة غير واضحة فى الأصل .

ولم يمض أربع سنوات على هذه السفارة حتى عول JaimeII سنة ١٣١٨م على إرسال سفارة أخرى إلى السلطان الناصر ، وندب لها – أحد نبلاء برشـــلونة – F. de villafrancha كسفير أصلى ، وصحبه فى السفر Arnaldo Sa Bastida الذى اشترك فى السفارة الرابعة ، وكان مما تضمنته الرسالة التى حملها هذان السفيران ، اعتراف ملك أرجونة بما أسداه إليه السلطان فى خطابه الودى الذى أجاب فيه ملتمسه الخاص بإطلاق سراح ستة نفر من المسيحيين ، ورجاؤه تسليم ماتبقى لديه من الأسرى . لكن الناصر لم يجب على هذه الرسالة بخلاف ماجرت به عادته [١] .

وقد حرص Jaime II ملك أرجونة على أن يراسل الناصر كلما سنحت له الفرصة ؛ فأنفذ إليه خطابا فى سبتمبر سنة ١٣٢٢م مع السفيرين Berenger و Geraldus ؛ وكان من أهم ماورد فيه :

١ – أن يعهد السلطان إلى الإخوان الدومينيكان الأرجونيين بحراسة القبر المقدس وإدارة شئونه ، ويترك لهم تحديد إقامة البطريرك .

٢ – أن يسلم السلطان لسفراء ملك أرجونة الآثار المقدسة التى فى حوزته وهى تحوى الأجزاء الحقيقية من صايب السيد المسيح [٢] .

ويتبين لنا من تلك الرسائل التى بعث بها Jaime II إلى سلطان مصر أن ذلك الملك لعب بنجاح دور الحامى الأعظم للمسيحيين الشرقيين الخاضعين لحكم المماليك ، وأنه تحت تأثير إغراء نفوذه طالب بتحويل إحدى الحقوق المخولة لهم إلى من هم على دينه من اللاتين ، ونقل ملكية إحدى آثارهم المقدسة إلى درلته [٣] .

وقد بعث الناصر إلى Jaime II بكتاب ، تتبين منه أنه وافق على قيام الإخوان الدومينيكان بخدمة القبر المقدس ، على حين أغفل مسألة نقل

(١) Atiya, Egypt and Aragon pp. 42—43

(٢) Atiya, Op.Cit, p. 44.

(٣) Atiya, Egypt and Aragon, p. 46,

جثمان القديسة بربارة St Barbara إلى الكنيسة التى أنشئت بمملكة أرجونة .
وقد جاء فى كتابه ما يلى(١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« أطال الله بقاء حضرة الملك الجليل المكرم المبجل الموقر المفخم الباسل الخطير ، العالم فى ملته، العادل فى أهل مملكته ، ملك أرغون وبلنسية وسردانية وكرسقة ، وقومص برجلونة ، وأمير علم كنيسة رومية ، عز الأمة المسيحية ، فخر الملة العيسوية ، أكبر ملوك المعمودية ، ذخر دين النصرانية ، — ولا زالت مودته تؤدى لنا النصائح ، ومحبته تؤكد له أسباب المصالح ، وهمته يثنى عليها كل غاد ورائح — صدرت هذه المكاتبه إلى حضرة الملك الجليل توضح لعلمه ورود مكاتبته ، فوقفنا عليها ، وعلمنا مضمونها . — فأما ماوصفه من محبته وصداقته السالفة من قديم الزمان فقد علمناها ، ونحن نتحقق ذلك منه ولا نشك فى مودته الخالصة من الشوائب ، ومحبته التى سلكت منها أجمل المذاهب ، ولأجل هذا لا نزال نوقّر جهته ، ونكرم كل من ينسب إلى بلاده ، ونبتهج بورود من يرد من تلقائه . — وأما تجهيز رسله فقد وصلوا إلينا وعاملناهم بالكرامة والرعاية ، وأوردوا علينا ما تحملوه من المشافهات والمقاصد ، وأحضروا ما صحبتهم من التقدمة ، وأجملنا ملقاهم ، وأجبنا إلى ما ساغ من مقاصدهم ، وأحسنا مرجعهم ، وأعدنا عليهم ما يعرفون به ، وأطلقنا من أمكن إطلاقه لهم من الأسرى وأعدناهم إليه ، وحملناهم من السلام عليه ما يبدونه له — وأما ماذكره فى مكاتبة ثانية بسبب الرهبان الذين أرسلهم ، فقد أجبناهم إلى ملتمسهم — وأما بقية النصارى فهم عندنا موقرين الجانب على مايسره لأنهم رعايانا ، وبحمد الله ما يكون أحد من رعايانا إلا موقراً من جميع المكاره ، آمنا من كل مايسوءه أو يشوش عليه ، فيكون مستقر الخاطر بهذا السبب — ونحن نعرفه أنه بلغنا أن جماعة

---

(١) Atiya, Egypt and Aragon, pp. 47-49.

من المسلمين الذين فى بلاده ، الذين استقروا بها بعد ما استقرت عليهم أحوالهم لهم عوائد متقدمة بالكرامة والرعاية وعدم المعارضة فى المساجد المستقرين بها ، وأنهم الآن ربما تغيرت عوائدهم فى ذلك وصاروا لا يتمكنون من التأذين فى مساجدهم وإقامة الصلاة بها ؛ والمراد من محبته الصادقة أن يتقدم بالوصية التامة بجميع من فى بلاده من المسلمين وإجرائهم على أجمل عوائدهم وأكمل قواعدهم ، ولا يغير عليهم مغير فى مساجدهم ، والإعلان بصلاتهم ، وكف الضرر عنهم ، ورعاية جانبهم ؛ فهو يعلم أننا قد ألقى الله تعالى إلينا مقاليد سائر أهل الإسلام حيث كانوا وأين كانوا ، فأى مكان وجد به أحد المسلمين كانوا متعلقين بنا ، ويتعين علينا رعايتهم ، فيفعل فى أمرهم ماتتخذ له به أكمل المودة ، وأجمل الصحبة ، وهمته تغنى عن التوكيد فى ذلك ، والله تعالى يشكر وداده ويوفق اعتماده — إن شاء الله تعالى . « كتب فى خامس عشر صفر المبارك سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، حسب المرسوم الشريف — الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبى الرحمة وآله وصحبه وسلم . »

« حسبنا الله ونعم الوكيل »

وإذا ما دققنا النظر فى هذا الكتاب الذى بعث به الناصر إلى ملك أرجونة نجد أنه يلقى ضوءاً عن المكانة التى يشغلها سلاطين المماليك فى العالم الاسلامى خلال أواخر العصور الوسطى ؛ فقد لقب الناصر نفسه بالحامى الأكبر لجميع الشعوب الإسلامية ؛ وبهذا المنصب يستطيع أن يتوسط لمصلحة المسلمين الذين تحت حكم المسيحيين فى إسبانيا ، كما أن التوفيق بين المسلمين والعمل على رفاهيتهم أصبح أمانة ملقاة على عاتقه (١) .

وكان Jaime II يحرص على نيل شرف رعاية المصالح المسيحية بالشرق عامة ومصالح أتباعه خاصة ؛ ومن ثم ندب خادمه المخلص Pero de mijaville (أغسطس سنة ١٣٢٧ م) للسفر إلى مصر ، وزوده برسالة إلى السلطان

(١) Atiya, Egypt and Aragon, p. 52.

الناصر ، رجاه فيها أن يعمل على إحلال الفرنسسكان الأرجونيين محل الدومينيكان فى القيام بخدمة القبر المقدس . لكنه لم يشر صراحة فى هذه الرسالة إلى القصر البطريركى الذى حاول سابقا أن يملكه للدومينيكان [١] .

ولم يأت سفير ملك أرجونة بمفرده إلى مصر بل قدم معه Guillaume de Bonnesmains ، الذى كان شارل الرابع ملك فرنسا قد ندبه بعد موافقة البابا حنا الثانى والعشرين (١٣١٦ — ١٣٣٤م) ليتوسط لدى السلطان للعمل على رعاية المسيحيين بالشرق .

وقد بدأ الخلاف يدب بين هذين السفيرين وهما على مقربة من الإسكندرية ، ثم تجدد مرة أخرى فى القاهرة حين تبين لسفير أرجونة أن الناصر أكرم وفادة زميله سفير فرنسا ، وأشيع أنه يرغب فى تسليم بيت المقدس لملك فرنسا ، فأثار ذلك مكامن الحقد فى نفس Pero de Mijaville سفير ملك أرجونة ودبر مؤامرة ضد رفيقه الفرنسى ، فأكد أن سفارته ماهى إلا خدعة دبرت لستر ما وراءها من الأغراض الخفية ، وأن ملك فرنسا يقوم بتدبير خطة عدائية ضد مصر . وفى الحقيقة إنه كان يعمل بنشاط فى تجهيز أسطول يتكون من ثلثمائة سفينة لمهاجمة ساحل مصر — على غرة [٢] .

وليس من شك فى أن الناصر قد تأثر بما سمعه عن موقف ملك فرنسا العدائى إزاءه ، فرفض أن يمنحه مملكة بيت المقدس ، وأساء معاملة سفيره ، بينما نال Mijaville سفير ملك أرجونة كل ما سعى اليه ، وأكرم المماليك وفادته .

وقد بعث الناصر برسالة إلى Jaime II سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٨ م) لم يشر فيها صراحة إلى ما طلبه هذا الملك فى خطابه الذى أنفذه مع سفيره Mijaville لكنا نتبين منها دهاء هذا السلطان فى محاولته استغلال تدين ملك أرجونة لينال منه صفقة رابحة فى مقابل نقله جثمان القديسة بربارة إلى الكنيسة التى

(١) Atiya, Egypt and Aragon, p. 53.

(٢) Atiya, Op. Cit, pp. 55–56.

بنيت بأرجونة (١) ، وفيما يلي نص ماورد فى هذه الرسالة (٢) :

« من السلطان الملك الناصر السيد العالم العادل . . . المظفر المنصور ، وناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين . محي العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان ، . . . ، صاحب القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين ، أبى الفتح محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، خلد الله سلطانه .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« أطال الله بقاء حضرة الملك الجليل المكرم المفخم الموقر ، الباسل الضرغام الخطير ، العالم فى ملته ، العادل فى أهل مملكته ، دون الفونس الريدراغون ، صاحب ملك أرغون وبلنسية وبرجلونة ، فخر الملة الصليبية ، عماد الأمة المسيحية ، كبير دين النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين — وأدام بمحبته ، ووالى باتباع المراضى الشريفة ، مسرته ، وجمل تمسكه بأسباب المخالصة وقايته وجنته — صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته تشكر مودته ، وتصف صداقته ، وتعلمه أن مكاتباته وردت ، فوقفنا عليها ، وعلمنا مضمونها — فأما ما ذكره بسبب الكنيسة التى عمرت فى بلاده ، وقصد نقل ماقصده من جسد بربارة إليها ، فقد علمنا الصورة وصارت عند خواطرنا الشريفة ؛ وإذا تقدم بارسال مراكب جيدة فيها بضائع كثيرة ، فنرسم عند ذلك بقضاء شغله وإجابته إلى ملتمسه ، فيعلم ذلك . . .

« كتب فى خامس عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة »

على أن اهتمام السلطان الناصر بالتخلى عن بقايا جثمان القديسة بربارة St Barbara أمر مشكوك فيه ، لأن الكنيسة التى تضم جثمان هذه القديسة قد

---

(١) Atiya, Egypt and Aragon. pp. 46—47.

(٢) Atiya, Op. Cit, pp. 57—59.

سويت بالأرض فى الهياج الذى قام به العامة فى القاهرة سنة ٧١٨ هـ [١] (١٣١٨ م) ، وأهمل موضعها — كما قال المقريزى [٢] — « حتى صار كوم تراب » .

وقد ظل السلطان الناصر يحرص على إحكام أواصر الصداقة مع أرجونة حتى بعد وفاة ملكها Jaime II ؛ فبعث إلى Alfonse II (١٣٢٧ — ١٣٣٦م) الذى سار على سياسة سلفه فى المحافظة على علاقات الصداقة مع مصر ، رسالة فى ٢٠ فبراير سنة ١٣٣٠ م ؛ يتبين لنا منها أن هذا الملك أوفد سفيره Francesco Marco إلى السلطان مزودا بكتاب وهدية ، كما تعطينا برهانا كافيا على استمرار الوفاق بين مصر وأرجونة الذى امتاز به عهد Jaime II ، وحرص السلطان على التمسك به بعد تولية Alfonse VI العرش [٣] ؛ وفيما يلى نص كتاب الناصر الذى أنفذه إلى ألفنس الرابع ملك أرجونة [٤] :

« . . . .) ولا زالت وسائله مقبولة ، ورسائله غر النسيم مقبولة ، ومسائله بأحسن جواب موصولة — صدرت هذه المكاتبة تحمل إلى حضرته من الود ما يتضوع ، ومن الشكر ما يتنوع ، ومن الثناء ما يظن أن الشمس من أزراره تتطلع ؛ وتعلمه أن مكاتبتـه وردت على يد رسوله المحتشم الجليل افرنسيس مركس ومن معه ، فحلت من أبوابنا العالية بالرحب والسعة ، وتجلت من الإكرام بقول يطرب سمعه ؛ وعرضت من أيديهم فى أبوابنا الشريفة عرضاً جميلا ، وصادفت من عواطفنا إقبالا وقبولا ؛ وأحطناعلماً بمـا تضمنته من ود صريح ، وعهد صحيح ؛ومحبته لم تزل ملحوظة من صدق وداده ، محفوظة فى كل قلب لايشك من المخالصة فى جميل اعتقاده

---

(١) Atiya, Egypt and Aragon, p. 47.

(٢) السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٨٣

(٣) Atiya, Egypt and Aragon, pp. 61—64

(٤) Atiya, Op. Cit, p. 62.

ووصل ما أتحف بإهدائه السناقر [١] التى هى من أنخر جنسها ، وأكرم ما توصف بنفاسة نفسها ، ورسمنا بتسليمها ممن حضر بها ، وتضاعف الشكر والثناء على ما اختار من نخبها — وقد أعدنا رسله اليه مشمولين بالقبول ، موصولين بالكرامة لأنه من إلزام المرسل كرامة الرسول ؛ فواصل الملك الجليل أطال الله بقاءه بكتبه التى هى أحسن مايحمل من بلاده ، وتقربه من خواطرنا الشريفة مع ماهو عليه من بعاده ؛ والله تعالى يهديه لرشاده ، ويوفقه من حسن اعتماده .

« إن شاء الله تعالى ، كتب فى مستهل جمادى الأولى سنة ثلاثين وسبعمائة حسب المرسوم الشريف .

« الحمد لله وحده . . . »

(ح) فرنسا

لم يكن Alfonse IV و Jaime II هما اللذان حرصا وحدهما على التودد للناصر فى سبيل خدمة المصالح الصليبية ، بل سار أيضاً على هذه السياسة البابا حنا الثانى والعشرون (١٣١٦ — ١٣٣٤ م) فقدمت رسله إلى القاهرة سنة ١٣٢٧ م برفقة سفراء من قبل ملك فرنسا شارل الرابع Charles IV (١٣٢٢ — ١٣٢٨ م) ومعهم هدية ورسالة للسلطان . ولما مثلوا بين يديه تحدثوا معه فيما تحويه هذه الرسالة ، وكانت تتضمن الرغبة فى أن يعامل السلطان رعاياه المسيحيين برفق وأنه إذا سار على هذه السياسة ، سيلقى المسلمون فى بلاد الفرنجة كل أسباب الراحة والطمأنينة [٢] ؛ فوعدهم بأنه سيعمل على

---

(١) السناقر جمع سنقور (كلمة فارسية) تقابل فى العربية صقر (جمعها صقور) . حاشية رقم ١ (Atiya, Egypt and Aragon p. 62)

(٢) يفهم مما ذكره Dr. Atiya فى كتابه (Egypt and Aragon p. 56) أن السفير الفرنسى الذى قدم القاهرة سنة ١٣٢٧ م طلب من الناصر أن يمنح ملك فرنسا بيت المقدس وأن السلطان لما وقف على نوايا هذا الملك العدائية نحوه رفض أن يجيبه إلى طلبه وأساء معاملة سفيره .

إجابة طلبهم [١] .

كذلك رأى فيليب السادس ملك فرنسا (١٣٢٨ — ١٣٥٠ م) أن يلجأ إلى سياسة المسالمة مع سلطان مصر لعله يستطيع بذلك أن يستعيد نفوذ الصليبيين ببيت المقدس ، فأرسل سفارة إلى الناصر تتألف من مائة وعشرين رجلا ، أبحروا إلى عكا ، ثم قدموا إلى القاهرة سنة ١٣٣٠ م حيث مثلوا بين يدى السلطان . وكان معهم كتاب التمس فيه ملكهم إعادة بيت المقدس وبلاد ساحل الشام الى الصليبيين [٢] ؛ فرفض الناصر هذا الالتماس بغضب شديد وأظهر استياءه من ملك فرنسا ، كما أهان سفراءه وأمر بإعادتهم إلى بلادهم [٣] .

وما لبث ذلك الملك أن انصرف عن الإهتمام بالمصالح الصليبية فى الشرق حين شغل بحروب المائة سنة التى قامت بين فرنسا وانجلترا ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ورقة ٨٠ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ القسم الأول ص ٢٨٦ — ٢٨٧

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 73

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ورقة ١٠٤

Stanley Lane—Poole, a History of Egypt in the Middle Ages p. 310

الكتاب الثالث

حالة مصر الاقتصادية
فى عهد أسرة قلاوون

الفصل الأول — الثروة الزراعية فى مصر .

الفصل الثانى — مظاهر تقدم الصناعة فى مصر .

الفصل الثالث — تجارة مصر الداخلية .

الفصل الرابع — العلاقات التجارية بين مصر والدول الشرقية والأوربية .

الفصل الأول

الثروة الزراعية فى مصر

كانت حكومة المماليك فى مصر ترى أن تعزيز كيان دولتها ، ونجاح سياستها الخارجية لايتم تحقيقهما إلا بالعمل على تنمية موارد الثروة ؛ فبذلت قصارى جهدها فى هذا السبيل حتى عم الرخاء البلاد وتوفر وجود المال لدى خزانة دولة بنى قلاوون .

وكان للزراعة المحل الأول من رعاية سلاطين مصر على اعتبار أنها عماد الثروة المصرية ؛ فوجهوا اهتمامهم إلى إنمائها وإكثار محصولها حتى يتيسر لهم بذلك سد حاجة الشعب .

وقد كثرت زراعة القمح فى مصر وخاصة فى بلاد الصعيد . ولم تكن غلة الفدان متعادلة فى جميع البلاد المصرية ، بل كانت تتراوح من أردبين إلى عشرين . وكثيراً ما يفيض محصول القمح عن حاجة البلاد ويعمد السلاطين إلى إمداد بلاد الشام والحجاز بمقادير وفيرة منه ؛ وأحسن مثل لذلك ما قام به السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين اشتد الضيق بهذه البلاد وأصبح محصول القمح بها لا يكفى لتموينها .

وكان بمصر أهراء تخزن بها الغلال ولا يسمح بفتحها واستهلاك ما بها إلا عند الحاجة القصوى[1] . وقد بلغ من شدة الحرص على عدم المساس بمحصول القمح المودع بها أنه لما وصل سعر الأردب منه سنة ٦٨٢ هـ إلى خمسة وثلاثين درهما ، استاء السلطان قلاوون من ذلك وأمر العسكر بالتوجه إلى الشام ليقل استهلاك القمح وينخفض السعر ؛ غير أن هذه الوسيلة لم تؤد

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٢

إلى انخفاض سعر القمح ؛ ومن ثم رغب السلطان فى فتح أهراء مصر وبيع الأردب منها بخمسة وعشرين درهما ؛ لكن الأمير بدر الدين بيلبك الأيدمرى عارضه فى ذلك وقال : «قلوب الناس متعلقة بما فى الأهراء ، فإنها خزانة المسلمين ، كلما نظروا إليها ملآنة شبعت نفوسهم ، وما يؤمن ارتفاع السعر أيضاً والرأى أن الأمراء بأسرهم يكتبون بفتح شونهم وبيع القمح بخمسة وعشرين درهما الأردب ، فإذا وقع البيع فيها دفعة واحدة — مع بقاء الأهراء ملآنة — رجى انحطاط السعر ، والأمراء لا يضرهم إذا نقصت شونهم نصف ما فيها » . فأعجب السلطان بهذه الفكرة وفتح الأمراء شونهم ، فبيع أردب القمح منها بخمسة وعشرين درهما ، ثم انخفض السعر إلى عشرين ، فثمانية عشر ، وظل الحال على ذلك حتى ظهر محصول القمح الجديد[١] .

وكان من بين أنواع الحبوب التى تزرع بمصر فى ذلك العهد ، الشعير والذرة والأرز والفول والحمص والعدس واللوبيـــا والسمسم والقرطم والخشخاش والخروع والبرسيم[٢] .

كذلك كان الكتان من أهم مزروعات مصر فى عصر المماليك . وقد حرصت الأقطار المجاورة على استيراد مقادير وفيرة منه لسد حاجة سكانها من المنسوجات الكتانية .

وكان قصب السكر من بين الزراعات التى عنى بها المصريون منذ الفتح الإسلامى . وقد زادت مساحة الأراضى المزروعة قصباً فى عهد دولة بنى قلاوون ، فبلغت زراعة أولاد فضل بملوى فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ألفا وخمسمائة فدان كل سنة من القصب ، كما اشتهرت قفط أيضاً بزراعته ، وأصبح بها سنة ٧٠٠ هـ ست معاصر لصناعة السكر ؛ وفضلا عن ذلك فإن

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧١٧ — ٧١٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧

سمهود[١] ضربت بسهم وافر فى زراعة القصب[٢].

وكان يزرع بأرض مصر الفواكه كالرمان والتفاح والموز والأجاص والخوخ والتين والعنب والتوت والنبق والبرقوق والقراصيا والسفرجل والكمثرى والليمون التفاحى الذى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه والبطيخ وهو ثلاثة أصناف : هندى ويسمى البطيخ الأخضر ، وصينى ويسمى الأصفر (الشمام) ، وخراسانى ويعرف بالعبدلى نسبة إلى عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون الذى أدخل زراعته بمصر .

كذلك كثرت بمصر زراعة الخضروات كالباذنجان والقلقاس والقنبيط واللفت والجزر، وأنواع البقول المختلفة كالثوم والبصل والكرات والفجل[٣].

وكان الزيتون يزرع أيضاً بمصر وخاصة بإقليم الفيوم ، ولا يستخرج منه زيت البتة ، بل يؤكل مملحاً[٤] .

وكان ينبت بمصر الرياحين والأزهار على اختلاف أنواعها ، كالورد وهو على عدة أصناف : الأحمر والأبيض والأزرق والأصفر — الذى كثيراً ما كان يغرس بحدائق الإسكندرية — والنرجس والبنفسج وهو نوعان : جبلى وبستانى ؛ فالجبلى دقيق الورق أزرق اللون ، والبستانى عريض الورق حائك اللون ؛ وهناك نوع ثالث أبيض لا يوجد إلا بمصر ويسمى الكوفى .

ومن بين الأزهار التى انتشرت زراعتها بمصر فى ذلك العهد : اللينوفر ويكثر فى الأماكن المنخفضة التى يقف فيها الماء . وكانت الحدائق لا تخلو من الياسمين والأقحوان الذى قال فيه الجمال على بن ظافر المصرى[٥] :

انظر فقد أبدا الأقاح مباسماً ضحكت تهلل فى قدود زبرجد

---

(١) بلدة قريبة من فرشوط مركز نجع حمادى بمديرية قنا (على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٥١ — ٥٢)

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٤ ، ٢٣٢ ، ٢٠٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٧ ، ٢٥٢

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٨

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٦ — ٢٥٠

وقد كثرت زراعة أشجار السنط فى البهنساوية والأشمونين والأسيوطية والإخميمية والقوصية وكان لها حراس ، يحولون دون المساس بها حتى يقطع منها الخشب اللازم لصناعة الأسطول المصرى . أما أطراف تلك الأشجار التى ينتفع بها فى الوقود ، فيباع الحمل منها بأربعة دنانير للتجار . وقد جرت العادة ألا يباع مما فى البهنسا من أخشاب شجر السنط إلا ما يفضل عن حاجة السلطان (١) .

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين ، نخص بالذكر منها بستان السراج فى أرض باب اللوق ، وبستان الجمال محمد بن جن حلوان التاجر فى ثمار البساتين ، وبستان الفرغانى الذى انتقلت ملكيته إلى الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وبستان ابن ثعلب (٢) بظاهر اللوق ومساحته خمسة وسبعون فداناً ؛ وكان يغرس به النخيل والكروم والنرجس والورد والياسمين والخوخ والكمثرى والنارنج والليمون التفاحى والجميز والقراصيا والرمان والزيتون والتوت الشامى والمصرى والتمرحنا واللبان . وقد بقى من هذا البستان قطعة أرض عرفت فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ببستان الأمير أرغون (٣) .

وكان يغرس بأرض بركة الحبش بظاهر الفسطاط النخيل وأشجار الفواكه والأزهار والرياحين على اختلاف أنواعها ، كما كثرت بها المتنزهات . وقد قال فى ذلك أحد الشعراء (٤) .

أما ترى البركة الغناء لابسة وشيا من النور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد الروض فى حلل قد أبرز القطر منها كل محتجب

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٠ — ١١١

(٢) هو الشريف الأمير فخر الدين اسماعيل بن ثعلب الجعفرى الزينى — أحد أمراء مصر فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب (المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٨)

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٨

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٥٣ — ١٥٤

من سوسن شرق بالطل محجره وأقحوان شهى الظلم والشنب
فانظر إلى الورد يحكى خد محتشم ونرجس ظل يبدى لحظ مرتقب

وكان بأرض بركة الشعبية التى تجاور بركة الحبش عدة بساتين ومزارع غرست بها الأشجار والكروم والخضروات بأصنافها المختلفة . وقد بلغت مساحتها أربعة وخمسين فداناً (١) .

ولما انحسر الماء عن جزيرة أروى التى تقع بين الروضة وبولاق ، فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، بنى الناس بها الدور والأسواق ، كما غرسوا فيها البساتين وحفروا بها الآبار حتى صارت من أحسن متنزهات مصر (٢) .

كذلك كثر غرس البساتين بجزيرة الفيل فى أيام السلطان الملك المنصور قلاوون ، كما سكن بها المزارعون ؛ ولم يزل يتتابع الناس فى إنشاء البساتين بها حتى أصبح عددها ينيف على مائة وخمسين بستانا فى أواخر عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان السلطان الناصر لا يألو جهداً فى العناية بغرس البساتين ؛ فحول الميدان الظاهرى الذى أنشأه الملك الظاهر بيبرس بأطراف أراضى اللوق إلى بستان كبير ، وجلب اليه أصناف الشجر المختلفة من دمشق ، كما بعث فى طلب مهرة الزراع والمطعمين من الشام فغرسوها فيه (٣) . ولم يزل السلطان الناصر يعنى بهذا البستان حتى أصبح بمثابة معهد زراعى ، يتلقى فيه أهالى مصر طريقة تطعيم الأشجار ، كما حاكت فواكهه بحسنها فواكه الشام .

كذلك أنشأ السلطان الناصر ميدان سرياقوس سنة ٧٢٣ هـ ، وبنى فيه قصوراً فخمة وعدة منازل للأمراء ، كما غرس فيه بستاناً كبيراً ، نقل إليه أصناف الفواكه التى تنبت ببلاد الشام . وكانت ثماره تحمل مع فواكه

(١) المقريزى : خطط ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩
(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٨٦
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ القسم الأول ورقة ٢٢٠

البستان الذى غرسه بالميدان الظاهرى إلى الشراب خاناه السلطانية بقلعة الجبل ولا يباع منها شىء مطلقاً (١).

ولم يفت السلطان الناصر أن يعيد ميدان قلعة الجبل إلى ما كان عليه فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ؛ فنقل اليه الطين وحفر به الآبار، وأجرى اليه الماء من السواقى ، وغرس فيه النخل والأشجار المثمرة ، ثم بنى حوله سوراً من الحجر (٢).

وقد حذا الأمراء والأهالى حذو الناصر ، فى الأكثار من غرس البساتين فلما تم حفر الخليج الناصرى سنة ٧٢٥ هـ ، اشتد إقبالهم على شراء الأراضى التى على جانبيه وغرسوا فيها الأشجار وصارت بعد قليل بساتين مثمرة (٣).

وكان من أثر اهتمام السلطان الناصر بإعادة حفر خليج الإسكندرية سنة ٧١٠ هـ ، أن بادر الناس بالعمارة على جانبيه ؛ ولم يمض على ذلك غير قليل حتى أصبح نحو من مائة ألف فدان من الأراضى المجاورة له صالحة للزراعة بعد ما كانت سباخا ، كما استجد عليه ما يربى على ستمائة ساقية لزراعة القلقاس والنيلة والسمسم (٤).

كذلك كان للأديرة بمصر أراض تستغل فى زراعة الحبوب والفواكه. وقد اشتهرت تلك الأراضى بجودة محصولها ؛ ويتبين لنا ذلك مما قاله ابن فضل الله العمرى (٥) فى وصف ما شاهده بالدير الأبيض (٦) ومزارعه حين زاره بصحبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

يوم لنا بالدير ، دير الأبيض قد انقضى وطيبه لم ينقضى.
قد جئته فى العسكر المنصور فغلق الأبواب كالمحصور.

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩

(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٤٥

(٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢

(٥) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ ١ ص ٣٧٥ — ٣٧٦

(٦) يقع فى غربى النيل فيما يقابل إخميم (ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٣٧٥)

وتزل الرهبان بالدبوس فيه إلى قرارة الديموس .
واطلعت نحوى هناك رابية تياهة على الوهاد آبية .
قد خضعت من جانبيها الوهد كأنها فوق الصدور نهد .
كأنما تطلب منى المأتى هـــذا وقد ولى زمان المشتى .
وللربيع مذ أتى اعتدال وللنسيم بينــه اعتلال .
والشمس قد دب بها السقام واليوم لم يبق له مقام .
والليل قد هيأ صف عسكره وإنما معروفه فى منكره .
والجو فى ردائه المصندل والأرض تذكى باشتعال المندل .
وبجمر الشقيق فيها موقد وشعل البهار فيها توقد .
وزهر الفول ادعى بالحق شبيه أذناب الدجاج البلق .
وزهر الكتان كالبنفسج ومثله لولا ذكى الأرج ،
تبدو على أعطافه الترافه ذو هيف فى شكله ظرافه .
كأنه فى مائه الممتزج زبرجد رصع بالفيروزج .
وسائر الزرع شقاق خضر وبعضها لها طراز نهر .
والنخل حول الدير كالعرائس مجلوة فى فاخر الملابس .

* * *

وكان سلاطين مصر لا يألون جهدا فى العناية بالزراعة لأنها مصدر ثروة البلاد ، فأنشأوا الجسور وشقوا الترع لتوفير مياه الرى للأراضى التى يتعذر وصول الماء إليها . وقد عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٤ هـ إلى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر وكرى ترعها ؛ فندب الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى إلى الشرقية، والأمير علاء الدين أيدغدى شقير إلى البهنساوية والأمير شرف الدين حسين بن حيدر إلى أسيوط ومنفلوط ، والأمير سيف الدين آقول الحاجب إلى الغربية ، والأمير سيف الدين قلى أمير سلاح إلى الطحاوية[1] وبلاد الأشمونين ، والأمير بدر الدين جنكلى بن البابا إلى

(١) يطلق اسما الأشمونين والطحاوية على العمل الخامس من أعمال الصعيد وهو عمل واسع كثير الزرع ، واسع الفضاء ، متقارب القرى (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٤)

القليوبية، والأمير علاء الدين القليلى إلى البحيرة، والأمير بدر الدين بكتوت الشمسى إلى الفيوم، والأمير سيف الدين بهادر الشمسى إلى إخميم، والأمير بهاء الدين أصلم إلى قوص [١].

وكان السلطان الناصر يشرف بنفسه عل إنشاء الجسور؛ فلما شكا إليه الأمير بشتاك من تشريق بعض بلاده بنواحى شبين، سار بنفسه سنة ٧٣٧ هـ مع المهندسين لكشف تلك النواحى. ومالبث أن استقر رأيه على إنشاء جسر يمتد من شبين القصر إلى بنها العسل. وعندما شرع فى بنائه، جمع له اثنى عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه، ثم أقام به عدة قناطر؛ وبذلك تيسر رى الأراضى العالية بتلك المنطقة [٢].

وكانت الجسور على نوعين: سلطانية وبلدية؛ فالجسور السلطانية هى التى يعم نفعها كافة البلاد ويصرف عليها مما يجبى من أموال الأعمال الشرقية والغربية، وما بقى منه يرسل إلى بيت المال. وقد جرت العادة أن يعين سنويا لكل إقليم أمير يشرف على عمارة تلك الجسور البلدية فيعود نفعها على ناحية من النواحى ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون، وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر [٣].

٭٭٭

كانت الأراضى المصرية توزع إقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد؛ وهى مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا، يختص السلطان منها بأربعة قراريط، ويفرد للأمراء عشرة، ومايتبقى يخصص للأجناد. وقد ظل الحال على ذلك إلى أن رأى السلطان الملك المنصور لاجين أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية، هذا فضلا عن أنها تصبح مغنما لأعوانهم ومستخدميهم؛ فعول على

(١) المقريزى: السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٢٧ — ١٣٨
(٢) المقريزى: خطط ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٠
(٣) المقريزى: خطط ج ١ ص ١٠١، القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ — ٤٤٥

رد تلك الإقطاعات إلى أصحابها وإخراجها من دولوين الأمراء . وكان أول ما بدأ به ديوان الأمير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة ؛ فأخرج منه الإقطاعات التى استحوذ عليها من الأجناد ؛ وكانت تنتج ١٠٠,٠٠٠ أردب من القمح سنويا(١) . وحذا حذوه الأمراء ؛ فأخرجوا ماضموه إلى إقطاعاتهم . ثم أمر لاجين بمسح الأرض من جديد ، وأن يخصص للأمراء وأجناد الحلقة أحد عشر قيراطا ، ويفرد تسعه قراريط للعسكر الذى استجده ، كما جعل قيراطا يوزع على من عساه يشكو من صغر إقطاعه ، وأبقى لخاص السلطان أربعة قراريط (٢) .

وقد ندب السلطان لاجين لروك (٣) أراضى مصر ، الأمير بدر الدين بيلبك الفارسى الحاجب ، والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى ، وجماعة من الكتاب ؛ وكان أكبرهم شأناً تاج الدين عبدالرحمن الطويل مستوفى الدولة.

ولما فرغ الأمراء والكتاب من فك زمام الأراضى المصرية وتعديله ، وزعت الوثائق الخاصة بتقرير الإقطاعات على الأمراء ومقدمى الحلقة وأجنادها فى رجب سنة ٦٩٧ هـ (٤) .

على أن نظام توزيع الأراضى المصرية مالبث أن أدخل عليه تعديل فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وكان مما حمل هذا السلطان على فك زمام الأرض وتوزيع الإقطاعات من جديد ، كثرة أخباز مماليك بيبرس الجاشنكير وسلار ، وخشيته وقوع الفتنة إذا مااستولى على أخبازهم (٥) ، ومن ثم اتفق مع القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش سنة ٧١٥هـ

(١) De Sacy, Droit de Propriété Territoriale en Egypte 1ere Serie Tome II. p. 221

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٨٧ — ٨٨

(٣) الروك : مسح الأرض الزراعية وهو المعبر عنه الآن بفك الزمام (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ حاشيه ٢ ص ٤٣٢)

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٨٤٤

(٥) المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٤٦

على رَوْك الأراضى المصرية (١) ، وعين لكل إقليم أناسا عهد اليهم القيام بهذه المهمة . فكتب مرسوما للأمير بدر الدين بن البابا للخروج إلى الغربية والأمير عز الدين أيدمر الخطيرى للشرقية ، والأمراء : بلبان الصرخدى والتليجى وابن طرنطاى وبيبرس الجدار إلى ناحيتى المنوفية والبحيرة ، والبلبلى والمرتينى إلى الوجه القبلى (٢) ؛ كما ذهب الناصر بنفسه إلى بلاد الصعيد الصعيد للإشراف على مسح أرضها (٣) .

ولما أتم الأمراء تحقيق مساحة الأراضى الزراعية وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة ، عادوا إلى القاهرة بعد أن قضوا فى هذه المهمة خمسة وسبعين يوماً (٤) . ثم بعث الناصر فى طلب الفخر ناظر الجيش وسائر مستوفى الدولة وأمرهم بتسجيل أسماء البلاد التى أدخلها ضمن الخاص السلطانى ، والإقطاعات التى خصصها لكل من الأمراء والأجناد . وما لبث بعد ذلك أن ضم إلى خاصته عدة نواح كانت ضمن إقطاعات البرجية وهى : الجيزة وأعمالها ، وبلاد هُو (٥) ، والكوم الأحمر ، ومنفلوط ، والمرج ، والخصوص (٦) ، وغير ذلك من النواحى مما بلغ عشرة قراريط (٧) .

ولم يكتف الناصر بإدخال تلك التعديلات على نظام توزيع الأراضى الزراعية فى مصر . بل أتبع هذا العمل بتخفيف وطأة الحياة على رعاياه ورفع المكوس التى تحول دون تنعمهم برغد العيش ؛ فألغى مكوس ساحل الغلال ؛

(١) De Sacy, Droit de Propriété Territorial en Egypte 1ere Serie, Tome II p. 222

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار (Wiet) ج ٢ ص ٢٢ — ٢٣

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩١

(٤) De Sacy, Droit de Propriété Territoriale en Egypte 1ere serie, Tome II p. 224

(٥) هو : بلدة بالصعيد الأعلى من عمل قوص ، وكانت تعرف أيضا باسم هم (مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٢٥)

(٦) الخصوص : قرية من قرى مديرية القليوبية ، شمال بلدة منية السيرج (مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ١٠٠)

(٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار (Wiet) ج ٢ ص ٢٤ ، ٢٨

وكان يؤخذ على كل أردب درهمان سوى ماجرت العادة بنهبه ؛ فرخص بذلك سعر القمح وانتعش الفقير ، كما ألغى ما كان يؤخذ من طرح الفراريج ومقرر الحوائص والبغال ؛ وكان يجبى لبيت المال عن ثمن الحياصة ثلاثمائة درهم وعن ثمن البغل خمسمائة درهم .

وقد علق أبو المحاسن[1] على رفع تلك المكوس عن كاهل الشعب المصرى بقوله : « وكل ما فعله الملك الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس دليل على حسن اعتقاده وغزير عقله وجودة تدبيره وتصرفه ، حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التى كانت من أقبح الأمور وأشنعها ، وعوضها من جهات لا يظلم منها الرجل الواحد ؛ ومثله فى ذلك كمثل الرجل الشجاع الذى لا يبالى بالقوم كثروا أو قلوا فهو يكر فيهم ، فإن أوغل فيهم خاص ، وإن كر راجعا لا يبالى بمن هو فى أثره ؛ فأبطل لذلك أقبح وأحدث ما صلح من غير تكلف وعدم تخوف . فلله دره من ملك عمر البلاد وغمر بالإحسان العباد ؛ وهذا بخلاف من ولى بعده ، فإنهم لقصر باعهم من إدراك المصلحة مهما رأوه ، ولو كان فيه هلاك الرعية وعذاب البرية ، يقولون لهذا جرت العادة من قبلنا ، فلا سبيل إلى تغيير ذلك ولو هلك العالم . فلعمرى هل تلك العادة حدثت من الكتاب والسنة أم أحدثها ملك مثلهم ، وما أرى هذا وأمثاله إلا من جميل صنع الله ، كم يتميز العالم من الجاهل . »

ولما توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لم يعن الجند بالإبقاء على إقطاعاتهم ؛ فصار فريق منهم ينزل عن إقطاعه لبعض الأفراد نظير مبلغ من المال أو يقايضهم بإقطاع آخر . وقد بدأت هذه الظاهرة تتجلى حين آلت السلطنة إلى الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٦هـ ، ذلك أن الأمير شجاع الدين أغرلو شاد الدواوين عند ما استأثر بالنفوذ فى عهد هذا السلطان ، استجد أشياء منها : المقايضة بالإقطاعات والنزول عنها . فمن رغب فى مقايضة أحد بإقطاعه ، دفع هو ومن قايضه مبلغا معينا لبيت المال ،

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢٢ — ٢٢٤

وكذلك الحال فيما يتعلق بمن اختار حيزا من إقطاعات الحلقة ، ومن أراد النزول عن إقطاعه أدى كل منهما المبلغ الذى يقرره بيت المال . وقد ظل الحال على ذلك إلى أن تقلد الأمير منجك اليوسفى منصب الوزارة ؛ فأباح سنة ٧٤٩هـ النزول عن الإقطاعات والمقايضة بها مما شجع الجند على بيع إقطاعاتهم وسهل انتقال بعضها إلى يد العامة . ولم يزل بيع الإقطاعات والمقايضة بها مستمرا حتى اشترى الباعة وأصحاب الصناعات كثيرا منها وأخذ جماعة عرفوا بالمهيسير يطوفون على الأجناد ويرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها . ولما رأى الأمير شيخون العمرى نائب السلطنة الذى استقل بتدبير أمور الدولة أن الحالة قد ساءت فى البلاد المصرية من جراء هذا الإسراف المعيب فى تغيير نظام الإقطاعات ، أصدر أوامره بإلغاء النزولات والمقايضات وأن يحتفظ كل جندى بإقطاعه ولا يعمد إلى بيعه[١] .

وكان الأمير أو الجندى إذا ما استقر على إقطاعه أخذ نصيبه من التقاوى السلطانية ولا يطالب بها إلا عند خروج الإقطاع عنه . ولما أتم الناصر رَوْك البلاد المصرية ، أبقيت تقاوى كل ناحية بها وسجلت فى الديوان السلطانى ، فبلغت جملتها ١٦٠,٠٠٠ أردب سوى التقاوى البلدية[٢] .

* * *

كانت تختلف قيمة الأرض الزراعية بمصر باختلاف ما يزرع فيها ، وهى على عدة أصناف ؛ نخص بالذكر منها[٣] :

١ — الباق : وهو خير الأرضين وأعلاها قيمة وأوفاها سعرا لأنه يصلح لزراعة القمح والكتان ، وكان يؤجر الفدان منه بأربعين درهما إلى سنة ٧٩٠هـ .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ س ٢١٩

De Sacy, Droit de Propriété Territoriale en Egypte 1ere Serie, Tome II pp. 246—248.

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار (Wiet) ج ٢ س ٣٢

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ س ٤٤٦ — ٤٤٨ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار (Wiet) ج ٢ س ٧٠ — ٧١

٢ ــ البرائب : وسعرها دون الباق لضعف الأرض ، وتصلح لزراعة القرط والمقاثى ، ويؤجر الفدان منها بثلاثين درهما .

٣ ــ البرش : وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر مازرع فيها للسنة الماضية .

٤ ــ الوسخ : وهو عبارة عن الأرض التى استحكم وسخها ، ولم يتمكن المزارعون من إزالته ، بل حرثوها وزرعوها ، فجاء زرعها مختلطا بالحلفاء ونحوها .

٥ ــ الخرس : وهو عبارة عن الأرض التى فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع وتستخدم كمراعى للدواب .

٦ ــ الشراقى : وهو الأرض التى لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها ، أو لسد طريق الماء عنها .

٧ ــ المستبحر : وهو الأرض الواطئة التى إذا سار فيها الماء لا تجد مصرفا له .

٨ ــ السباخ : وهو الأرض التى غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينتفع بها فى زراعة الحبوب ، وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسى .

وقد زادت المحصولات الزراعية فى مصر ونمت ثروة البلاد بفضل تلك العناية التى وجهها سلاطين المماليك إلى تسهيل سبل الزراعة حتى أصبحت غلة فدان القمح تتراوح من أردبين إلى عشرين ، وفدان الفول من عشرين إلى مادون ذلك ، وفدان الحمص من أربعة أرادب إلى عشرة ، وفدان العدس من عشرين أردبا إلى مادونها ، وفدان السمسم مابين أردب إلى ستة أرادب ، أما القطن فمتوسط انتاج الفدان منه ثمانية قناطير . وكان يتراوح محصول الفدان الواحد من القصب مابين أربعين أبلوجة[1] قند[2] إلى ثمانين[3] .

---

(١) الأبلوجة تسع قنطارا

(٢) القند : هو عسل قصب السكر إذا جد (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ حاشية ٥ ص ٤٧٢)

(٣) المقريزى : خطط : ج ١ ص ١٠١ــ١٠٣

وكان يجبى من الأرض الزراعية بمصر خراج يختلف باختلاف البلاد ؛ فأكثر خراج الوجه القبلى غلال من قمح وشعير وحمص وفول وعدس وبسلة ؛ ويؤخذ فى الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف مابين أردبين إلى ثلاثة ؛ وفى بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان أو ثلاثة بحسب قطائع البلاد وضرائبها. أما الوجه البحرى فأغلب خراج بلاده نقدا ؛ وليس فيه ماخراج بلاده غلة إلا القليل على العكس من الوجة القبلى.(١)

○ ○ ○ ○ ○

وقد حرص سلاطين المماليك فى مصر بجانب اهتمامهم بالزراعة ، على الإكثار من نتاج البقر والجاموس والأغنام . وكانت المواشى تتوالد بكثرة فى بلاد الصعيد حتى أصبح أهالى تلك البلاد يملكون منها عددا وفيرا ، كما تمتعوا برغد العيش بفضل وفرة محصول أراضيهم . وقد بلغ من ازدياد ثروتهم فى ذلك العهد أن المسافر من القاهرة إلى أسوان ، كان لايكلف نفسه أى نفقة ، بل يجد بكل بلد أو ناحية يمر بها عدة دور للضيافة ، فإذا مانزل بإحداها يقدم إليه مايناسبه من الطعام ، ويجلب لدابته علفها (٢).

وقدقام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية ؛ ذلك أنه بنى حظيرة على قطعة من الأرض بجوار قلعة الجبل ، أجرى إليها الماء من القلعة ، وأنشأ بها بيوتا للدواجن وأخرى للأغنام والمواشى ؛ ثم أودع بها ألفى رأس من الضأن بعث فى طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجهة البحرى ، كما جلب إليها كثيرا من البقر .

وقد بلغ من اهتمام الناصر بالإكثار من نتاج الأغنام أنه صار يتتبع مراعيها فى عيذاب وقوص ومادونهما من البلاد ويجلب منها الأنواع المختارة ؛ وفضلا عن ذلك فإنه كان يبعث فى استحضار الأغنام من بلاد النوبة واليمن(٣).

(١) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٤٩ — ٤٥٠

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٠

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ القسم الثانى ورقة ٢٥٣

الفصل الثانى

مظاهر تقدم الصناعة فى مصر

ازدهرت الصناعة بمصر فى عهد سلاطين أسرة قلاوون بفضل اهتمامهم بالعمل على ترقيتها وحرصهم على سد حاجة الشعب منها . وكان مما سهل عليهم مهمتهم نبوغ كثير من المصريين فى مختلف الصناعات .

وقد ظفرت مصر فى عصر المماليك بمركز هام فى صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها حتى أصبح لبعض المدن المصرية شهرة عالمية فى هذا المضمار ؛ نخص بالذكر منها : مدينة شطا[1] وينسب إليها الثياب الشطوية ، ودبيق[2] التى يصنع بها القماش الثقيل المعروف بالدبيق . وقد بلغ ثمن الثوب منه مائة دينار . وإلى جانب هذه الثياب الجيدة كانت تنسج ثياب رقيقة تسمى بالقصب، ينسج الملون منه بتنيس[3] . ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثله ؛ وكان يصنع منه عمائم للرجال ووقايات وملابس للنساء . أما القصب الأبيض فينسج بدمياط ، وهو عبارة عن قماش من تيل أبيض[4] ؛ وكان يصنع بها أيضاً نوع من القماش يسمى أبا قلمون ، يتغير لونه عدة مرات فى اليوم حسب الوضع الذى يكون فيه[5] .

---

(١) مدينة عند تنيس ودمياط ، عرفت بشطا بن الهاموك الذى لحق بالمسلمين وقت الفتح وأسلم ودلهم على عورات مدينة دمياط التى كان عليها أبوه الهاموك من قبل المقوقس .

(٢) قرية من قرى دمياط (المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٢٦)

(٣) جزيرة بين الفرما ودمياط (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٩)

(٤) الحضارة الاسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٩٨

(٥) لمة فى تاريخ من المعار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٢٣١ (تعريب على بهجت)

وقد اشتهرت مصر منذ عهد بعيد بصناعة المنسوجات الحريرية ، وبذّت فيها غيرها من البلاد التى حذقت تلك الصناعة ، وأصبح بها كثيرون من تجار الحرير ، كما صارت تنسب بعض أنواع الأقمشة الحريرية إلى أسماء مدنها ؛ فالأقمشة التى تعرف باسم فستيان Fustian اشتق اسمها من كلمه «الفسطاط»[١] ، كما أن الأقمشة الحريرية المزركشة المعروفة بالدبيقى تنسب إلى قرية دبيق[٢].

ويتبين لنا مدى تقدم مصر فى صناعة المنسوجات الحريرية من القطع المحفوظة بدار الآثار العربية ؛ فمن بينها قطعة من الحرير أرضيتها خضراء وفيها خطوط صفراء متموجة تكوّن جامات بيضاوية وفى وسطها صور طيور وحيوانات وهمية من الحرير الأخضر ، كذلك نجد من بين محفوظات الدار قطعة من قماش على أرضيتها الزرقاء أغصان ملتفة وأوراق مشرشرة من الأزرق الفاتح ؛ يقرأ بداخلها «عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون» .

وهناك عدا ذلك قطعة من حرير لونها نباتى ، وبها خطوط أفقية الأعلى والأسفل منها عليهما كتابة بالنسخ ، يقرأ فيها : «عز لمولانا السلطان الملك الناصر» ، وبوسط هذه القطعة رسم أسد يفترس غزالا على أرضية بها زخرفة نباتية ؛ ويرجع تاريخ نسجها إلى أواخر القرن السابع الهجرى أو الثلث الأول من القرن الثامن الهجرى .

ومن بين مقتنيات الدار أيضاً : قطعة حرير من قماش أصفر ، عليها كتابة بالمداد الأسود وهى عبارة عن عقد زواج أبى عبد الله محمد المتملك بدنقلة ومذكور عليها نسبه لمخطوبته الأميرة الجليلة الرئيسة المصونة ابنة عمه الست بشرية ؛ ومؤرخ فى ٢ ذى القعدة سنة ٧٣٣ هـ[٣] .

---

(١) تراث الاسلام (Christie, Arnold, Briggs) جـ ٢ ص ٦١ — ٦٢ (تعريب زكى حسن)

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ حاشيه ٣ ص ٤٧٢

(٣) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٩٥ — ٩٦

ومن القطع ذات الكتابات التاريخية التى كشفتها دار الآثار العربية : قطعة نسيج من الحرير الأخضر الغامق ، قوام زخارفها شريطان من الكتابة باسم أحد سلاطين المماليك ، وعلى أرضية سوداء ، وبين هذين الشريطين عصابة فيها مجموعات تمثل كل منها نمراً يصيد غزالا ، ويفصل كل مجموعة من التى تليها رسم شجرة[١] .

وكان يصنع فى دمياط نوع من القماش اسمه « شرب » ، يمتاز بدقة صنعه حتى بلغ من تقدير التجار له أنه لو عمل ثوب منه فى القبوات التى اتخذها الصناع على خليج دمياط وبقى منه شبر دون حياكة ثم تداولته أخرى ، تبين ذلك لهم وعملوا على تخفيض ثمنه[٢] .

وقد نبغ أهالى الإسكندرية أيضا فى صناعة هذا القماش المعروف بالشرب[٣] ، وكانوا يعنون عناية كبيرة بنسجه ؛ ومن ثم علا سعره ،ويتبين لنا ذلك مما أورده المقريزى[٤] عن تلك الصناعة ؛ فقال : « وفى ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب ، كل زنةدرهم بدرهم فضة ، وما يدخل فى الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة » .

وكان للأقمشة التى تنسج بالإسكندريه شهرة فائقة فى عصر المماليك . وقد عبر عن ذلك الشيخ نور الدين على بن أحمد العسقلانى الشهير بابن حجر — أحد تجار مصر القديمة — المتوفى سنة ٧٧٧ هـ فى هذين البيتين[٥] :

إسكندرية كم ذا يسمو قماشك عزا
فطمت نفسى عنها فلست أطلب بزا

وكانت صناعة النسيج فى مصر من الرقى بحيث أصبح من اليسير أيضاً

---

(١) دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٨٨ (تعريب زكى حسن)
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٨٦
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤
(٤) خطط : ج ١ ص ١٦٣
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ القسم الأول ص ٢٨٨ (طبعة كاليفورنيا)

صنع بعض الأقمشة الصوفية ؛ فامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية التى لم يكن لها نظير إلا فى مصر ، كما اشتهرت طحا — إحدى قرى الصعيد — بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة (١).

وعلى الرغم من أن مصر كانت تزرع القطن منذ زمن بعيد ، فإنها لم تكن معدودة من بين البلاد التى تنتج أحسن أنواعه . وقد ظلت على هذه الحال إلى أواخر القرن الثامن عشر ، حيث كانت تصدر الكتان إلى الشام وتستورد منها القطن (٢).

وكانت صناعة القطن على عكس صناعة الكتان منتشرة فى فارس ؛ فيقول الثعالبي (٣) : « وقد علم الناس أن القطن لخراسان وأن الكتان لمصر » . وتقع المراكز الكبرى لصناعة القطن فى شرق فارس وهى مرو ونيسابور وبم (شرق كرمان) . وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة وكان من طرائف ما يصنع بها الطيالسة المقورة التي تنسج برفارف وتباع بخراسان والعراق ومصر (٤).

وكان لسلاطين المماليك مصانع خاصة تسمى دور الطراز ، تصنع فيها الخلع التى تمنح لكبار رجال الدولة وموظفيها ، وينقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم (٥).

كذلك اشتهرت مصر بصناعة الفرش والستور ، وكانت تصنع من الدبيق وتزخرف برسوم الحيوانات المختلفة . وقد مهر أهل دمياط فى عمل الفرش القلمونية المطرزة الملونة ، كما أن الفرش القرمزية التى كانت تصنع بأسيوط تشبه الأرمنية من حيث جودة صوفها ودقة صنعها ؛ وهناك إلى جانب ذلك

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٤ ، الحضارة الاسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٩٦

(٢) Browne, Travels in Africa, p. 354.

(٣) لطائف المعارف ص ٩٧

(٤) الحضارة الاسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٠١

(٥) Sir, E. Denison Ross, The Art of Egypt Throngh the Ages p. 76.

مراكز أخرى لصناعة الستور كالبهنسا التى يعمل بها الستور البهنسية ويبلغ طول الستر منها ثلاثين ذراعا ، وقيمة الزوج ثلاثمائة دينار . وكانت الستور والأكسية والثياب التى تصنع بالبهنسا من الصوف أو القطن ينقش عليها اسم المتخذ له (١) .

ويتبين لنا مدى تقدم صناعة المنسوجات والفرش والبسط فى مصر مما أورده المقريزى (٢) ، فذكر عند كلامه على قصر الأشرفية الذى بناه الأشرف خليل سنة ٦٩٢ هـ ، أنه لما تم بناء هذا القصر احتفل الأشرف بختن أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح على بن قلاوون ، وبلغت النفقة فى عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء ثلثمائة ألف دينار » . وعندما فرغ السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون من بناء قصره المسمى « الدهيشة » سنة ٧٤٥هـ « عمل له من الفرش والبسط والآلات ما يجل وصفه » . وكذلك كانت الحال بالنسبة لقاعة البيسرية التى أنشأها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦١هـ فقد عمل لها من الفرش والبسط مالا تدخل قيمته تحت حصر . »

وكان الأمراء أيضا لا يقلون عن سلاطين مصر فى الاهتمام باقتناء الثياب والبسط ، ولا أدل على ذلك مما ذكره المقريزى (٣) ، فقال :

« إن حواصل المال التى (بقصر قوصون) كانت تشتمل على أنواع المال والقماش والأوانى الذهب والفضة على مالا يحد ولا يعد كثرة . . . وكان فى حاصله عدة مائة وثمانين زوج بسط ، منها ما طوله من أربعين ذراعا إلى ثلاثين ذراعا عمل البلاد ، وستة عشر زوج من عمل الشريف بمصر ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نقرة ، منها أربعة أزواج بسط من حرير » .

---

(١) الحضارة الاسلامية (Mez) جـ ٢ ص ٢٩٧ ، ٣٠٣ — ٣٠٤ ، المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨

(٢) خطط جـ ٢ ص ٢١١ — ٢١٢

(٣) خطط جـ ٢ ص ٧٢ — ٧٣

وقد اقتنت دار الآثار العربية بعض قطع من الستور ؛ يتبين لنا من مشاهدتها إلى أى حد تقدمت صناعتها ؛ فمن بينها قطعة ستارة من قماش مخيش مطرزة بالحرير المختلف الألوان ومنقوش عليها زخارف نباتية تشبه الأغصان ، عليها طيور ، ويحيطها إطار مملوء بالزخارف ، ولا يزال باقيا بها الكثير من خيوطها الفضية (١) .

وكان للمصريين مهارة كبيرة فى صناعة الخيم والفساطيط المعمولة من الدبيق والخسروانى(٢) والبهنساوى ، وهى على عدة أصناف ، فمنها : المفيل والمسبع والمطوس والمطير(٣) ، وغير ذلك من صور سائر الوحوش والطير والآدميين ، ومنها أيضا الساذج (السادة) والمنقوش بالذهب والفضة والخيوط الحريرية .

وكان الصناع المصريون يصنعون تلك الخيم والفساطيط بجميع آلاتها من الأعمدة الملبسة أنابيب الفضة والثياب المذهبة وغير ذلك من سائر أنواعها ، والحبال المكسوة بالقطن والحرير ؛ وكانت جميعها مبطنة بالدبيق والخسروانى المذهب .

وكان لصناعة السروج شأن كبير فى عهد المماليك . وقد تخصص العمال المصريون فى عملها ؛ فكان منهم عدد كبير من المركبين والخرازين بالمكان المعروف « بالصاغة » . وقد بلغ من تفننهم فى صنعها أنهم كانوا يحلونها بالفضة والذهب . ويتبين لنا مدى تقدم هذه الصناعة مما أورده المقريزى(٤) عند كلامه على سوق اللجميين « أدركت السروج تعمل ملونة مابين أصفر وأزرق ، ومنها ما يعمل سيورا من الجلد البلغارى الأسود ؛ ويركب بهذه

(١) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٩٤

(٢) الخسروانى ، نوع من القماش ينسب إلى خسرو شاه — أحد ملوك الفرس — وكان يصنع فى مصر على مثاله .

(٣) المفيل هو الذى نقشت عليه صورة الفيل ، والمسبع صورة السبع ، والمطوس صورة الطاووس ، والمطير صورة الطائر .

(٤) خطط ج ٢ ص ٩٨

السروج السود القضاة ومشايخ العلم اقتداء بعادة بنى العباس فى استعمال السواد ، أما السروج التى يستخدمها الأجناد والكتاب ، فيعمل للسرج فى قربوسه ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية بالذهب . . . ولا يكاد أحد يركب فرسا بسرج ساذج إلا أن يكون من القضاة وأهل العلم والورع » .

ولم تكن عناية المصريين فى عهد المماليك بصناعة المعادن أقل من اهتمامهم بالصناعات الأخرى التى ظهرت فيها مواهبهم ؛ فقد راجت تلك الصناعات فى مصر ؛ وكان من مميزاتها رسوم الأزهار والأشكال الهندسية الكثيرة الزوايا والكتابات ؛ ونستشهد على ذلك بالطرف المحفوظة بدار الآثار العربيه . فمن بينها كرسى على قوائمه الست كتابة يستفاد منها أنه صنع سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على يد صانع بغدادى [١] .

وقد اتخذ المصريون من النحاس الثريات ؛ فنجد بين مقتنيات دار الآثار العربية ثريا من النحاس عليها اسم الأمير قوصون (٧٣٠ - ٧٣١ هـ) جيء بها من جامع السلطان حسن ، وتسع ٢٥٥ قنديلا ، وتفيد الكتابة المحفورة عليها أن صانعها أتمها فى أربعة عشر يوما [٢] .

كذلك عنى المصريون بصناعة الأوانى المنزلية من النحاس كالأباريق والصحون والطسوت . وتتجلى لنا دقة تلك الصناعة مما احتفظت به دار الآثار العربية من الآنية النحاسية وطاسات الخضة التى كانوا يعتقدون أن من يشرب فيها يشفى من الأمراض ؛ وقد نقش على إحداها : « تنفع هذه الطاسة المباركة اجتماع النيرين بالعقرب ، وهى تقاوم السموم كلها من الحية والعقرب والكلب الكلب والهوام كلها ، يسقى بها الملسوع بماء أو زيت أو لبن ، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى وهى للقولنج وللمغل وللمطلقة وللحمى والصداع . . .

---

(١) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ١٨٩

(٢) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٣٠ ، دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٥٣

ولسائر الآلام والأسقام . . . ولإبطال السحر ؛ وذلك فى شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة(١) . »

وقد بلغ من كثرة استعمال النحاس فى عهد المماليك أن أبواب بعض المساجد وقصور السلاطين والأمراء ، صارت تغطى بصفائح من النحاس الأصفر المقسم بحشوات منقوشة يتكون منها أشكال هندسية بديعة . وقد حفظت لنا دار الآثار العربية بابا من مصراعين مصفحين بصفائح من النحاس منقوشة بأشكال عربية ، يتخللها كثير من صور الطيور والحيوانات ، وبأعلى هذه الزخارف وأسفلها كتابة بالنسخ المملوكى ، يستدل منها أن هذا الباب كان لأحد أمراء عصر السلطان الملك المنصور قلاوون (٢) .

وقد راجت بمصر صناعة تكفيت (تطعيم) البرنز والنحاس بالذهب والفضة ، كما ولع المصريون باقتناء الأوانى النحاسية المكفتة التى كان الصناع يقومون بإعدادها فى سوق الكفتيين بالقاهرة ؛ ويتبين لنا ذلك مما ذكره المقريزى(٣) ، فقال : « وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة . . . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ، ولا بد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت . . . ، وفوق الدكة (٤) دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراها مايسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو ثلث ذراع فى عرض أصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة ، بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر . . . . ؛ وتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا . »

---

(١) Wiet, Catalogue Général du Musée Arabe de caire, Objets en Cuivre

(٢) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٥٧

(٣) خطط ج ٢ ص ١٠٥

(٤) الدكة : عبارة عن شىء يشبه السرير ، وتصنع من خشب مطعم بالعاج والأبنوس (المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٠٥)

كذلك حرص رجال الدولة فى عهد المماليك على اقتناء الأوانى المكفتة ؛ ونستدل على ذلك مما أورده ابن اياس[١] عن محتويات خزائن علم الدين عبد الله بن تاج الدين أحمد بن ابراهيم المعروف بابن زنبور ، التى صودرت فى عهد السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح سنة ٧٥٣ هـ ، فقال : « ووجد له من النحاس الأصفر المكفت والنحاس الأبيض نحو من أربعين ألف قطعة » .

وكانت المعادن تكفت بحفر الرسوم على ظاهرها وملء الشقوق المؤلفة لها بالذهب أو بالفضه أو بهما معا فى بعض الأحيان ، وكثيرا ما كانت تلك الرسوم تزداد جمالا بشقوق أخرى تملؤها مادة لزجة خاصة [٢] .

وقد بلغ فن تكفيت المعادن غايتـــه من الإتقان فى منتصف القرن الثانى عشر وظل محافظاً على هذه المنزلة زهاء قرنين ، فكانت التحف النحاسية تطعم بالذهب والفضة ، وزخارفها ذات نضرة وبهاء يكسبانها بريقاً ولمعاناً ؛ ومما يجدر بنا ملاحظته أن عدداً كبيراً من تلك التحف النفيسة عليه تاريخ إتمامها وأسماء الفنانين الذين قاموا على صناعتها والبلاد التى ينتسبون إليها . وقد ظهر من هذه البيانات أن جل أولئك الفنانين من مدينة الموصل .

وليس غريبا أن يتخذ أهل الموصل ، صناعة التحف النحاسية وتطعيمها حرفة ؛ فكانوا على مقربة من إقليم أعالى الجزيرة حيث توجد مناجم النحاس ؛ ومن ثم أصبحت تلك المدينة غاصة بالصناع الذين اشتهروا بمنتجاتهم الفنية على اختلاف أنواعها لاسيما الأوانى النحاسية التى تختص بالمائدة [٣] .

على أن مدرسة الموصل الفنية سرعان ما انتقل أثرها إلى مصر عن طريق سورية ؛ وكان مما ساعد على ذلك غزو المغول أراضى الدولة العباسية وتخريبهم

(١) تاريخ مصر جـ ١ ص ١٩٨

(٢) تراث الاسلام (Chistle. Arnold, Briggs) جـ ٢ ص ٢٧

(١) دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية (Weit) ص ٦٤ — ٦٥ تراث الإسلام (Chistle, Arnold, Briggs) جـ ٢ ص ٢٨

مدن الجزيرة وسقوط مدينة الموصل نفسها فى يدهم ، فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، فتشتت رجال الفن منها (١) ، واتخذوا فى القاهرة ودمشق دوراً لإقامتهم ؛ ومما يؤيد صحة هذا القول تلك الكتابات المنقوشة على بعض التحف النحاسية التى تنبئنا عن هجرة بعض الفنانين المشتغلين بصناعتها من الموصل إلى القاهرة ودمشق (٢) .

ولما انتقل فن تكفيت المعادن إلى مصر ، تغيرت زخارفه وحدثت فيه تطورات جديدة ، فأصبح للجامات التى كانت تتكرر فى الأشرطة الزخرفية حافات من الرسوم النباتية الدقيقة ، كما صارت الكتابات أهم الزخارف فى المدرسة الفنية بالقاهرة بعد أن كانت شيئاً ثانوياً (٣) .

وقد حفظت لنا دار الآثار العربية مجموعة كبيرة من التحف والأدوات والأوانى التى تمثلت فيها صناعة التكفيت أصدق تمثيل ، نخص بالذكر منها : إناء عليه اسم وألقاب ابن فضل الله العمرى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولا تزال به آثار التكفيت (٤) .

وهناك عدا ذلك كرسى من نحاس أصفر منشورى الشكل ، مسدس الأضلاع ، على أجنابه قضبان رفيعة تقسمها إلى سطوح ، بعضها مكفت ، وبوسط قرصته كتابة بالكوفى الجميل تتضمن ألقاب السلطان الناصر محمد وهى : « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، العالم ، العامل ، الفارس ، المجاهد ، المرابط ، المثاغر ، المؤيد ، المنصور ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، محيى العدل فى العالمين ، ناصر الدنيا والدين بن السلطان المنصور قلاوون الصالحى . » وفى الزوايا وفوق العصابات صور بط ، إشارة إلى اسم والد السلطان محمد ، وترى هذه الصور أيضاً داخل جامات الأجناب . وبأحد الأجناب باب ذو مصراعين بمفصلات وترابيس

(١) تراث الإسلام (Chistle, Arnold, Briggs) حـ ٢ ص ٢٩

(٢) دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٦٥

(٣) تراث الإسلام (Chistle. Arnold, Briggs) جـ ٢ ص ٣١

(٤) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٥٨

وبه تكفيت جميل بالفضة — ، وعلى أرجل هذا الكرسى كتابة أخرى لا تقل فى الأهمية عن السالفة الذكر ، وفيها اسم صانعه ، وتاريخ صنعه ونصها : « عمل العبد الفقير الراجى عفو ربه ، والمعترف بذنبه الأستاذ محمد ابن سنقر البغدادى السنانى ، وذلك فى تاريخ سنه ثمانية وعشرين وسبعمائة فى أيام مولانا الملك الناصر عز نصره(١) » .

ومن بين مقتنيات دار الآثار أيضاً ، شمعدان من نحاس أصفر ، مكفت بالذهب والفضة ، عليه كتابة كوفية مشبكة ، عبارتها دعائية ، وفى الجامات والحافات صور حيوانات وآدميين مختلفة أوضاعهم ، وعند منبت الرقبة كتابة ، يستدل منها على تاريخ صنعه واسم صانعه ونصها : « نقش محمد بن حسن الموصلى — رحمه الله — ؛ عمله بمصر المحروسة فى سنة ثمان وستين وستمائة(٢) .

وقد بدأت صناعة التكفيت فى الإضمحلال منذ أواخر القرن الرابع عشر ، بسبب غارات المغول على سورية ونهب تيمور مدينـــة دمشق سنة ١٤٠١م ونقله كثيرا من صناعها إلى سمرقند التى اهتم اهتماما خاصا بإصلاحها(٣) ؛ غير أنه بينما أخذت تلك الصناعة تضمحل وتضعف فى مهدها الأول ، ازداد توجه الأنظار إليها فى أوروبا حيث كان مقدرا لها أن تنعم ببعث من جديد(٤) .

كذلك عنى المصريون عناية خاصة بصناعة الذهب والفضة . ولم يقل اهتمامهم بهذه الصناعة فى عهد المماليك عما كانت عليه فى عهد الطولونيين والفاطميين ، فقد اتخذوا من الذهب الثريات والنوافذ لبيوت سلاطينهم ، وليس أدل على ذلك من قاعة البيسرية التى بناها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد

(١) لمة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٢١٦
Wiet, Catalogue Généreale Du Musée Arabe de Caire ; Objets en Cuivre
(٢) لمة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ١٠٢
(٣) تاريخ الحضارة الاسلامية (V. Parthold) ص ١٠٧ (تعريب حمزة طاهر)
(٤) تراث الاسلام (Christle,Arn-,Briggs) جـ ٢ ص ٣٢

ابن قلاوون فى قصره سنة ٧٦١هـ ؛ فقد ذكر المقريزى[١] أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠٫٠٠٠ درهم ، كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعا وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس ، وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة صوغت بثمان وثلاثين ألف مثقال من الذهب .

وكان المصريون يتخذون أيضا من المعادن الدكك . وقد لقيت هذه الصناعة إقبالا عظيما ، حتى أصبح لا يخلو منها بيت من بيوت كبار رجال الدولة فى عهد المماليك ؛ ويتبين لنا ذلك مما ذكره المقريزى[٢] ، فقال : « وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار ، تجهز فى شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك : دكة من فضة ، ودكة من كفت ، ودكة من نحاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صينى ، ودكة من بلور ، ودكة من ورق مدهون تحمل من الصين ، أدركنا منها فى الدور شيئاً كثيراً » .

كذلك كان المصريون يعنون عناية خاصة بالدكك والأوانى الفضية التى يستخدمونها فى منازلهم ؛ فينفقون من سعة على إصلاحها إذا ما أصابها عطب فيحدثنا المقريزى[٣] « أن القاضى علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة لما قارب البناء على امرأة من بنات التجار تعرف بست العائم ، حضر إليه فى يوم وكيلها . فبلغه سلامها عليه ، وأخبره أنها بعثت إليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها ماعساه اختل من الدكة الفضة ، فأجابه إلى ماسأل ، وأمره بإحضار الفضة ، فاستدعى الخدم من الباب ، فدخلوا بالفضة فى الحال وبالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة وطلائها ، فأحضروا وشرعوا فى إصلاح ما أرسلته ست العائم من أوانى الفضة وإعادة طلائها بالذهب » .

---

(١) خطط جـ ١ ص ٢١١ — ٢١٢
(٢) خطط جـ ٢ ص ١٠٥
(٣) خطط جـ ٢ ص ١٠٥

وقد أظهر المصريون مهارة كبيرة فى صناعة الأدوات والأوانى الفضية ؛ وكانوا ينقشون عليها بعض الرسوم والكتابة . وقد حفظ لنا المتحف القبطى مجموعة ثمينة من الأطباق الفضية — عليها رسوم أسماك — وشمعدان صنع فى القرن الثالث عشر الميلادى ، عثر عليه بكنيسة مارمينا بفم الخليج وهو على شكل تنينين مكفتين بالفضة ، وبه خمسة عشر مغرساً للشمع ؛ وهناك عدا ذلك مباخر وطسوت وأباريق من الفضة عليها نقوش بارزة ، مذهبة ، وكتابة بالقبطية والعربية [١] .

وقد برع المصريون فوق ذلك فى صناعة سبائك الذهب من التبر الذى يكثر وجوده ببلدة العلاقى التى تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان فيتجولون بهذه المنطقة فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر ويعلمون على المواضع التى يرون فيها شيئاً مضيئاً علامة يعرفونها ، ويبيتون هناك ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التى علموا عليها ومضوا بها إلى آبار هناك ، فغسلوها بالماء واستخرجوا التبر ثم يمزجونه بالزئبق ويسبكونه [٢] .

وكان يستخرج الزمرد من قفط ؛ فيحفر عليه أهالى هذه البلدة فى الجبل ويقتلعونه من عمق بعيد [٣] ، وإذا ما استخرج ألقى فى الزيت الحار ثم يوضع فى قطن ويصر ذلك القطن فى خرق خام أو نحوها . وكان يجمع مايخرج من هذا المعدن ويصدر إلى الفسطاط ؛ ولم يزل يستخرج الزمرد من قفط إلى أن أوقف الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور العمل بمناجمه لقلة

---

(١) مرقس سميكه باشا : دليل المتحف القبطى ص ٩٠ — ٩١

(٢) الحضارة الاسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٦٩

(٣) يقول القزولى عن استخراج الزمرد بمصر : « فى التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان يوجد فى جبل هناك كالجسر فيه معادن تحتفر ، فيخرج منها الزمرد قطعا صغارا كالحصى منبثة فى تراب المعدن وربما أصيب العرق منه متصلا فيقطع وهو جيده ؛ وأما صغيره فإنه يصاب فى التراب بالنخل ؛ وذلك أنهم ينخلون التراب ثم يوجد خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة (مطامع البدور فى منازل السرور ج ٢ ص ١٤٩)

ما يستخرج منها وذلك فى أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون [١] .

وكان المصريون يستخدمون هذا المعدن النفيس فى تزيين عروش السلاطين وترصيع تيجانهم ، كما استخدموه أيضاً فى مختلف أنواع الحلى .

ولم تكن مصر من المراكز الهامة لصناعة الحديد فى عصر المماليك ، لكن المصريين رغم ذلك حذقوا فى صناعة بعض أنواع من الأسلحة والدروع المتخذة من الصلب ، كما اتخذوا من الحديد الشبابيك والأقفال والمفاتيح الحديدية التى حفظتها لنا دار الآثار العربية وتمتاز بأن رءوسها محلاة بزخارف هندسية مخرمة [٢] ؛ وفضلا عما تقدم فإن المصريين كانوا يصنعون من الحديد أقفاصاً يستخدمونها فى الأسواق ؛ فقد ذكر المقريزى [٣] أنه كان «فوق التخوت التى تقع تجاه شبابيك القبة المنصورية أقفاص صغار من حديد ، تشبك فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن » .

وكان الزجاج من بين المصنوعات التى ازدهرت بمصر فى عهد المماليك ، فقد أورد الحسن بن عبد الله — أحد كتاب القرن الثامن الهجرى — فى كتابه « آثار الأول فى ترتيب الدول » عبارة نقف منها على وجود هذه الصناعة بمصر ؛ وفيما يلى نصها [٤] : « ويتقدم (والى المدينة) بأن تكون أرباب الصناعات القذرة فى أطراف البلد بمعزل عن المواضع المتوسطة منها ، وذلك مثل المسالخ والمدابغ ومسابك الزجاج والحديد وأتاتين الجير والآجر وعمل الصابون وما أشبه ذلك » .

وقد اشتغل الصناع المصريون فى أوائل العهد الإسلامى بصنع أقراص الزجاج التى كانت تتخذ عيارات وزن وكيل ؛ فيطبع بها على الأوانى لبيان

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٣٣

(٢) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٦٦ — ٦٨

(٣) خطط ج ٢ ص ٩٧

(٤) ص ١٦٥

أحجامها المختلفة [١]، ثم أخذوا يصنعون فى القرن الخامس الهجرى زجاجاً شفافا، عظيم النقاوة، يشبه الزمرد. وكان ذلك مما مهد السبيل إلى بلوغ هذا النوع من الصناعة الذروة العليا فى عصر المماليك الذى أخرج فيه صناع الزجاج المصابيح أو المشكاوات التى راجت سوقها على وجه الخصوص فى القرن الرابع عشر الميلادى [٢].

وكانت أهم مراكز صناعة الزجاج فى مصر الإسلامية، بالفسطاط والفيوم والأشمونين والإسكندرية التى لم تفقد مكانتها فى ميدان هذه الصناعة على الرغم مما نالته الفسطاط من شهرة فائقة فيها [٣].

وقد لقيت صناعة المشكاوات الزجاجية فى مصر نجاحا وإقبالا عظيمين؛ وليس أدل على ذلك من أن ما تمتلكه منها دار الآثار العربية بالقاهرة يكاد يربى على الموجود فى متاحف العالم أجمع، وهى بشكلها وتنوع نقوشها وحسن الخطوط وإتقان صنعها وتلوين المينا تشهد ببراعة الصناع وحذقهم.

ولم يتفق علماء الفن الإسلامى على تحديد الإقليم الذى صنعت فيه هذه المشكاوات. فيذهب بعضهم إلى أنها صنعت فى سورية، بينما يقول آخرون إنها صنعت فى الديار المصرية؛ وممن يميل إلى هذا الرأى Max Herz، الذى دعم حجته بعدة أدلة، منها أن مصر وسورية سواسية فى صناعة الزجاج، فلا يتصور أن المصريين يفضلون جلب أشياء سريعة العطب والكسر من الخارج على صنعها رأسا فى بلدهم موطن صناعة الزجاج؛ وفضلا عن ذلك فإنه يرى أن زخارف هذه المشكاوات تشبه الزخارف الموجودة بالمساجد التى كانت معلقة بها. وإذا أمعنا النظر فى بعض المصابيح التى وجدت بجامع السلطان حسن نرى أن عليها اسم هذا السلطان، ونفس الأزهار المرسومة

(١) زكى حسن: كنوز الفاطميين ص ١٧٩

(٢) زكى حسن: كنوز الفاطميين ص ١٨٠، الهوارى: رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣

(٣) زكى حسن: كنوز الفاطميين ص ١٨١

على رخام تربته مما يثبت لنا أنها صنعت بمصر [١] .

وقد شملت مجموعة المصابيح النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية أثمن المصنوعات الزجاجية الإسلامية ، وهى إلى جانب ذلك متشابهة الشكل ؛ فالرقبة فى كل واحدة منها واسعة الفوهة على هيئة قمع وتحتها بدن منتفخ ومنسحب إلى أسفل أى مكون من جذعى مخروطين متصلين عند قاعدتهما ، وفيه ثلاثة أو ستة آذان ؛ ويقوم البدن على قاعدة أو طيلسان لوضع المشكاة على الأرض إذا أريد عدم تعليقها ، ويتراوح ارتفاعها بين ٢٥ و ٤٥ سنتيمترا [٢].

وكانت تضاء هذه المشكاوات بوضع الفتيل والزيت فى قرابات تعلق بسلاسل على الحافة العليا منها ، ويشبك فى الآذان سلاسل من نحاس أصفر أو من فضة ، تجمع ببعضها تحت كرة مستديرة أو بيضاوية ، تعلق بالسلسلة العظمى المستعملة كعلاقة . وكانت الكرات البيضاوية تتخذ من خشب أو قاشانى أو بيض نعام أو زجاج مدهون بالمينا الجميلة [٣].

وقد شاع فى عصر المماليك طلاء المشكاوات المصنوعة من الزجاج بالمينا ، وهى مادة نصف شفافة تذاب وتستخدم فى زخرفة الأوانى الزجاجية والأدوات المعدنية ، ويمكن إعطاؤها ألوانا مختلفة بأن يضاف إليها بعض الأكاسيد [٤].

وتدل الكتابة المنقوشة على المشكاوات التى تقتنيها دار الآثار العربية بالقاهرة على أن معظمها صنع لبعض السلاطين وكبار رجال الدولة المصرية فى القرن الرابع عشر الميلادى [٥] ؛ فمن بينها مشكاة من زجاج غير ملون ،

(١) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٢٩٤

(٢) دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٨٩ ، لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٣٠٠

(٣) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٣٠٠

(٤) تراث الاسلام (حاشية ١ جـ ٢ ص ٣٥) (تعريب زكى حسن)

(٥) Sir. E. Denison Ross, The Art of Egypt Through the Ages p.80

على عنقها زخارف ، وعلى البدن كتابة حمراء نصها : « مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان[١] . » ؛ ويؤخذ من هذه الألقاب ؛ أنها عملت برسم تربة السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى قتل سنة ٦٩٣ هـ[٢] .

كذلك نجد بدار الآثار العربية مشكاة مزخرفة ، على رقبتها كتابة قرآنية ، وعلى بدنها اسم السلطان محمد بن قلاوون ، وبين زخارفها الجميلة نقط بالمينا الزرقاء ، وكثير من الطيور المتقنة الرسم ؛ ونص الكتابة التى على البدن « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين محمد عز نصره[٣] » .
وتحتفظ دار الآثار أيضا بمشكاة من زجاج بها كتابة وزخارف بالمينا مختلفة اللون ؛ والكتابة التى على الرقبة حروفها زرقاء على أرضية من زجاج أكثرها مذهب ، ونصها : (الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى) ؛ أما التى على البدن فتحوى اسم السلطان حسن وألقابه من نفس الزجاج على أرضية بالمينا الزرقاء ؛ ونصها : « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين حسن بن محمد عز نصره » . يضاف إلى ماتقدم مشكاة للأمير ألماس — أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون — ، حول رقبتها رسوم دقيقة الصنع ، تتخللها ثلاث دوائر بها كتابة متقنة بالمينا الزرقاء ، ومزخرفة بنقوش بالمينا البيضاء وزهور صفراء وحمراء وخضراء على أرضية مذهبة ؛ ونصها : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) ؛ وعلى البدن كتابة فى الزجاج نفسه فوق أرضية من المينا الزرقاء ؛ نصها : « مما عمل برسم الجامع المعمور بذكر الله تعالى ، وقف المقر العالى السيفى ألماس أمير حاجب الملكى الناصرى[٤] . »

(١) Wiet, Catalogue des lampes et Bouteilles en Verre Emaillé.

(٢) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية بمصر (Max Herz) ص ٣٠٢

(٣) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٣٠٢

(٤) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٣٠٠ ، ٣٠٦

ولم يكن عمل مصانع الزجاج بمصر مقصورا على إخراج المشكاوات، بل قام المصريون أيضا فى عصر المماليك بصنع الآنية الزجاجية؛ وأحسن مثل لذلك تلك الصينية التى احتفظ بها المتحف القبطى، وهى من وقف كنيسة المعلقة، وعليها ثلاث دوائر، بها رسوم دقيقة بالمينا الحمراء؛ ويرجع تاريخ صنعها إلى القرن الرابع عشر الميلادى[١].

وكان من بين المصنوعات الزجاجية التى ظهرت بمصر: الزجاج الملون اللازم للشبابيك الجص، والمكعبات الزجاجية ذات السطح المذهب التى جرت العادة بتصديرها إلى القسطنطينية لصنع الفسيفساء[٢]؛ ويظهر أن استعمال هذه المكعبات الزجاجية لم يتسع مجاله فى مصر بدليل وجوده فى أثرين اثنين فقط، أحدهما عقد محراب جامع أحمد بن طولون، والآخر عقد محراب المدرسة الأقبغاوية التى تكون جزءاً من الجامع الأزهر. وقد قام أقبغا عبد الواحد — أحد أمراء السلطان الناصر — ببنائها بعد سنة ٧٣٠ [٣]هـ.

وكان المصريون يزاولون أيضا صناعة البللور الصخرى الذى كان يستورد من بلاد المغرب وبعض مناطق البحر الأحمر[٤]. وكان النوع الذى يجلب من القلزم أجمل من المغربى وأكثر منه شفافية[٥].

وقد ساعد استخراج البلور من مصر على خفض ثمنه وإنتاج التحف الكثيرة منه التى حرص أعيان المصريين وكبار رجال الدولة فى عصر المماليك على أن يزودوا بها قصورهم؛ ويتبين لنا ذلك مما أورده المقريزى[٦] عن محتويات خزائن الأمير قوصون، فقال: «أما الذهب المكبس والفضة، فكان ينيف على أربعمائة ألف دينار، وأما الزركش والحوائص والمعصبات

(١) مرقس سميكة باشا: دليل المتحف القبطى ص ١٣٦ — ١٣٧

(٢) الهوارى: رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٤

(٣) لمحة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٢٩٩

(٤) Sir. E. Denison Ross, The Art of Egypt Through the Ages p. 80

(٥) زكى حسن: كنوز الفاطميين ص ١٨٨ — ١٨٩

(٦) خطط ج ٢ ص ٧٢ — ٧٣

ما بين خوانجات وأطباق فضة وذهب فإنه فوق المائة ألف دينار، والبلور والمصاغ المعمول برسم النساء فإنه لا يحصر».

وكان يتخذ من البلور أيضاً الدكك والآنية ؛ وفى ذلك يقول المقريزى[١]: «أخبرنى من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قلاوون وقد حمل فى القاهرة عندما زفت على بعض الأمراء فى دولة الملك الأشرف شعبان ابن حسين بن قلاوون، فكان شيئا عظيما ؛ من جملته دكة من بلور تشتمل على عجائب منها زير قد نقش بظاهره صور ثابتة على شبه الوحوش والطيور وقدر هذا الزير ما يسع قربة ماء.».

وفضلا عما تقدم، فإن البلور استخدم فى مصر، فى صناعة السنج والمكاييل الزجاجية. وقد حفظت لنا دار الآثار العربية الكثير من هذه العيارات بين مجموعاتها[٢].

كذلك كانت مصر من بين المراكز الصناعية التى انتشرت منها نماذج مختلفة من الخزف فى العالم الإسلامى[٣]. وقد بدأت هذه الصناعة تزدهر بمصر فى العصر الطولونى، ثم أخذت فى سبيل التقدم حتى بلغت مبلغا عظيما من الرقى فى عهد الفاطميين، فأصبح يصنع من الخزف الفناجين والقدور والصحون وبعض المواعين ؛ ولا أدل على رواج هذه الصناعة من أن التجار المصريين كانوا يستخدمونها عوضاً عن الورق فى الوقت الحاضر ؛ فيضعون فى الأوانى الخزفية ما يبيعونه ويأخذها المشترون بالمجان[٤].

وقد استمرت صناعة الخزف قائمة فى عصر المماليك، ويتبين لنا ذلك من نماذج القطع الخزفية المحفوظة بدار الآثار العربية، والمتحف القبطى. وتمتاز بنقش أسماء الفنانين الذين قاموا بصنعها على الجزء الأسفل منها، كما أن عليها

---

(١) خطط ج ٢ ص ١٠٥

(٢) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٢٩١

(٣) تراث الاسلام (Chistle, Arnold, Briggs) ج ٢ ص ٣٩

(٤) زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٩ — ١٥٠

كتابات وبعض جمل مثل : «عز لمولانا . . . ومما عمل برسم الجناب» تجعلنا نحكم بغير تردد أنها من آثار القرن الرابع عشر الميلادى ؛ وفضلا عن ذلك فإن بعض الأوانى الخزفية مزين برسوم شارات أصحاب المناصب الكبرى فى عهد المماليك ؛ فنجد الأسد والنسر ذا الرأسين والسيف وزهرة الزنبق والصولجان والدواة والكأس والقوس والسهم (١).

وقد ألقت الحفريات التى عملت بمصر ضوءا عن الإسراف فى استيراد كثير من الأوانى الخزفية من أسبانيا وإيطاليا وفارس والصين . وليس من شك أن صناع الخزف المصريين قلدوا فن صناعة الأوانى الصينية المستوردة من فارس وخاصة من سلطان أباد وأيضا من الصين (٢) .

* * *

وكان يصنع بمصر فى عصر المماليك المراكب النيلية التى تسير فى النيل حاملة حاصلات البلاد بين جهات الوجهين القبلى والبحرى ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن التى تتكون منها الأسطول المصرى . وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لرد غارات الصليبيين عن سواحل مصر والشام .

وقد مهد الملك الظاهر بيبرس السبيل لإعادة شأن الأسطول فى مصر إلى ما كان عليه فى عهد الأيوبيين ؛ فمنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر بإعداد الشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . ولما جاء سلاطين المماليك من بعده اقتدوا به فى عنايته ببناء المراكب الحربية ؛ فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثر اعتلائه سلطنة مصر بإنشاء أسطول قوى وعهد بإعداده إلى إلى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس . ولما كملت عدته ستين مركبا أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، وسار إلى دار الصناعة

(١) لمة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ٢٣٤ ، مرقس سميكة باشا : دليل المتحف القبطى ص ١٣٥

(٢) Sir, E. Denison Ross, The Art of Egypt through the Ages p. 79

بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا ، أقبل إليه الناس من كل حدب وصوب وازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال ، وحين أقبل السلطان ، خرجت الشوانى[١] ، والحراريق[٢] والطرائد[٣] واحدة بعد أخرى وتبارى الجند وما منهم إلا أظهر عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه ، ثم تقدم ابن موسى الراعى وهو فى مركب نيلية ، فقرأ قوله تعالى : (بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم) ، ثم تلاها بقراءة قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير .) ، هذا والشوانى تواصل محاربة بعضها بعضاً إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فمضى السلطان بعسكره عائداً إلى القلعة ، وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم فى لهو ومرح[٤] .

كذلك حرص السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على أن يحتفظ لمصر بأسطول قوى ، فعنى بإنشاء الشوانى وتجهيزها سنة ٧٠٢ هـ لدرء الخطر الصليبي عن سواحل بلاد الشام[٥] .

وعندما عاود الصليبيون مهاجمة الإسكندرية فى عهد الملك الأشرف شعبان سنة ٧٦٧ هـ ، اهتم الأمير يلبغا الأتابك بإعداد الشوانى البحرية لغزو بلاد الفرنجة ، فجمع كميات وفيرة من الأخشاب والحديد ، وشرع النجارون

---

(١) الشوانى : جمع شونى أو شينى . وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شأنا ، وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهام ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف .

(٢) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنفط .

(٣) الطرائد : سفن خاصة بحمل الخيول ؛ وكانت تسع نحو أربعين فرسا وربما وصلت إلى ثمانين فرسا .

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

(٥) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٥

والنفاطة فى بناء السفن الحربية بجزيرة أروى [١] . وقد أشرف على إنجازها الوزير فخر الدين ماجد بن قزوينة [٢] .

ولما كملت عمارة الشوانى الحربية فى ربيع الأول سنة ٧٦٨ هـ ، جهزها الأمير يلبغا الأتابك بالمقاتلة والعدد الحربية والأسلحة ، ثم فرقها على الأمراء فتسلم كل أمير ماخصه من الشوانى وزينها بأعلامه ، وأقام فيها الطبول والأبواق كما أنزل بها فريقا من مماليكه لابسين عدة الحرب ، ثم ركب السلطان والأمير يلبغا وسائر أمراء الدولة وأعيانها لرؤية الشوانى بجزيرة أروى ، كما خرج الناس من أنحاء المدينة لمشاهدتها [٣] .

وكانت السفن تصنع بدار صناعة الجزيرة على صنفين ؛ فالمراكب التى تستعمل فى البحر الأبيض تجهز بمسامير ، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندى فتخاط بحبال الليف . وكانت هذه هى الطريقة القديمة فى إنشاء السفن عند جميع الأمم [٤] . وقد ذكر ابن جبير [٥] أن مراكب البحر الأحمر كان «لايستعمل فيها مسمار البتة ، إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ويغتسلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ... وإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ؛ وهذا القرش حوت عظيم فى البحر» .

وكانت السفن تصنع فى مصر من الأخشاب التى تستورد من البندقية وبلاد الشام ، ومن خشب السنط والنبج [٦] الذى روى المقريزى [٧] عن

(١) تعرف هذه الجزيرة أيضا بالجزيرة الوسطى لوقوعها بين الروضة وبولاق

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٣ ص ٤٩ ب

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٥٤ ب

(٤) الحضارة الاسلامية (Mez) جـ ٢ ص ٣٦٢

(٥) رحلة ابن جبير ص ٣٧

(٦) كان شجر النبج يزرع بأنصنا — إحدى مدائن الصعيد القديمة — وكانت تعرف باسم Antinoe الحضارة الاسلامية (Mez) جـ ٢ ص ٣٦٣

(٧) خطط جـ ١ ص ٢٠٤

أبى حنيفة الدينورى أنه كان يباع اللوح (من خشبه) بخمسين ديناراً ونحوها وإذا شد لوح بلوح وطرح فى الماء ستة أيام صار لوحا واحداً».

مما تقدم يتبين لنا مدى اهتمام مصر فى عهد المماليك بالصناعة البحرية، أضف إلى ذلك أن أهلها كانوا يعظمون رجال الأسطول، حتى أطلقوا عليهم «المجاهدين فى سبيل الله» و«الغزاة فى أعداء الله»[١].

* * *

كذلك تقدمت صناعة النجارة والنقش فى الخشب بالحفر، فى عهد المماليك؛ وكان جل استعمالهم للأخشاب فى عمل السقوف والأبواب ومصاريع الشبابيك والكراسى والمنابر والدكك والمشربيات[٢].

وقد بلغ التفنن فى النقش والزخرفة أقصى درجات التقدم على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى يمتاز عصره بالمصنوعات الخشبية البديعة التى تشهد بعظم الصناعة المصرية.

وكان المصريون يتبعون فى زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق، منها: الحشوات والخرط والتطعيم. وقد استخدموا الحشوات رغبة منهم فى تجنب تشقق الخشب تحت تأثير الحرارة وجفاف الجو، هذا إلى ميلهم للاشكال الهندسية. ولم يصل إلينا من نماذج هذه الصناعة إلا القليل لسرعة تطرق البلى إليها؛ لكنا رغم ذلك نستطيع أن نقف على مهارة الصناع المصريين فى ميدان تلك الصناعة مما احتفظت به دار الآثار العربية؛ فمن بين ماتحتوى عليه إحدى قاعاتها: «جزء من سقف مكون من حشوات مختلفة، وعلى هذه الحشوات زخارف من سيقان وفروع نباتية منقوشة بدقة»، ويرجع تاريخ صنعه إلى القرن الثالث عشر الميلادى[٣].

(١) المقريزى: خطط ج ٢ ص ١٩٤.

(٢) المشربيات: اشتق اسمها من أحد الأغراض المخصصة لها وهى إعداد مكان محجوب عن أشعة الشمس توضع فيه أوانى الماء المسامية.

Sir, E. Denison Ross, The Art of Egypt through the Ages p. 73

(٣) دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية (Wiet) ص ٦١

أما الخشب المخروط ، فقد بلغت صناعته أوج عظمتها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكانت تصنع منه الشبابيك والحواجز والمشربيات التى شاع استعمالها فى المنازل لإخفاء حجرات الحريم ، هذا إلى أنها كانت تيسر على النساء النظر إلى الخارج دون أن يراهن المارة ، وتعمل على تنقية ضوء الشمس وإدخال النور اللطيف والنسيم العليل (١) .

وكانت بعض المساجد تزين بالخشب المخروط ؛ وأحسن مثل لذلك ما نجده بجامع الماردانى الذى بنى سنة ٧٣٨ هـ خارج باب زويلة ؛ إذ نرى فى المقصورة التى تفصل الإيوان الشرقى عن صحن الجامع أنواعا شتى من الخرط ؛ من بينها ما رسم على هيئة مسدسات موصولة ببعضها بقطع أسطوانية صغيرة (٢) .

وكان تطعيم المصنوعات الخشبية بالعاج والأبنوس لا يقل فى الأهمية عن صناعة الحشوات والخرط . وقد ذاع استعماله فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ومن التحف القيمه التى تقتنيها دار الآثار العربية ويتجلى فيها ازدهار تلك الصناعة : باب ذو مصراعين به حشوات من خشب نبق منقوشة ومحاطة بأشرطة رفيعة من السن ، عثر عليه بقبة السلطان الملك المنصور قلاوون المبنية سنة ٦٨٤ هـ . وهناك عدا ذلك كرسى من الخشب لوضع الشماعد مكسو بالفسيفساء الدقيق ، عثر عليه بجامع أم السلطان شعبان (٣) .

كذلك نجد بالمتحف القبطى مصراعى باب ، صنعا فى القرن الثالث عشر ، من خشب مطعم بالعاج المنقوش بغاية الإتقان ، وأصله من كنيسة المعلقة . وبهذا المتحف أيضاً كرسى للقراءة « منجلية » بأسفله خزانة كتب

---

(١) Sir, E. Denison Ross, The Art of Egypt Through the Ages. p. 74
تراث الإسلام (Christle, Arnold, Briggs) جـ ٢ ص ١٥٩

(٢) لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية الأخرى (Max Herz) ص ١١٤
المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣٠٨

(٣) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٤٦ ، ٥٠

بابها مطعم بالعاج المنقوش ، وفى وسطه صورة نمر يفترس غزالا ، وهو من وقف كنيسة مارجرجس ، ويرجع تاريخ صنعه إلى القرن الثالث عشر [١] .

☆ ☆ ☆

وكانت مصر من بين المراكز الهامة لصناعة السكر فى العصر الإسلامى بدليل قول ناصرى خسرو الذى زارها سنة ٤٣٩ هـ « وتنتج مصر عسلا كثيراً وسكراً » [٢] . ولم تزل هذه الصناعة سائرة فى طريق التقدم حتى أصبح لها شأن كبير فى عهد المماليك ؛ فيحدثنا المقريزى [٣] أنه كان بسمهود سبعة عشر حجراً لعصير القصب ، كما كان بملوى عدة معاصر ؛ وقد بلغ ما أودعه أولاد فضيل فى مخازنهم بهذه البلدة ، اثنين وثلاثين ألف قنطار من القند [٤] سنة ٧٣٨ هـ [٥] . وفضلا عن ذلك فإنه كان للوزير علم الدين عبد الله بن زنبور خمس وعشرون معصرة وجد بها من القنود مالا ينحصر وزنه » [٦] .

وكانت معاصر القصب فى مصر تنتج كميات وافرة من السكر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ، فبلغ راتب الحوائج خاناه فى أيام هذا السلطان ألف قنطار من السكر فى شهر رمضان ، ثم تزايد حتى بلغ فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ثلاثة آلاف قنطار [٧] .

وكان المصريون يتخذون من السكر الحلوى ، فيصنعون منها عدة أنواع بسوق الحلاويين الذى يعد من أبهج أسواق القاهرة فى عصر المماليك ،

---

(١) سميكة باشا : دليل المتحف القبطى ص ١٤٧

(٢) الحضارة الاسلامية (Mez) ج ٢ ص ٢٦١

(٣) خطط ج ١ ص ٢٠٣

(٤) كان للقند دار خاصة بالفسطاط وموقعها خطة خارجة بن حذافة الصحابى غربى دار البركة (ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٦)

(٥) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٤ ، على مبارك : خطط ج ١٥ ص ٧١

(٦) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ١٩٨

(٧) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣١

يقول المقريزى (١) إن قنطار السكر كان ينادى عليه بهذا السوق بمائة وسبعين درهما ، كما يحدثنا أيضاً أنه « فى موسم شهر رجب كان يصنع فيه من السكر أمثال خيوط وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق . . . ، ترفع بخيوط على الحوانيت ، فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل ، . . . . . . وتمتلىء أسواق مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف . وكذلك يعمل فى موسم نصف شعبان » .

(١) خطط : ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠

الفصل الثالث

تجارة مصر الداخلية

لم يكن اهتمام سلاطين المماليك موجها فقط إلى إنماء الزراعة وترقية الصناعة ، بل عنوا أيضاً عناية كبيرة بتسهيل سبل التجارة المصرية ؛ فنشطت فى أيامهم حركة التجارة الداخلية بمصر ، وأصبحت القاهرة عامرة بالأسواق كما كثرت بها الحوانيت التى كانت تمتد على طول بعض شوارعها من الجانبين .

وكانت أسواق القاهرة وحوانيتها تموج بالتجار والأهالى الذين يفدون إليها لقضاء جميع ما يلزمهم من حاجيات المعيشة؛ وليس أدل على ذلك مما أورده المقريزى [١] عن انتعاش الحركة التجارية فى الطريق الممتد من الحسينية إلى المشهد النفيسى ، فقال : « أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العاد عن إحصاء مافيها من الأنواع فضلا عن إحصاء مافيها من الأشخاص ، وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل يعنون بذلك مايستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها الجبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر . . . ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق القوى ، والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها ، فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ مافيها ألقيت إلى المزابل . . . »

---

(١) خطط جـ ٢ ص ٩٥

كذلك وصف لنا المقريزى[١] وكالة قوصون التى شاهدها بنفسه، فقال: «إن رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها».

وكانت الأسواق التجارية فى عصر أسرة قلاوون، تمتاز بأن كلا منها ينفرد ببيع أنواع خاصة من المنتجات والبضائع؛ فيباع بقيسارية ابن ميسر الكبرى الأقمشة الكتانية والطرح، ويتردد عليها تجار القاهرة فى يومى الأحد والأربعاء لشراء هذه الأصناف. وكان بسوق الجملون الصغير كثير من البزازين الذين يبيعون الثياب المنسوجة من الكتان والقطن، وينادى فيه على الثياب بحراج حراج[٢]، وبه إلى جانب ذلك عدد من الخياطين والبابية الذين يقومون بغسل الثياب وصقلها (أى كيها). وفضلا عن هذين السوقين فإن سويقة أمير الجيوش كان بها عدد كبير من حوانيت الرفائين والحباكين والرسامين والخياطين، ويباع بهذا السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من الفرش ونحوها.

وكان للفراء سوق يعرف بسوق الفراءين، يسكن فيه صناع الفراء وتجاره. ولم يكن اقتناء الفراء شائعاً فى عصر أسرة قلاوون وإنما كثر استعماله فى أيام الظاهر برقوق ومن خلفه من السلاطين، وفى ذلك يقول المقريزى[٣]: «أخبرنى الطواشى الفقيه الكاتب الحاسب الصوفى زين الدين مقبل ... عتيق السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أنه وجد فى تركة بعض أمراء السلطان حسن قباء بفرو قاقم[٤]؛ فاستكثر ذلك عليه وتعجب منه، وصار

---

(١) خطط ﺟ ٢ ص ٩٣

(٢) حراج، حراج؛ كلمة ينطق بها الباعة مرتين أو مرارا قبل أن يبيع بيعا باتا ما بيده؛ فالحراج إذن وقوف البضاعة مع الدلال عند ثمن لايزاد عليه (الكرملى: النقود العربية وعلم النميات. حاشية ٣ ص ٦٢)

(٣) خطط ﺟ ٢ ص ١٠٣

(٤) القاقم: حيوان برى يشبه الفأرة

يحكى ذلك مدة لعزة هذا الصنف واحترامه لكونه من ملابس السلطان وملابس نسائه ، ثم تبذلت الأصناف المذكورة حتى صار يلبس السمور آحاد الأجناد وآحاد الكتاب وكثير من العوام » .

وكان من بين أسواق القاهرة ، سوق يعرف بسوق الشرابشيين نسبة إلى الشرابيش التى يعطيها السلطان لمن يؤمره من المماليك ، وهى أغطية للرأس مثلثة الشكل ، تلبس بغير عمامة . وقد شاع استعمالها فى عصر الناصر محمد ابن قلاوون ، ثم حل محلها الكلوتات الجركسية منذ أن ولى السلطان الملك الظاهر برقوق سلطنة مصر . وكان بهذا السوق فريق من التجار يشترى التشاريف والخلع ثم يبيعها للسلطان والأمراء[١] .

وكان بالقاهرة أسواق خاصة لبيع المواد الغذائية ؛ نخص بالذكر منها : سوق باب الفتوح ، ويمتاز بما على جانبيه من حوانيت القصابين والخضريين والشرايحية وغيرهم ؛ وهو من أعظم أسواق القاهرة وأكثرها عمرانا ؛ فيقصده الأهالى لشراء أنواع اللحم الضأن والمعز ، وأصناف الخضروات . ويكثر بيع لحوم الضأن والبقر أيضاً بسوق حارة برجوان الذى كان به فوق ذلك كثير من حوانيت الزياتين والجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوايين والعطارين والخضريين . وهناك سوق آخر يعرف بسوق البندقانيين كان به عدة حوانيت لبيع المأكولات من الشواء والطعام المطبوخ وأنواع الأجبان والألبان والبوارد والخبز والفواكه .

كذلك كان سوق بين القصرين زاخراً بأصناف المأكولات من اللحوم والحلويات والفاكهة وغيرها . وقد ذكر المقريزى : « أن الرطل من لحم الدجاج أو الأوز المطجن ، كان يباع بهذا السوق ، بدرهم ، كما كانت تباع به العصافير المقلوة ، كل أربعة وعشرين بدرهم » .

وقد فاقت شهرة سوق بين القصرين غيره من الأسواق لكثرة

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٨

مابه من البضائع وازدحامه بالأهلين الذين يفدون إليه لشراء ما يلزمهم من حاجيات المعيشة ، وفى ذلك يقول المقريزى [١] : « ولقد حدثنى غير واحدممن قدم مع قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركى أنه لما قدموا من الكرك فى سنة اثنين وتسعين وسبعمائة كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين ؛ وقال لى ابنه محب الدين محمد : أول ماشاهدت بين القصرين حسبت أن زفة أو جنازة كبيرة تمر من هنالك ؛ فلما لم ينقطع المارة ، سألت ما بال المارة مجتمعين للمرور من ههنا ، فقيل لى هذا دأب البلد دائما » .

وفضلا عن هذه الأسواق ، كان سوق باب الزهومة موصوفاً بحسن ما يباع فيه من المأكولات وطيبها ؛ كما أن سوق الدجاجين امتاز بما يباع به من الدجاج والأوز والعصافير وأنواع الطيور المختلفة كالقمارى والهزارات والشحارير والببغاء والسمان [٢] .

وكانت ثمار بساتين ضواحى القاهرة تنقل إلى دار خصصت للمتاجرة فيها ، تجاه باب زويلة ، تعرف بدار التفاح ، ثم توزع على ما بظاهرها من الحوانيت حيث يتولى بيعها التجار للأهلين . وكان الباعة يعنون بعرض منتجات البساتين فى هذه الحوانيت ، ولا أدل على ذلك مما أورده المقريزى [٣] عن وصفها : « تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة لطيبها وحسن منظرها وتأنق الباعة فى تنضيدها واحتفافها بالرياحين والأزهار » . أما الفواكه التى ترد من بلاد الشام كالتفاح والكمثرى والسفرجل فتودع بوكالة قوصون ، ومنها توزع إلى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيهما .

وكان الشمع يباع بسوق الشماعين الذى تزداد به الحركة التجارية بصفة خاصة فى شهر رمضان لكثرة ما يشترى من الشموع الموكبية التى تزن

---

(١) خطط ج ٢ ص ٢٨ — ٢٩

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧

(٣) خطط ج ٢ ص ٩٣

الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها ، والشمع الذى يحمل على العجل ؛ ويبلغ وزن الواحدة منها قنطاراً [١]

وكان من بين الأسواق التى نشطت فيها الحركة التجارية فى عصر أسرة قلاوون ، سوق السلاح الذى اختص تجاره ببيع القسى والنشاب والزرديات وآلات الحرب . كذلك كان لسوق اللجميين أهمية خاصة فى ذلك العصر لولع المماليك بركوب الخيل ، وحرصهم على اقتناء مايلزمهم من اللجم الفاخرة [٢] .

وكان للتجار الغرباء فنادق [٣] أشبه بالأسواق الكبيرة ؛ فيضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ؛ ومن هذه الفنادق فندق طرنطاى ؛ وكان ينزل فيه تجار الزيت القادمين من الشام — ووكالة قوصون وهى فى مرتبة الفنادق ؛ كان ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب — وكذلك كان يفد إلى فندق مسرور الكبير أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم [٤] .

ولم يكن استخدام الفنادق مقصورا على التجار الغرباء ، بل إن التجار المصريين وأصحاب رءوس الأموال منهم كانوا يودعون فى بعضها صناديق المال ، فيحدثنا المقريزى [٥] عما رآه بفندق بلال المغيثى : « لقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة مابين صغير وكبير ، لايفضل عنها من الفندق غير مساحة صغيرة بوسطه ، وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجل وصفه » .

وكان يعلو الأسواق والفنادق والخانات رباع يسكنها الباعة والصناع ؛

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٦

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨

(٣) يطلق على الأسواق أو المخازن اسم فنادق وهو مشتق من الكلمة اليونانية Pandokeion (الحضارة الإسلامية (Mez) ج ٢ ص ٣٢٧)

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤

(٥) خطط ج ٢ ص ٩٢

وتتكون هذه الرباع من عدة مساكن ، تستأجر بأجور زهيدة ؛ وأحسن مثل لذلك ، رباع وكالة قوصون التى كانت تشتمل على ثلثمائة وستين بيتاً يسكنها أربعة آلاف نفس « ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير » . ولم تكن وكالة قوصون هى التى امتازت دون غيرها بما فوقها من رباع ، بل شيدت بأعلى كل من فندق طرنطاى ووكالة باب الجوانية — التى حولها الأمير جمال الدين محمد بن على الاستادار إلى فندق — رباع كبيرة (١) .

وقد حرص سلاطين المماليك على تلافى حدوث الحرائق بالأسواق التجارية حتى لاتتعرض أرواح رعاياهم وأموالهم للدمار ؛ ومن ثم عهدوا إلى « صاحب العسس » بالإشراف عليها ؛ فكان يجلس بعد صلاة العشاء كل ليلة بمحطة المطافى تجاه سوق الجلون الكبير بالقرب من حارة الجدرية بالغورية ، وينصب أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل ، وحوله بعض أعوانه ، وكثير من السقائين والنجارين وغيرهم من العمال ، خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه (٢) .

كذلك وجه سلاطين المماليك عنايتهم إلى مراقبة حركة البيع والشراء فى الأسواق . فكان المحتسب يعهد إليه بهذه المهمة ؛ فيطوف مع توابعه ليلا ونهاراً على الحوانيت ليقبض على من يحاول التطفيف فى المكاييل والموازين والغش فى حاجيات المعيشة وبيع المأكولات الضارة بالصحة ثم يوقع العقاب على من تثبت إدانته ؛ فيحدثنا المقريزى (٣) عند كلامه على سوق باب الزهومة « أن متولى الحسبة بالقاهرة عبر فى يوم السبت سادس عشر شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة على رجل بواردى بهذا السوق يقال له محمد بن خلف عنده مخزن فيه حمام وزرازير متغيرة الرائحة ... فأدبه وشهره . »

وكان محصول الغلال يرد إلى ساحل القاهرة حيث يباع بمخص الكيالة

(١) المقريزى : خطط ج ٢ س ٩٣ — ٩٤
(٢) المقريزى : خطط ج ٢ س ١٠٣
(٣) خطط ج ٢ س ٩٧

ببولاق، وبسوف منية الأمراء على مقربة من شبرا، وبالشون التي يمتلكها الأمراء (١).

ولم يكن سعر القمح ثابتا في عهد أسرة قلاوون؛ فقد بلغ ثمن الأردب منه في أوائل سنة ٦٨٢هـ خمسة وثلاثين درهما، ثم انخفض إلى عشرين، ثم إلى ثمانية عشر بعد أن أمر السلطان الملك المنصور قلاوون الأمراء بفتح شونهم (٢). ولما كانت السنين الأولى من عهد الناصر محمد بن قلاوون نقص السعر إلى خمسة عشر درهما (٣) ثم ارتفع ثمنه حين وقع الغلاء بمصر سنة ٧٣٦هـ، فوصل ثمن الأردب إلى سبعين درهما، كما تزايد سعره في أيام الأشرف شعبان، فبيع بتسعين درهما الأردب سنه ٧٧٥هـ (٤)، وبمائة وخمسين درهما في السنة التالية بسبب قصور النيل (٥). على أن هذا الغلاء لم يطل أمده، فعاد السعر إلى ما كان عليه في أوائل عهد الناصر.

وقد قاوم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الأثمان الباهظة التي كان يفرضها الباعة وقت الغلاء؛ فجعل يضرب بالسوط باعة الدقيق والخبازين الذين يتغالون في البيع، كما أرغم الأمراء على فتح مخازنهم لسائر الشعب (٦).

وكان بمصر فريق من التجار يعرفون بالتجار الكارمية بيدهم تجارة البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن. ومن المحتمل أن تكون هذه التسمية أطلقت عليهم نسبة إلى الكانم (٧) وهم فرقة من السودان أقامت طائفة منهم بمصر واشتغلت بتجارة البهار (٨).

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩، جـ ٢ ص ١٣٠

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧١٧ — ٧١٨

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٣ — ٤٤٤

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٥ القسم الأول ص ٢٢٣ (طبعة كاليفورنيا)

(٥) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٣٩ — ٤٠

(٦) Stanley Lane-Poole. A History of Egypt in the Middle Ages p. 312

(٧) ذكر القلقشندي (صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٠) أن «بلادهم بين إفريقية وبرقة»

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣١ حاشية رقم ١

وكان يسند الإشراف على ما يصل التجار الكارمية[١] من البهار إلى أحد كبار موظفي الدولة ؛ وهو يتبع أحيانا الوزير ، وتارة يكون تابعا لديوان الخاص السلطانى ، وطورا ينفرد عنهما حسب رأى السلطان[٢] .

وكان لتجار الكارم مراسلات بين عدن والهند . ويقوم عدد كبير منهم برحلات فى بلاد العرب وأقطار الشرق الأقصى لزيارة متاجرهم ؛ هذا إلى أنه كان لهم شركات تمتلك عددا كبيرا من السفن . ولم تكن تجارتهم مقصورة على البهار والعطارة ، بل ساهموا أيضا فى تجارة الغلال والحبوب وخاصة الفول[٣] .

وقد جنى تجار الكارم من وراء اشتغالهم بالتجارة أموالا كثيرة ، حتى قال عنهم المقريزى[٤] : إنهم « فى عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » . وليس أدل على ازدياد ثروتهم من المبالغ التى كانوا يقرضونها لحكومة المماليك فى مصر لسد نفقات حروبها وخاصة فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ؛ فيذكر المقريزى[٥] أن المغول لما أوقعوا الهزيمة بالمماليك سنة ٦٩٩ هـ وأصبحت الدولة المصرية فى حاجة إلى المال ، طلب ناصر الدين محمد بن الشيخى والى القاهرة من تجار الكارم وأعيان التجار مالا على سبيل القرض ؛ كما حدثنا المقريزى[٦] أيضا أنه لما قدم بعض الدماشقة إلى القاهرة سنة ٦٨٧ هـ وألزموا بدفع بعض المبالغ ؛ اعتذروا عن أدائها بأن أموالهم فى دمشق ؛ وسألوا الأمير علم الدين سنجر الشجاعى — الذى كان يلى الوزارة إذ ذاك — أن يفرض عليهم ما يرسلونه إليه بعد عودتهم إلى دمشق ، لكنه خشى ألا يفوا بوعدهم إذا ماعادوا إلى بلدهم ؛ ومن ثم استدعى تجار الكارم بمصر وأمرهم أن يقرضوا

(١) يعرف هؤلاء التجار أيضا فى بعض المراجع باسم تجار الكارم

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٢

(٣) Hanotaux, La Nation Egyptienne (Wiet), Vol IV p. 489

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ القسم الأول ص ١٠٣

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ القسم الثالث ص ٨٩٩

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ القسم الثالث ص ٧٣٩

الدماشقة بعض المال، فلبوا طلبه ، وكتبت على الدماشقة مساطير بما اقترضوه من هؤلاء التجار . ولما عادوا إلى بلدهم لم يجدوا بدا من رد ما أخذوه من تجار الكارم .

* * * * *

كذلك حرصت حكومة المماليك فى مصر على استخراج المعادن من الأراضى المصرية كالشب والنطرون ؛ واحتكر تجارتها الديوان السلطانى . وكان معدن الشب — الذى يرد من بلاد الصعيد والواحات — يصدر من ساحل إخميم وأسيوط والبهنسا إلى الإسكندرية على المراكب النيلية حيث يباع منه لتجار الروم نحو من اثنى عشر ألف قنطار بسعر يتراوح بين أربعة دنانير إلى ستة لكل قنطار . ويباع من هذا المعدن أيضا بمصر للبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارا ، سعر القنطار ستة دنانير ونصف . أما النطرون الذى يستخرج من الطرانة والفاقوسية على مقربة من الخطارة ، فثمن القنطار منه بمصر والإسكندرية سبعون درهما[1] .

* * * * *

كان الناس يتعاملون فى مصر بالدراهم الكاملية التى أمر الملك الكامل الأيوبى بضربها سنة ٦٢٢ هـ وجعلها ثلاثة أثلاث : ثلثى الدرهم من فضة والثلث من نحاس . ولما زالت الدولة الأيوبية وانتقل الحكم إلى المماليك أقروا هذا النقد حتى أمر السلطان الملك الظاهر بيبرس بضرب دراهم جديدة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، نقش رنكه[2] عليها — وهو صورة سبع — .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠٩

(٢) الرنك معناه الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . وقد أورد القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ — ٦٢) النواحى التى يستعمل فيها الرنك ، فقال : « ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هناب أو دواة أو بقجة أو فرنسيسية ونحو ذلك ؛ ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السكر وشون الغلال والأملاك والمراكب وغير ذلك ، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ، ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة تنقش على العبى والبلاسات ونحوها ؛ وربما جعلت على السيوف والأقواس » .

ولم تزل الدراهم الكاملية والظاهرية تقوم بها المبيعات فى مصر والشام ويدفع بها خراج الأراضى وأجرة المساكن إلى أن فسدت سنة ٧٨١ هـ بدخول الدراهم الحموية التى ضربها المماليك بحماه ؛ فكثر تذمر الناس منها[١].

ولما كان هناك بعض مبيعات تقل فى قيمتها عن الدرهم أو جزء منه ، احتاج الناس من أجل ذلك إلى نقد سوى نقدى الذهب والفضة[٢] ؛ فضربت فى أيام الملك الكامل فلوس من نحاس ، ثم تتابع السلاطين من بعده فى ضربها حتى كثرت فى الأيدى ، وكانت — كما قال المقريزى[٣] — « لا يشترى بها شىء من الأمور الجليلة وإنما هى لنفقات البيوت ولأغراض مايحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها » .

على أن بعض أهالى مدن الصعيد وثغر الإسكندرية ، كانوا يتعاملون فى المبيعات القليلة القيمة بأشياء بدل الفلوس . وقد وصف لنا المقريزى[٤] هذه الظاهرة التى شاهدها بنفسه ، فقال : « وأدركت أنا والناس من أهل ثغر الإسكندرية وهم يجعلون فى مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء مايراد منه ؛ ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة ؛ وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبنخال الدقيق ورديء مشاق الكتان .

وكانت الفلوس كثيرا ماتزيف ، ويتوقف حال الناس بسبب التعامل بها ؛ فيحدثنا المقريزى[٥] أنه فى سنة ٧٢٠ هـ خفف المزيفون وزنها حتى صارت زنة الفلس سدس درهم . وكان هذا النقد يتعامل به عددا ؛ فكل ثمانية وأربعين فلسا تساوى درهما فضة . وقد ترتب على إخراج تلك الفلوس الزائفة ، زيادة الأسعار ، كما أغلق الباعة حوانيتهم حين تقرر أن يكون التعامل بالفلوس

(١) المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود ص ١٥
(٢) المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود ص ١٨
(٣) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٠
(٤) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٦٩
(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ القسم الأول ص ٢٠٥ — ٢٠٦

وزنا ، على أن يكون كل رطل منها بثلاثة دراهم فضة . وكان ذلك مما حمل والى القاهرة على استعمال العنف مع الباعة وأصحاب الحوانيت ليعودوا إلى بيع بضائعهم للجمهور ؛ فضربهم بالمقارع وشهرهم . غير أن هذه السياسة التى انطوت على أعمال الشدة والعنف لم تأت بطائل ؛ فنودى بأن يكون التعامل بالفلس الذى عليه بقجة وأن يرد الفلس الخفيف . لكن هذا الحل لم يكن له أثر مادى فى انتعاش حركة البيع فى الأسواق ؛ فسرعان ماسك المزيفون فلوسا عليها بقجة . وقد عولجت هذه المشكلة الاقتصادية بأخذ جميع ماضرب من الفلوس بحساب درهمين والنصف الرطل ؛ فتحسنت الحالة فى الأسواق قليلا . غير أن العامة ظلوا فى عنت من جراء تمادى الباعة فى غلق حوانيتهم .

ولما وقف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على جلية الأمر من العامة الذين ضجوا له بالشكوى مما لحقهم من الفلوس ورد الباعة لها ، وقلة الخبز وغيره من الأشياء التى لاغنى لهم عنها ، استدعى الأمراء وأنكر عليهم رد عمالهم الفلوس وعدم بيعهم القمح من الشون للطحانين والمشتغلين بتموين الناس بالغلال والدقيق ؛ ثم قرر ضرب فلوس جدد ، زنة الفلس منها درهم ، وعلى أحد وجهيه عبارة : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان .

وقد أورد النويرى[1] وصفا آخر لتلك الفلوس التى ضربها الناصر جاء فيه : « وخرجت الفلوس الجدد من دار الضرب وعلى أحد وجهيها اسم السلطان وعلى الوجه الآخر بقجة مربعة ، وزنة كل فلس منها نصف ، وربع ، وثمن درهم » .

ولم يكن الناس فى مصر يتعاملون فقط بالفلوس النحاسية والدراهم الفضية ، بل اتخذوا أيضا الدنانير الذهبية عملة جارية لهم ؛ وكان يكتب على أحد وجهيها « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، أرسله بالهدى ودين الحق

(١) نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٢

ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون » ، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان وتاريخ الضرب (١) .

وقد ضربت الدنانير باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ ﻫ ، وحذا حذوه خلفاؤه ، نخص بالذكر منهم : الملك الصالح اسماعيل الذى سك دنانير سنة ٧٤٤ ﻫ ، والسلطان الناصر حسن وقد نقش اسمه على العملة الذهبية التى سكت فى دورى حكمه ، والأشرف شعبان الذى ضربت فى عهده الدنانير ثمان مرات (٢) .

وكان بالديار المصرية ثلاث دور لسك الفلوس والدراهم والدنانير : الأولى بالقاهرة ، والثانية بالإسكندرية ، والثالثة بقوص ؛ ويشرف على عيار ما يضرب بهذه الدور من العملة قاضى القضاة أو من يستخلفه . وكان هناك لدور الضرب ديوان خاص ، ويحصل منها رسوم للسلطان (٣) .

وكان من وسائل المعاملات التجارية فى مصر الحوالات . وقد شاع استعمالها فى الدولة الإسلامية منذ القرن الرابع الهجرى ؛ فكان التجار يأخذون رقاعا من الصرافين بما لديهم من الأموال ، ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه على الصراف (٤) . وقد لجأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى وسيلة للدفع تشبه إلى حد كبير هذا النوع من التعامل المالى مما يثبت لنا شيوع استعمالها فى مصر وخاصة فى عصر هذا السلطان الذى امتاز بازدهار التجارة المصرية وكثرة التبادل التجارى ؛ فيحدثنا المقريزى (٥) أن الناصر اشترى سنة ٧١١ ﻫ من تجار الفرنجة بمصر جواهر وغيرها من الحاجيات ، فبلغ ثمنها ستة عشر ألف دينار وأحالهم بها على كريم الدين أكرم عبد الكريم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. N 2. p. 317—318.

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ١١٠

(٤) الحضارة الاسلامية (Mez) ج ٢ ص ٣٢١

(٥) السلوك ج ٢ القسم الأول ص ١٠٣ — ١٠٤

ناظر الخاص وحلفه السلطان ألا يؤخرهم عن ثلاثة أيام لاضطرارهم إلى السفر ؛ غير أن كريم الدين لما رأى أنه ليس لديه شيء من هذا المبلغ ، استشار الأمير علاء الدين بن هلال الدولة ، والصلاح الشرابيشي ، فحسنا له أن يستعين بإيرادات المارستان المنصوري وبقرض من تجار الكارم لسداد هذا المبلغ . ولما مضى من أجل الدفع يومان ، أتاه الفرنجة في ظهر اليوم الثالث لاستلام المال ، ثم وفد عليه بعد قليل تجار الكارم — وكان أحدهم قد أقرض بعض هؤلاء الفرنجة عشرين ألف دينار — ، فطالبهم بدفع هذا المبلغ ، بعد أن وقف منهم على السبب الذى من أجله قدموا لمقابلة كريم الدين ؛ فوعده الفرنجة بأدائه .

ولما علم كريم الدين بما بين هؤلاء الفرنجة وتجار الكارم من معاملات مالية ، استدعاهم للاجتماع به ثم وجه كلامه إلى التجار فقال : « ما بالكم مع الفرنج ؟ » ، فأخبروه بأمر القرض الذى أخذه أحد الفرنجة ؛ فقال لهم : « مهما كان عند هذا الإفرنجى هو عندى » ؛ فسر الفرنجة بذلك وأحالوا تاجر الكارم على كريم الدين بستة عشر ألف دينار وهى التى وجب أداؤها لهم بمقتضى حوالة السلطان ، ثم دفعوا لهذا التاجر أربعة آلاف تتمة العشرين ألف دينار .

الفصل الرابع

العلاقات التجارية بين مصر والدول الشرقية والأوربية

لم يلاق سلاطين المماليك صعوبة كبيرة فى استيراد البضائع من الخارج لوقوع كثير من الموانى وطرق القوافل فى قبضتهم ، كما تيسر لهم نقل المحصولات من بلد إلى آخر وتزويد الأسواق المصرية بالمتاجر وخامات الصناعة المحلية بفضل نهر النيل الذى يمتاز بأن الجزء الذى يصلح منه للملاحة دون أى عائق ينتهى عند انتهاء حدود مصر جنوبا ؛ ومن ثم كثرت عليه حركة النقل النهرى، وصارت السفن تجتازه محملة بالبضائع والمحصولات بين أسوان والإسكندرية.

وكان تجار النوبة يأتون فى النيل حتى الجنادل ، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السودان ويتحول من فيها بتجارتهم إلى ظهور الجمال حتى يصلوا أسوان التى كانت مركزاً هاماً للتجارة ، فنها تحمل البضائع والمنتجات المصرية إلى النوبة (١) .

وكانت منتجات الشرق ترد إلى مصر من الصين والهند واليمن بطريق البحر الأحمر ؛ فتمر بخليج عدن حتى عيذاب حيث تفرغ المراكب ما عليها من البضائع ، ومنها تحمل على ظهور الإبل فى الصحراء إلى قوص — قاعدة مصر العليا — ومن هناك تنقل إلى القاهرة فى النيل ، ثم تواصل سيرها فى الفرع الذى يخرج من النيل ويسير فى الاتجاه الشمالى الغربى (٢) (فرع رشيد) إلى قرية العطف التى تقابل فوه ، ومنها بطريق الترعة التى حفرها الناصر محمد ابن قلاوون سنة ٧١٠ هـ إلى الإسكندرية (٣) ، وكانت المتاجر قبل حفر هذه

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٩٧

(٢) Heyd, Histoire de Commerce du Levant au Moyen A ge Vol II pp. 59—60.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٠٠

الترعة تحمل على ظهور الإبل .

وكان يختلف إلى عيذاب المراكب من جميع البلاد الشرقية . وقد تحدث عنها ابن جبير [١] فقال : « إنها من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع عنها زائدا على مراكب الحجاج الصادرة والواردة» . وقد ظلت عيذاب محتفظة بمكانتها حتى حلت محلها عدن سنة ٨٢٧ هـ (١٤٣٠م) ؛ وكانت المركز التجارى بين إفريقية وبلاد العرب ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر [٢] .

ولم تكن بضائع التجار تحمل طوال عهد أسرة قلاوون من عيذاب إلى قوص ، بل أهمل هذا الطريق بعد سنة ٧٦٠ هـ [٣] (١٣٥٩ م) وفقدت قوص أهميتها منذ ذلك الوقت ، وظلت التجارة تخرج من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة .

وكان يرد على الفسطاط كميات كبيرة من المتاجر الآتية بطريق البحرين الأحمر والأبيض ، وبذلك أصبحت هذه المدينة مجمعاً لتجارة الصين والهند واليمن وأوربا ، ومنها تصدر إلى سائر البلاد المصرية [٤] .

وكان من أثر قرب النيل من الفسطاط وكثرة المراكب التى تصل إليها محملة بالبضائع أن أصبحت هذه المدينة أكثر أرزاقا وأرخص أسعاراً من القاهرة لأن ما يصل فى المراكب التى ترسو بالفسطاط يباع بالقرب منها ، ولا نجد لذلك مثيلا فى القاهرة لبعد ساحلها عن المدينة [٥] .

أما التجارة التى ترد إلى مصر من أوربا ، فكانت تأتى عن طريق دمياط والإسكندرية ؛ فترسو سفن البحر الأبيض المحملة بالبضائع عند فم بحر

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 316.

(٢) الحضارة الاسلامية (Mez) جـ ٢ ص ٣٧١

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢٠٢

(٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٤٢

(٥) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٦٧

دمياط ، ثم ينقل ما فيها من البضائع فى مراكب نيلية . ويرجع السبب فى عدم رسوها عند الثغر إلى أن فم بحر دمياط كان قد ردم فى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس ، ومن ثم أصبح من المتعذر على مراكب البحر الأبيض الكبيرة أن تجتازه إلى دمياط ، فظلت ترسو على مقربة من ملتقى النيل بذلك البحر [١] .

وكانت مدينة الإسكندرية من أكبر المراكز التجارية فى عصر المماليك ؛ فيصدر منها منتجات الشرق الأقصى كالفلفل والزنجبيل والبخور وأنواع العطور المختلفة ، وفضلا عن ذلك فإن التجار الأوربيين كانوا يأتون إليها لنقل الخزف والقيشانى الصينى ولؤلؤ الخليج الفارسى [٢] وما تحتاج إليه بلادهم من المنتجات المصرية كالبلح والتيل [٣] والأقمشة التى تقدمت صناعتها فى هذه المدينة وذاع صيتها فى أوربا والشرق ؛ وفى ذلك يقول القلقشندى [٤] : « وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض » ؛ ومما يؤيد هذا القول أن الهند كانت تبعث فى استيراد الأقمشة الحريرية منها ، فيحدثنا المقريزى [٥] عن محمد بن تغلق سلطان هندستان بقوله : « وللسلطان (محمد بن تغلق) دار طراز فيها أربعة آلاف قزاز لعمل أنواع القماش سوى ما يحمل إليه من الصين والعراق والإسكندرية ، ويفرق كل سنة مائتى ألف كسوة كاملة ، فى فصل الربيع مائة ألف ، وفى فصل الخريف مائة ألف ؛ ففى الربيع غالب الكسوة من عمل الإسكندرية ، وفى الخريف كلها حرير من عمل دار الطراز بدهلى » .

وكان بثغر الإسكندرية مخازن تسمى المتجر ، يودع فيها ما يبتاعه الديوان السلطانى من البضائع التى تدعو إليها الحاجة ، غير أنه لوحظ أن خزن الغلال

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٢٤

(٢) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol. IV p. 492

(٣) Heyd, Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age. p. 39

(٤) صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٠٤

(٥) خطط : ج ٢ ص ١٧٤

بها لا يعود بكثير من النفع لأن السعر ربما ينخفض ، وبذلك يمتنع عن بيعها وتظل معرضة للتلف بالمخازن ، ومن ثم اكتفى بخزن البضائع التى يخشى من تطرق الفساد إليها إذا ماظلت مخزونة فترة طويلة من الزمن والتى لاتتعرض لتقلبات الأسعار ، مثل الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك ، (١) .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بتشجيع التجارة مع الشرق ، فسهلوا على التجار سبيل السفر إلى بلاد التكرور (٢) والحبشة واليمن والهند .

ومما هو جدير بالذكر أن بلاد التكرور ارتبطت بعلاقات الود مع مصر . وكان ملوكها ينزلون بالقاهرة وهم فى طريقهم إلى بلاد الحجاز . وقد احتفى السلطان الناصر بقدوم منسا موسى ملك بلاد التكرور سنة ٧٢٤ هـ وتبادل معه الهدايا ، مما كان له أحسن الأثر فى توثق العلاقة بين دولتيهما حتى أصبح التجار المصريون يترددون على تلك البلاد ليشتروا منتجاتها (٣) رغم بعد الشقة بينها وبين مصر . وكانوا يلقون فى حلهم وترحالهم كل أسباب الراحة والطمأنينة ، كما أن أهالى بلاد التكرور كانوا يفدون إلى مصر منذ عصر الظاهر بيبرس ، واتخذ بعضهم هذه البلاد دارا لإقامته ولقوا من كبار رجال الدولة رعاية خاصة ؛ فقد ذكر المقريزى عند كلامه على الاحتفال

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠٩

(٢) بلاد التكرور : هى إحدى الأقاليم الإفريقية الواقعة فى الجهة الجنوبية الغربية من مصر ، وقاعدتها مدينة تكرور . ياقوت : معجم البلدان ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦ — ٢٨٧

وتشمل مملكة التكرور خمسة أقاليم وهى : إقليم مالى ، وإقليم صوصو ، وإقليم غانة من الجانب الغربى عن مالى ، وإقليم كوكو ، وإقليم تكرور . وكان كل من هذه الأقاليم مملكة مستقلة ، ثم جمعت كلها تحت نفوذ سلطان واحد . ويعرف أهل مصر سلطان هذه البلاد باسم سلطان التكرور ، غير أنه كان يأنف من ذلك لأن التكرور إقليم من أقاليم مملكته ، وأحب إليه أن يقال (صاحب مالى) لأنه أكبر أقاليمه .

القلقشندى : جـ ٥ ص ٢٩٢

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٦ ص ٢٠٢

بمرور عام على وفاة الملك الظاهر بيبرس أنه مدت بقرافة مصر أسمطة للقراء والفقهاء ، وعمل للتكاررة والفقراء خوان حضره كثيرمن أهل الخير »[١] .

وقد جنى بعض التجار من وراء التبادل التجارى مع الأقطار الشرقية ثروة ضخمة ، فيحدثنا المقريزى[٢] أن ناصر الدين محمد بن مسلم الكارمى المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ « رزق الحظ الوافر فى التجارة وفى العبيد ، فكان يبعث أحدهم بمال عظيم إلى الهند ، ويبعث آخر بمثل ذلك إلى بلاد التكرور ، ويبعث آخر إلى بلاد الحبشة ، ويبعث عدة آخرين إلى عدة جهات من الأرض ، فما منهم من يعود إلا وقد تضاعفت فوائد ماله أضعافا مضاعفة » .

ويقول أبو المحاسن[٣] عن هذا التاجر إنه « خلف أموالا كثيرة من المتجر وعمل الكيميا ، بحيث أنه لم يكن أحد من أهل عصره أكثر مالا منه » .

وكان لانتشار نفوذ مصر فى بلاد اليمن فى عهد دولة بنى قلاوون أثر كبير فى تسهيل سبل تجارتها مع الأقطار الشرقية ، فصارت تصل إليها السفن محملة بمنتجات الشرق دون أن تعترضها أى صعوبة أثناء مرورها بثغور اليمن .

كذلك كان من أثر ذيوع صيت دولة المماليك فى الشرق أن تنافس أمراء بعض الدول الشرقية على كسب صداقة سلاطينها ليتبادلوا معهم التجارة ؛ ويتبين لنا ذلك مما حدث بين ملك اليمن المظفر يوسف ، وملك سيلان « أبو نكبا »[٤] ، فقد أرسل الملك الأول إلى الثانى يعرض عليه حلفاً تجاريا ولكن ملك سيلان فضل المحالفة مع حكومة المماليك فى مصر ، ولهذا عمد إلى إرسال سفارته ، إلى السلطان قلاوون سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) . وقد سافر رسله من سيلان إلى مصر عن طريق الخليج الفارسى فالعراق والشام بناء على أمر ملكهم حتى لا يضطروا إلى المرور ببلاد اليمن[٥] .

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٤٩
(٢) خطط : ج ٢ ص ٤٠١
(٣) النجوم الزاهرة : ج ٥ القسم الأول ص ٢٨١ (طبعة كاليفورنيا)
(٤) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٤٢ ب
(٥) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol. I pp. 424—426.

وكان مع رسل ملك سيلان كتاب ، لم يوجد بالقاهرة من يحسن قراءته . وقد ذكر فيه تخليه عن صحبة ملك اليمن وتعلقه بمحبة السلطان[١] ، ورغبته فى أن يتبادل التجارة مع جزيرته الغنية[٢] ، كما أورد أيضاً فى كتابه ما يملكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات ، وما يصنع بها من المنسوجات ، وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، وبين له فوق ذلك أن المصريين سيجدون فى جزيرة سيلان حاجتهم مما كان يستورد من بلاد الهند ، وطلب من السلطان أن يعين مندوباً له بعدن[٣] ، ويبعث إليه برسول من قبله . وقد أكرم السلطان قلاوون وفادة سفراء ملك سيلان وأجزل عليهم العطايا ، ثم أنفذ معهم رداً على كتاب ملكهم[٤] .

° ° °

كانت مصر تتبادل التجارة أيضا مع الدول الأوربية . وقد بذل سلاطين المماليك فى هذا السبيل كثيراً من اهتمامهم ؛ فعقد الظاهر بيبرس المعاهدات التجارية مع شارل صـاحب أنجو (Anjou) وألفونس (Alfonse) أمير إشبيلية ، وجيمس ملك أرجونة[٥] .

وقد حذا قلاوون حذو بيبرس ، فعقد معاهدة تجارية مع جنوة ومنح البنادقة عدة امتيازات سهلت عليهم سبيل المتاجرة مع مصر ، وتعهد لهم بحماية رعاياهم وأموالهم[٦] .

وكان من أثر نشاط الحركة التجارية بين مصر من ناحية ، والبندقية وجنوة وبيزا من ناحية أخرى ، أن أصبح لهذه الجمهوريات قناصل بدمياط

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٧١٣

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٣) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyem Age Vol. I p. 426.

(٤) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ١٢٤٣

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٦) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol. II p. 40

ورشيد والإسكندرية ، اعتبرهم السلاطين مسئولين عن مواطنيهم من التجار ؛ ولهؤلاء القناصل حق التكلم عن رعايا بلادهم أمام حكومة المماليك(١) .

وكان التجار الأجانب الذين يفدون إلى مصر تسجل أسماؤهم فى المكاتب التجارية وقنصلياتهم . وقد ازداد عدد القادمين منهم إلى الثغور المصرية حتى أصبح يشاهد فى شوارعها عناصر مختلفة من قطالونيا ومرسيليا وجنوة وپيزا والبندقية(٢) .

وقد ظل التبادل التجارى رائجا بين مصر وأوربا إلى أن سقطت عكا فى يد المماليك ، فقويت الرغبة فى الانتقام من مصر ؛ ومن ثم شرعت البابوية فى إثارة أهالى أوربا ضدها للقيام بحرب صليبية جديدة ؛ لكن هذا الأمل ما لبث أن تلاشى أمام قوة سلطنة المماليك .

ولم تكتف البابوية بإثارة الروح الصليبية ضد سلطنة المماليك فى مصر والشام ، بل عمدت إلى إشهار سلاح اقتصادى ضدها وهو منع تصدير المواد التى تستخدم فى الحرب كالحديد والخشب إلى الأراضى التابعة لسلاطين المماليك ؛ ومن ثم أصدر البابوات : نيقولا الرابع وبونيفاس الثامن وبنوت الحادى عشر (Benoit XI) قرارات حرموا فيها المتاجرة بهذه المواد مع المسلمين(٣) .

كذلك نادى ريمندلل(٤) (Raymond Lull) سنة ١٣٠٦ م بوجوب امتناع المسيحيين مدة ست سنوات عن شراء البهار من المصريين وألا تطأ

---

(١) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol. IV pp. 385—386, 491.

(٢) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol IV p. 491

(٣) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, Vol. II. p. 25.

Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol IV pp. 489 - 490

(٤) كان ريمندلل إسبانيا ، وقد ألم باللغة العربية ، وكرس حياته لتنظيم الحملات التبشيرية لنشر المسيحية فى الأندلس الإسلامية ، وكان يعمل فوق ذلك على إقناع أوربا بأن الوسيلة الوحيدة لاسترجاع الدول الصليبية بالشام هى التبشير .

أقدامهم الإسكندرية وسورية. وكان يرى أن تنفيذ هذه السياسة يؤدى إلى إفقار خزانة السلطان وإلحاق الضرر بامبراطوريته [١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصدر البابا Clement V فى خريف سنة ١٣٠٨ م منشورات مختلفة ، وأشار فيها إلى أن تصدير جميع البضائع بغير استثناء إلى أراضى السلطان ، يقع تحت طائلة المنع ومن يخرج على هذا القرار يعرض لمصادرة أمواله وفقد حريته [٢].

على أن سياسة منع التعامل التجارى مع مصر وسورية لم تلق قبولا من كثير من الدول الأوربية وتجارها ، فأرسل جيمس ملك أرجونة كثيرا من السفراء إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لتوطيد عرى الصداقة بينهما، كما تخلى عن فكرة القيام بحرب صليبية ، وعن منع المتاجرة مع المسلمين ؛ هذا إلى أنه فى السنة الأخيرة من حكمه أوقف مطاردة أحد أهالى برشلونة الذى اتهم بتصدير البضائع إلى مصر واكتفى بتغريمه مبلغا من المال ؛ وظلت برشلونة محتفظة بقنصليتها بالإسكندرية ، كما لم تستدع رعاياها من هذه المدينة [٣]. وكان موقف جنوة من التبادل التجارى مع دولة المماليك لا يختلف عن موقف أرجونة ؛ فنظرت إلى مسألة تحريم التجارة مع المسلمين نظرة ازدراء وظلت تعمل على إنماء علاقتها بمصر [٤].

أما البندقية فإنها فى سنة ١٣٠٢ م أى بعد مرور أحد عشر سنة على سقوط عكا ، نفذت سفيرا إلى مصر يدعى Guido de Canali ليطلب من الناصر تجديد الإمتيازات التى منحها السلطان قلاوون لرعاياها ؛ فأجيب إلى طلبه ، كما

---

(١) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol. IV pp. 489—490.

(٢) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. Vol II p. 27

(٣) Heyd, Historie du Commerce du levaut au Moyen Age Vol II. pp. 32—33.

(٤) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) Vol VI p. 480

وافق الناصر على تعيين Francesco de Canali سفيرا للبندقية بالإسكندرية (١) .

على أن تجارة البنادقة مع مصر مالبثت أن اعترضها ذلك القرار الذى أصدره السناتو بين سنتى ١٣١٣ و ١٣١٧ م ، ويقضى بمنع تصدير البضائع إلى ممتلكات السلطان . وكان ذلك مما حمل رئيس البندقية على التوسط لدى البابا سنة ١٣١٧ م ليحصل على ترخيص لمواطنيه بتصدير الذهب والفضة والقصدير والنحاس والجوخ والزعفران وغير ذلك من البضائع الأوربية التى تحتاج إليها مصر (٢) .

وقد رأى البابوات إزاء ضغط التجار الأوربيين أن يخففوا من غلوائهم : فعينوا المواد التى يمنع تصديرها كالخشب والحديد اللذين يحتمل استخدامهما فى تجهيز عساكر السلطان .

على أن سياسة البابوية رغم ذلك لم تفز بنجاح ، فأخذت الدول الأوربية تبحث عن صداقة الحكومة المصرية وتسعى لعقد معاهدات تجارية تعود عليها بكثير من المزايا (٣) ، فعهدت حكومة البندقية فى سنة ١٣٤٤ م للسفير Nicola Zeno بمفاوضة السلطان الملك الصالح اسماعيل (١٣٤٢ — ١٣٤٥م) للحصول على امتيازات جديدة لمواطنيه ، فلبى السلطان طلبه ورحب بكل من يفد إلى دولته من تجار البندقية . ولما قدم بعد ذلك بزمن قصير السفير Angelo Sérbi ، تسلم عند عودته إلى البندقيه كتابا من السلطان اسماعيل مؤرخا فى ٦ أغسطس سنة ١٣٤٥م ، جدد فيه وعده بالترحيب بتجار البندقية كما أذن لحكومتها بإنفاذ قناصلها إلى الإسكندرية وغيرها من البلاد الخاضعة لنفوذه (٤) .

☆ ☆ ☆

(١) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol II p. 37

(٢) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age Vol II, p. 42

(٣) Hanotaux, Histoire du la Nation Egyptienne (Wiet) Vol IV p. 491

(٤) Heyd, Histiore du Commerce du Levant au Moyen Age Vol II. pp. 45—46.

وكان فى مصر منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور ، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية التى يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدن إذن ولى الأمر ؛ فيعطى المسافر جوازا للخروج من مصر يدرج فيه أسماء كل من يرافقونه ولو كانوا عبيده (١) .

وقد ظل هذا النظام سائدا فى مصر حتى آل الحكم إلى المماليك ، فعنى السلطان الملك المنصور قلاوون بإصدار جوازات سفر كفلت للتجار الطمأنينة فى أنحاء بلاده ، بل فى أسفارهم إلى الهند والصين (٢) .

وكان السلطان قلاوون لا يألو جهدا فى سبيل جذب تجار الأقطار الشرقية إلى مصر ؛ فأذاع أمانا للتجار الذين يفدون إلى بلاده من الصين والهند واليمن والعراق ، أشار فيه إلى ما سيجدونه من إقامة العدل وحسن المعاملة ورعاية مصالحهم وسلامة أنفسهم وأموالهم ؛ وفيما يلى نصه (٣) :

« رسم — أعلى الله الأمر العالى — لا زال عدله يحل الرعايا من الأمن فى حصن حصين ، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة (من) أهل المشارق والمغارب ، فلا أحد إلا وهو من المخلصين ، ويهيء برحابها للمعتفين جنة عدن من أى أبوابها شاء الناس دخولا : من العراق . من العجم ، من الروم ، من الحجاز ، من الهند ، من الصين ، أنه من أراد — من الصدور الأجلاء الأكابر التجار وأرباب التكسب ، وأهل التسبب من أهل هذه الأقاليم التى عددت والتى لم تعدد ، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد — النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفياؤها وأفناؤها ؛ فليعزم عزم من قدر له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة : لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ؛ ونزهة لا يملكها بصر ، ولا تهجر للإفراط فى الخصر ؛

(١) الحضارة الاسلامية (Mez) جـ ٢ ص ٣٦٠

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. p. 281.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤٢

والمقيم بها فى ربيع دائم ، وخير ملازم ؛ ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله فى أرضه ، وأن بركة الله حاصلة فى رحل من جعل الإنسان فيها من قراضه والحسنة من قرضه ؛ ومنها ما إذا أهبط إليها آمل كان له ما سأل ، إذ أصبحت دار إسلام بجنود تسبق سيوفهم العذل ؛ وقد عمر العدل أوطانها ، وكثر سكانها ؛ واتسعت أبنيتها إلى أن صارت ذات المدائن ، وأيسر المعسر فيها فلا يخشى صورة المداين إذ المطالب بها غير متعسرة ؛ والنظرة فيها إلى ميسرة ، وسائر الناس وجميع التجار لا يخشون فيها من يجور فإن العدل قد أجار .

فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأهبة فى الارتحال عليها ، ليجد الفعال من المقال أكبر ويرى إحسانا يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها فى بلدة طيبة ورب غفور ، وفى نعمة جزاؤها الشكر وهل يجازى إلا الشكور ، وفى سلامه فى النفس والمال ، وسعادة تجلى الأحوال وتمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه : من معدلة تجيب داعيها ، وتحمد عيشتهم دواعيها ، وتبقى أموالهم على مخلفيهم ، وتستخلصهم لأن يكونوا متفيئين فى ظلالها وتصطفيهم ، ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم ، فلا يخاف عليه فى حق ، ولا يكلف أمرا يشق ، فقد أبقى لهم العدل ما شاق ورفع عنهم ماشق ؛ ومن أحضر منهم مماليك وجوارى فله فى قيمتهم مايزيد على ما يريد ، والمسامحة بما يتعوضه بثمنهم على المعتاد فى أمر من يجلبهم من البلد القريب فكيف من البعيد : لأن رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود ، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقا على الجود ، فليستكثر من يقدر على جلبهم ، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاث على طلبهم : لأن الإسلام بهم اليوم فى عز لواؤه المنشور ، وسلطانه المنصور ، ومن أحضر منهم فقد أخرج من الظلمات إلى النور ، وذم بالكفر أمسه وحمد بالإيمان يومه ، وقاتل عن الإسلام عشيرته وقومه .

هذا مرسومنا إلى كل واقف عليه من تجار شأنهم الضرب فى الأرض :

(يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) . ليقرأوا منه ماتيسر لهم من حكمه ، ويهتدون بنجمه ، ويقتدون بعلمه ويمتطون كاهل الأمل الذى يحملهم على الهجرة ، ويبسطون أيديهم بالدعاء لمن يستدنى إلى بلاده الخلائق ليفوزوا من إحسانه بكل نضارة وبكل نظرة ، ويغتنمون أوقات الربح فإنها قد أدنت قطافها ، وبعثت بهذه الوعود الصادقة إليهم تحقق لهم حسن التأميل وتثبت عندهم أن الخط الشريف حاكم بأمر الله على ماقالته الأقلام ونعم الوكيل . »

كذلك كانت حكومة المماليك تعمل على استمالة التجار الأوربيين إلى مصر لما يعود عليها بالنفع من وراء متاجرهم كالخشب الذى يستخدم فى بناء الأساطيل ، والجوخ والفراء الذى يستعمل بصفة خاصة فى صنع خلع كبار الموظفين (١) .

وليس أدل على حرص سلاطين المماليك على حماية التجار الأوربيين من أى اعتداء يحيق بهم ، وشملهم برعايتهم مما حدثنا به النويرى (٢) ؛ فقد ذكر أن فريقاً من العامة اجتمع فى ٥ رجب سنة ٧٢٧ هـ فى حلقة قاص — وكان قد حضر لمشاهدتها أحد أتباع رسل إمبراطور الدولة البيزنطية — فلما أخذ القاص فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم رفع المسلمون أصواتهم بالصلاة عليه ؛ غير أن الفرنجى لم يتبعهم فى ذلك ؛ فقال بعضهم : اخرجوا هذا الفرنجى من هنا فإنا نحن نصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو لا يصلى عليه ، ثم شرعو فى إخراجه من الحلقة . لكن أحد موظفى ولاية الإسكندرية دافع عنه ، وقال : « هذا من أتباع الرسل الذين وصلوا إلى السلطان » ، فاستاء العامة من ذلك وضربوا الفرنجى . ومالبثت الفتنة أن اشتعلت نيرانها بين العامة والفرنجة وأسرع والى المدينة إلى إبلاغ السلطان بهذا الحادث ؛ فندب الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى مدبر الدولة لتحقيقه . ولما وقف على حقيقة الأمر ، أشار على السلطان بإهانة القاضى عماد الدين الكندى وعزله بتهمة تحريضه العامة

(١) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne (wiet) Vol IV p. 491

(٢) نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ٧٨

على قتال الفرنجة ، كما زجه هو وحاكم المدينة فى السجن لتهاونهما فى المحافظة على الأمن والنظام مما كان سببا فى حدوث هذه الفتنة (١) .

* * *

وقد زادت ثروة مصر فى عهد أسرة قلاوون من جراء رواج تجارتها مع الغرب ومبادلة المتاجر بين آسيا وأوربا ، وماترتب على ذلك من مرور السفن المحملة ببضائع الشرق والغرب بثغورها ، وجباية الرسوم الجمركية على السلع عندوصولها إلى السويس ودمياط والإسكندرية ، وعند إقلاعها من هذه الثغور.

وكان يفرض على متاجر التجار الأجانب ضريبة تساوى خمس بضائعهم ويشرف على جبايتها ديوان الخمس . وقد عرف المقريزى (٢) هذه الضريبة بقوله : « فالخمس مايستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه وربما بلغ مايستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين دينارا وربما انحط عن عشرين ديناراً ، ويسمى كلاهما خمساً ؛ ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر » .

وقد ذكر القلقشندى (٣) أنه كانت تؤخذ من تجار الفرنجة والروم القادمين بمتاجرهم إلى الإسكندرية ودمياط رسوم مقدارها الخمس عن كل ما يصل لهم كل مرة ، وربما زاد مايؤخذ منهم على الخمس » ؛ ومن ذلك يتضح لنا أن الرسوم المفروضة على المتاجر التى يستوردها الأجانب لم تكن ثابتة .

* * *

ومما لا شك فيه أن مصر تمتعت فى عهد أسرة قلاوون بمركز ممتاز بين أمم العالم الشرقى والغربى من الناحيتين المالية والسياسية ، وما ذلك إلا بفضل انتعاش الحياة الاقتصادية فيها وقيام سياستها الخارجية على أسس موطدة الدعائم ؛ الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى خروجها من جميع الأزمات التى حلت بها مرفوعة الرأس ، محتفظة باستقلالها السياسى والاقتصادى .

---

(١) Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, (wiet) Vol IV p. 491

(٢) خطط ج ٢ ص ١٠٢

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦٠

مصـــــادر الكتاب

(ا) المصادر العربية

١ — ابن أبى الفضائل : (مفضل . . . .)

كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(Paris, 1911, 1920, 1932.)

٢ — ابن إياس : (ت ٩٣٠ ﻫ ، ١٥٢٣ م) . أبو البركات محمد بن أحمد

كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور

(بولاق سنة ١٣١١ ﻫ)

٣ — ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ ﻫ ، ١٢٧٧ م)

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزءان)

(القاهره سنة ١٣٥٨ ﻫ)

٤ — ابن جبير : (ت ٦١٤ ﻫ ، ١٢١٧ م)

رحلة ابن جبير (بغداد سنة ١٣٥٦ ﻫ)

٥ — ابن حجر العسقلانى : (ت ٨٥٣ ﻫ ، ١٤٤٩ م) : شـــهاب الدين ابن على .

أنباء الغمر بأبناء العمر (جزءان) مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة .

٦ — ابن حجر العسقلانى :

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (٤ أجزاء) (مطبعة دائرة المعارف العثمانية — حيدر أباد — الهند — سنة ١٣٥٠ ﻫ)

٧ — ابن خلدون : (ت ٨٠٨ ﻫ ، ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق سنة ١٢٨٤ ﻫ)

٨ — ابن شاهين : (ت٨٧٣هـ، ١٤٦٨ — ١٤٦٩م) غرس الدين خليل الظاهرى
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

٩ — ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحى
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ أجزاء) (مكتبة القدسى — القاهرة)

١٠ — ابن دقاق : (ت ٨٠٩ هـ ، ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) ابراهيم بن محمد المصرى
الانتصار لواسطة عقد الأمصار (لم يظهر منه إلا الجزءان الرابع والخامس — القاهرة ١٣٠٩ هـ ، ١٨٩٣ م)

١١ — ابن فضل الله العمرى : (ت ٧٤٢ هـ ، ١٣٤١ م)
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (الجزء الأول — طبعة دار الكتب الملكية بالقاهرة)

١٢ — ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل .
البداية والنهاية (الجزء الرابع عشر . مطبعة السعادة بالقاهرة)

١٣ — ابن الوردى : (ت ٧٤٩ هـ ، ١٣٤٩م) زين الدين عمر بن مظفر بن عمر ابن أبى الفوارس الوردى المعرى الشافعى .
تاريخ ابن الوردى (تتمة المختصر فى أخبار البشر) (جزءان)

١٤ — أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) اسماعيل بن على عماد الدين
المختصر فى أخبار البشر (٤ أجزاء)

١٥ — أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ ، ١٢٥٤ م) جمال الدين بن يوسف ابن تغرى بردى
(ا) مطبوعات دار الكتب الملكية بالقاهرة ٨ أجزاء
(ب) صور شمسية بدار الكتب الملكية
(حـ) طبعة جامعة كاليفورنيا

١٦ — أبو المحاسن :
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (٣ أجزاء)
(مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة)

١٧ — بيبرس الدوادار : (ت ٧٢٥ ﻫ)
زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة (الجزء التاسع)
صور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول

١٨ — الثعالبي : (٤٢٩ ﻫ) الإمام أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابورى .
لطائف المعارف

١٩ — الحسن بن عبد الله :
آثار الأول فى ترتيب الدول

٢٠ — الخالدى : بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى
المقصد الرفيع المنشا الهادى لصناعة الإنشا
(صور شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول)

٢١ — الخزرجى : على بن حسن
العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية

٢٢ — الديار بكرى : (ت ٩٦٦ ﻫ ، ١٥٥٨ — ١٥٥٩ م)
الخميس فى أحوال أنفس نفيس (جزءان)
(القاهرة سنة ١٨٢٣ م)

٢٣ — زكى محمد حسن :
(ا) كنوز الفاطميين (مطبوعات دار الآثار العربية)
(ب) الجزء الثانى من تراث الإسلام فى العمارة والفنون الفرعية (تأليف : أرنولد وكرستى وبرجز — وتعريب زكى حسن)

٢٤ — سرور : (محمد جمال الدين)
الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره (القاهرة سنة ١٩٣٨ م)

٢٥ — السيوطى : (ت ٩١١ ﻫ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد
تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة .

٣٦ — السيوطي :
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (جزءان)

٣٧ — سميكة باشا : (مرقس)
دليل المتحف القبطى

٢٨ — الشوكانى : (ت ١٢٥٠ هـ) محمد بن على
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ)

٢٩ — الشيخ عبد القادر بن محمد الأنصارى الخزرجى :
درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة(١)
(مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة ومكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة)

٣٠ — على بك بهجت :
فهرست مقتنيات دار الآثار العربية (تأليف هرتز بك وتعريب على بك بهجت)

٣١ — العرشى : (القاضى حسن بن أحمد)
بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام
(نشرة الأب أنستاس مارى الكرملى)

٣٢ — العينى : (ت ٨٥٥ هـ) بدر الدين محمود
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
(صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة)

٣٣ — الغزولي : (علاء الدين على بن عبد الله البهائى)
مطالع البدور فى منازل السرور (جزءان)
(القاهره سنة ١٢٩٩ هـ)

---

(١) اهتديت إلى معرفة اسم مؤلف هذا الكتاب من مكتبة شيخ الاسلام بالمدينة المنورة حين زرتها مع أعضاء بعثة جامعة فؤاد الأول (ذو الحجة سنة ١٣٦٥ هـ ، نوفبر سنة ١٩٤٦ م)

٣٤ — القلقشندى : (ت ٨٢١ ﻫ ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا

٣٥ — الكرملى : (الأب أنستاس مارى ... البغدادى)
النقود العربية وعلم النميات (المطبعة العصرية . القاهرة سنة ١٩٣٩ م)

٣٦ — مبارك : (على باشا)
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة (٢٠ جزءا)

٣٧ — المقدسى : (مرعى المقدسى)
نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين
(مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة)

٣٨ — المقريزى : (ت ٨٤٥ ﻫ ، ١٤٤١ م) (تقى الدين أحمد بن على ...)
السلوك لمعرفة دول الملوك
(ا) نشر الدكتور زيادة
(ب) صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة .

٣٩ — المقريزى :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
(ا) (Ed. Gaston Wiet)
(ب) (طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ ﻫ)

٤٠ — المقريزى :
إغاثة الأمة بكشف الغمة
(نشر الدكتور زيادة وجمال الدين الشيال)

٤١ — المقريزى :
الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام .

٤٢ — المقريزى :
شذور العقود فى أخبار النقود

٤٣ — المقريزى :
الأوزان والأكيال الشرعية (نسخة خطية)

٤٤ — المقريزى :
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب

٤٥ — النويرى : (ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
نهاية الأرب فى فنون الأدب
(صور شمسية بدار الكتب الملكية بالقاهرة)

٤٦ — النويرى : (محمد بن قاسم بن محمد ... المالق الإسكندرى)
الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ
(تم تأليف هذا الكتاب سنة ٧٧٥ هـ)

٤٧ — الهوارى : (حسن محمد)
رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية .

٤٨ — ياقوت : (ت٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى
معجم البلدان (١٢ جزءا — القاهرة سنة ١٩٠٦ م)

(ب) المصادر الإفرنجية

1) Allan,

Cambridge Shorter History of India.

2) Archer & kingsford'

The Crusades.

3) Arnold, Prof. (Sir Thomas)

The Preaching of Islam

4) Arnold,

The Caliphate

5) Atiya, (A. S.)

Egypt and Aragon, Embassies and Diplomate correspondence between 1300 and 1330 A. D.

6) Atiya, (A. S.)

The Crusade in the later Middle Ages.

7) Browne, Edward. G.

A literary History of persia.

8) Budge,

A history of Ethiobia, Nubia and Abyssinia.

9) De Sacy, (Sylvestre).

Sur la nature et les Revolutions du Droit de Propriété Territoriale en Egypte. (Bibliotheque de Arabisants Francais lere. serie le caire, 1923.

10) D' ohsson, (le Baron G.)

Histoire des Mongols. 4. Tomes.

11) Eliot,

The History of India.

12) Gibbons,

The Foundation of the Ottoman Empire.

13) Hanotaux,

Histoire de la Nation Egyptienne (Wiet) vol IV.

14) Heyd,

Histoire du Commerce du levant au Moyen Age.

15) Howorth,

The History of the Mongols. (4 vols)

16) King,

The Knights Hospitallers in the Holy land.

17) Lane - poole, (S.)

Mediaeval India under Mohammedan Rule.

18) Lane - poole, (S.)

The Muhammadan Dynasties.

19) Lane - poole, (S.)

A history of Egypt in the Middle Ages.

20) Lane - poole, (S.)

Moors in Spain.

21) Le Strange,

Palestine under Moslems.

22) Macmichael,

A history of the Arabs in the Sudan.

23) Mez,

Die Renaissance des Islams.

24) Muir, (Sir William)

The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

25) Quatremère, (E.)

Histoire des Sultans Mamlouks de L'Egypte. (2.Vols)

26) Ross, (Sir E. Denison)

The Art of Egypt Through the Ages.

27) Stevenaon,

The Crusaders in the East.

28) Wiet,
Les Biographies du Manhal Safi.

29) Wiet,
Catalogue Génerale du Musée Arabe du Caire, Objets En Cuivre.

30) Wiet,
Catalogue des Lamps et Bouteilles En Verre Emaillé

31) Zetterstéen, (K. V.)
Beitrage Zur Geschichte Der Mamluken — Sultane.

32) Cambridge Medieval History.

33) Encycyopaedia of Islam.

فهرس الأعلام

(أ)

(تنبيه) اعتمدنا فى ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف ؛ وبألفاظ : الأب والابن والأم . مثال ذلك : (ابن جوبان) فقد ذكرناه فى حرف الجيم . (وأبو الربيع) تجده فى حرف الراء (وأم القرى) تجدها فى حرف القاف وهلم جرا .

(ت)

(خ)

(د)

(ض)

(ط)

(ظ)

(هـ)

(و)

فهرس الأمم والقبائل والبطون والعشائر والطوائف

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرس البلاد والمدن والمواضع والجبال والأنهار

(أ)

(ب)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ن)

فهرس أسماء الدواوين والوظائف والألفاظ الاصطلاحية

سلاطين دولة بنى قلاوون

المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ)، (١٢٧٩-١٢٩٠م)

الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ)، (١٢٩٠-١٢٩٣م)

الناصر محمد بن قلاوون (١) (٦٩٣-٦٩٤هـ)، (١٢٩٣-١٢٩٤م)

العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ)، (١٢٩٤-١٢٩٦م)

المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ)، (١٢٩٦-١٢٩٨م)

الناصر محمد بن قلاوون (٢) (٦٩٨-٧٠٨هـ)، (١٢٩٨-١٣٠٨م)

المظفر بيبرس الجاشنكير (٧٠٨-٧٠٩هـ)، (١٣٠٨-١٣٠٩م)

الناصر محمد بن قلاوون (٣) (٧٠٩-٧٤١هـ)، (١٣٠٩-١٣٤١م)

المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد (٧٤١-٧٤٢هـ)، (١٣٤١ م)

الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد (٧٤٢-٧٤٣هـ)، (١٣٤١-١٣٤٢م)

الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد (٣٤٣ هـ)، (١٣٤٢ م)

الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد (٧٤٣-٧٤٦هـ)، (١٣٤٢-١٣٤٥م)

الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦-٧٤٧هـ)، (١٣٤٥-١٣٤٦م)

المنصور سيف الدين حاجى بن الناصر محمد (٧٤٧-٧٤٨هـ)، (١٣٤٦-١٣٤٧م)

الناصر حسن بن الناصر محمد (١) (٧٤٨-٧٥٢هـ)، (١٣٤٧-١٣٥١م)

الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد (٧٥٢-٧٥٥هـ)، (١٣٥١-١٣٥٤م)

الناصر حسن بن الناصر محمد (٢) (٧٥٥-٧٦٢هـ)، (١٣٥٤-١٣٦١م)

المنصور محمد بن المظفر حاجى (٧٦٢-٧٦٤هـ)، (١٣٦١-١٣٦٣م)

الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد (٧٦٤-٧٧٨هـ)، (١٣٦٣-١٣٧٦م)

المنصور على بن الأشرف شعبان (٧٧٨-٧٨٣هـ)، (١٣٧٦-١٣٨١م)

الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان (١) (٧٨٣-٧٨٤هـ)، (١٣٨١-١٣٨٢م)

(الملك الظاهر سيف الدين برقوق) (٧٨٤-٧٩١هـ)، (١٣٨٢-١٣٨٩م)

المنصور أمير حاج بن الأشرف شعبان (٢) (٧٩١-٧٩٢هـ)، (١٣٨٩-١٣٩٠م)

الخلفاء العباسيون فى عهد أسرة قلاوون

الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد		(٦٦١-٧٠١هـ)،	(١٢٦٣-١٣٠٢م)
المستكفى بالله أبو الربيع سليمان		(٧٠١-٧٤٠هـ)،	(١٣٠٢-١٣٤٠م)
الواثق بالله ابراهيم		(٧٤٠هـ)،	(١٣٤٠م)
الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله		(٧٤١-٧٥٤هـ)،	(١٣٤١-١٣٥٣م)
المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفى بالله		(٧٥٤-٧٦٣هـ)،	(١٣٥٣-١٣٦٢م)
المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله	(١)	(٧٦٣-٧٧٩هـ)،	(١٣٦٢-١٣٧٧م)
المستعصم بالله زكريا بن ابراهيم	(١)	(٧٧٩هـ)،	(١٣٧٧م)
المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله	(٢)	(٧٧٩-٧٨٥هـ)،	(١٣٧٧-١٣٨٣م)
الواثق بالله عمر بن ابراهيم		(٧٨٥-٧٨٨هـ)،	(١٣٨٣-١٣٨٦م)
المستعصم بالله زكريا بن ابراهيم	(٣)	(٧٨٨-٧٩١هـ)،	(١٣٨٦-١٣٨٩م)
المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله	(٣)	(٧٩١-٨٠٨هـ)،	(١٣٨٩-١٤٠٥م)

تصحيحات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٢	١٧	ما كان له من	ما كان له من نفوذ
١٣٣	١٤	الجيل	الجبل
١٣٩	١١	قطعت	قطع
١٥٥	١٠	العباس	العباسى
١٧٣	١٧	السلوس	السلعوس
١٧٨	١٩	وأموطم	وأموالهم
١٧٨	٢٣	أحمد بن تمية	أحمد بن تيمية
٢٢٦	١٧	شام	الشام
٢٧٥	٥	Alfonse II	Alfonse IV
٢٧٥	١٠	Alfonse VI	Alfonse IV
٢٩٠	٦	الصعيد	(تحذف)
٣٠٠	١٧	المعررف	المعروف

أبو العلاء المعرى ناقد المجتمع : للدكتور زكى المحاسنى

أول كتاب يبحث فى نقد أبى العلاء للمجتمع نسائه ورجاله ويبرز نظرة المعرى القاتمة إلى الانسان ومخازيه .
وثمنه ٢٠ قرشاً

تاريخ الأدب الفارسى : تأليف الدكتور رضا زاده شفيق الأستاذ بجامعة طهران وترجمة الأستاذ محمد موسى هنداوى المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد ، اتجاه جديد فى البحث يلقى ضوءاً على نواح غير مطروقة من تاريخ الحكومات الاسلامية فى الشرق الأوسط منذ الفتح الاسلامى حتى أحدث العصور ، يربط بين الحياتين السياسية والعلمية مستعرضاً أهم النجوم اللامعة فى حياة الأدب والعلم ، يسد حاجة المؤرخ والأديب والدارس للغة الفارسية ، به ما يقرب من أربعمائة بيت من الشعر وخريطتان للعالم الاسلامى وأشهر مدنه وبعض اللوحات من أهم الشخصيات .
وثمنه ٤٥ قرشاً

قصصنا الشعبى : للدكتور فؤاد حسنين على الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد

قال فيه الأستاذ محمود تيمور بك : « اطلعت على أبحاث فنية عن قصصنا الشعبى دبجتها يراعتكم الكريمة فراقنى فيه تحليلكم الفنى لهذا القصص واهتمامكم بالتعريف به فكتبت إليكم هذا لأعبر لكم عن صادق إعجابى »
وثمنه ٢٠ قرشاً

الأدب المقارن : تأليف فان تيجم

باكورة سلسلة الآداب العالمية التى تتولى دار الفكر العربى إصدارها من تأليف أعاظم الأساتذة المختصين ، وترجمة خيرة الكتاب والأدباء العرب . نقطة حاسمة فى تاريخ الدراسات باللغة العربية .
وثمنه ٢٠ قرشاً

فن القول : للأستاذ أمين الخولى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

توجيه جديد فى دراسة البلاغة العربية على أساس من علم النفس وفلسفة الفن وعلوم اللغة . وهى مجموع المحاضرات التى ألقيت فى معهد الدراسات العليا ، وإنها للبلاغة نهجاً جديداً فيه ، تماسك فى المذهب ، وطرافة فى العرض وجمال فى الأسلوب
وثمنه ٣٥ قرشاً